

# الأبطال

تأليف الفيلسوف الأكبر

توماس كارليل

عربيته

الكاتب الكبير

محمد السبباني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٣٠ هـ - ١٣٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي نصر

لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة المصرية بالأهبة



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ طاق احمد عمارة

مدير بنك مصر - الإسكندرية



## كلمة المعرب

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فهذا كتاب الأبطال وعبادة البطولة وضعه الكاتب الأشهر ، والفيلسوف الأکبر ، توماس كارليل ، وعربه كاتب هذه الكلمات ، وطبعه السيد الشريف الشيخ عبد الرحمن البرقوقى الكاتب الأديب ، صاحب القلم والقرطاس والفلاح المزارع ، رب المحراث والفاى ، الذى رأى أن هنالك شيئاً خلاف الأرض يزرع فيثمر فمال منذ برهة (وليس أول ميلة) الى ثرى الصحيفة فأمرها غيث المناد وبذر بها حب القرائح فأنبئت روضة غناء يدعوها الناس «مجلة البيان» ورأى أن هنالك غير الآبار شيئاً يستنبط فعمد الى اللغة الانكليزية فشق بجداليراع متونها عن خير ينبوع من الحكمة انجس ففاض فتدفق اسمه عند البريطان Heroes and Hero-worship ونسماه نحن الأبطال وعبادة البطولة ، وهو ذاك الذى تحمله الآن يبك الكريمة أيها القارىء

والسيد عبد الرحمن البرقوقي رجل خليق أن يعلم عنه قراء المصريين شيئاً ، وأن يشغل حيزاً في ذاكرة كل فرد منهم ومكانة في نفس كل واحد ، ولولا حياء ملكه منذ كان في المهد ، وحشمة وتواضع ولولا أنه ليس من النفر الأذعيا الذين لم تمتليء الا من الفحة والسماجة والغش أوعيتهم ، ولم تشحن بغير الغرور والضلالة والسفه حقائبهم ، لكان بامتداد الذكر وانتشار الصيت أولى من مائة إنسان لفتوا الأنظار ، وشغلوا الافكار ، واغتصبوا الشهرة اغتصاباً ، واستلبوا كساء الفخار استلاباً ، فحق عليهم قول القائل

أيها المدعى سليماً سفاهاً لست منها ولا قلامة ظفر  
إنما أنت من سليم كواو ألحقت في الهجاء ظلماً بعمر

وأرى أن للسيد البرقوقي عليكم معشر القراء حرمة الكتابة والادب حقاً من مكانة ينبغي أن تكون له في نفس كل منكم ، ومحل يجب أن يفسح له في ذاكرة كل فرد ، وبكرهى أن أرى حقه مغضوباً ، وملكه مسلوباً ، وأنظر محله من النفوس يشغله الجاهل الدعى غير مستح ولا محتشم ، وما ذلك بمستغرب من الوقح الذى نضب من وجهه ماء الحياء ، على أنى كثير التنبؤ بأن هذه الشبهة لا تلبث أن تستدير وهذا الضلال لا ينشب أن ينجلى ، فيقصى الدعى ويستندى الاصيل ويؤخذ للسروق متاعه من السارق حتى يقول هذه بضاعتنا ردت اليانا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل

السيد عبد الرحمن البرقوقي كاتب نفيس ، حسن المنحى قريب  
النال ، داني القطوف ، عذب المورد ، ناصع البيان ، قد نزهت عباراته  
عن الخلل واللغو والركاكة والابهام ، وحصنت من الناقد وارتفعت عن  
مقام المتحدى والمناظر

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبين ظلمة التعقيد  
وركن اللفظ القريب فأدر كـ رـ به غاية المراد البعيد  
كالعنارى غدون في الحلل اليـ ض اذا رحن في الخطوط السود  
ومن شك في قولى هذا فعليه بشرح الاستاذ لكتاب التلخيص ،  
ذلك الذى أعجب به حكيم العصر الشيخ محمد عبده وأطراه وأثنى عليه ،  
ذلك أو مقدمة الاستاذ فى أول أعداد « البيان » وما نشر فى ذلك العدد  
أيضا من كتابه المسمى « حضارة العرب فى الاندلس » وكـ له من مقالة  
شائقة ، وكلمة مأنوسة وجملة أنيقة ، برز بعضها منذ أعوام على صفحات  
المؤيد وبعضها يهيم أن يبرز ويشرب أن يظهر

بها ثمر الفضل الغزير فيانح وأخر فى أحكامه متنظر  
وقد كان للسيد البرقوقي — لو أنه من طلاب الدنيا ولولا أنه  
انما يعمل للخير العام والمصلحة الدائمة — مندوحة عن أخطار  
ثروته ومنبع هنائه وسعادته ، بالبذل منها ما قضت الحاجة فيما هو اليوم  
قائم به من مسائل التعريب والتأليف والطبع والنشر عمل وإيم الله قلما  
نهضت به الشركات والجمعيات فكيف بفرد ضئيل الثروة منزور المادة

رزقه وزان حاجه — نقول قد كان للسيد لولا انه رجل الاخلاص  
والخير الأبدى مندوحة عن ركوب ذلك الهول وامتطاء تلك الخطوة  
العوصاء في طلاب الدنيا من طريق التجارة أو الزراعة أو التحرير  
والكتابة فيتخذ من قلبه أحبولة للرزق بدل أن يجعله بالوعة تأخذ  
من وفره وراثته، ولكن الشيخ أيده الله يفقه معنى المجد والحسب ويعلم  
سر الحياة وله أمل فسيح الخطوة يتجاوز به شهوات المأكل والمشرب  
والزينة والرفاهية الى قصوى غايات الفخار والشرف  
يبادر غايات من المجد طوحت به خلف غايات الرياح الخواطر

\*\*\*

ماسره اللؤم والغضارة في العيد ش بديلا بالمجد والكشف  
(وبعد) فان فكرة التأليف والتعريب التي قد مضى في تنفيذها  
الاستاذ منذ أشهر ليست خاطراً خاطراً ولا هي من عفو الساعة ووحى  
البدئية وانما فكرة اختمرت في نفس الشيخ، ورأى نضج وأينع.  
ولقد أذكر أنى كنت في دار الجريفة يوماً ما أكتب أو أعرب مقالة  
وكان ذلك منذ أعوام فاذا أنا بالسيد عبد الرحمن البرقوقي يزورنى  
ويخبرنى بأنه اطلع على كلمات لى وأخرى لفحول الانكليز مما كنت  
انشره وأنه قد لذ تلك الشذرات للعربة وأعظمها (١) وأكبر مؤلفيها  
ولاسيما كارليل وجعل يتلف على رجال يكثر من تعريب حكم  
المغرب تلهفا يشف عن أشد الاخلاص والغيرة ثم اقترح على تعريب

---

(١) فعل ماض بمعنى احترم وأجل وكذلك أكبر



صفوة مؤلفات كارليل ومشاركته في اصدار مجلة حالت أحوال دون ذلك حينذاك وعدتنا عنه عوادي الزمن ومضت شهور وأعوام : واني ذات يوم لسائر في شارع عبد العزيز فاذا بمنظر من أعجب ما رأيت وما هو الا الشيخ البرقوقي بعامته وجبته واقفاً في دكان لم يتم بناؤه وسط جماعة الفعلة والتجارين والحدادين يقترح عليهم في عمل المكان واتقانه فناديته وبعد التحية قلت «عجباً يا أستاذ» أبدالاً تريد أن تكون أم بزراً أم حلوى أم خبازاً، أم ماذا ؟ قال «بل كاتباً ورب مجلة فان شئت أن تكون شريكى فما أسعدنى إذن» فكان منى جواب الفعل أسبق الى الأستاذ من جواب اللسان . وها نحن أولاء قد أخرجنا للناس ولما يمض نصف عام على يوم اتفاقنا أربعة أعداد من مجلة البيان وجزأ من كتاب مختارات لويان أو بلاغة الانكليز ثم كتاب الابطال للفيلسوف كارليل وسنقول عنهما كلمة بعد اهداء أجزل الحمد وأكرم الثناء للسيد الجليل والأستاذ النبيل، صاحب الفكرة وممضيها بقوة الحزم والعزم والهمة: المرتخص في سبيل المجد كل غالية من المال: المذيل<sup>(١)</sup> في ابتغاء العلي كل كريمة من الوفر: المنفذ القول يقوله ولو كان في ذلك هلاكة اذا هم القى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانباً

(١) المبتذل

ولد توماس كارليل في قرية أكلفكان بأقليم أناندال بجنوبي اسكوتلانده لأربع خلون من شهر تشرين ١٧٩٥ وذلك قبل نهضة نابليون لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة روبرت بارنز شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر ، ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلا انكليزيا ، وكان أبوه بناء ويديه بنى البيت الذي ولد فيه ابنه — دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغناؤه عن الغير بقوة نفسه ، وكان قليل الكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود ولكنه ليس بفظ ولا غليظ فكان قلبه بر السلسل الزلال حولها من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه ان تجاور

### خلاق اصفار من المجد خيب

فهجر القوم الذين كان يعيش بينهم أولا وانضم إلى فئة من أهل الخلاف والسخط ولو أنه أصاب من العلم حظا أوفر لجاز أن يكون مدير بلده ولكنه كان وحاله تلك يخيف المدير ويقلقه ، وهو الذي أراد مدير بلده حين يقول « اعط الرجل أجرته ودعه يذهب عنا فانه وعر المقادة صعب المراس » وكان حسن البيان مشرق ديباجة الكلام كثير الاستعارة والتشبيه على جهله معني التشبيه والاستعارة — برهان على

أن ابنه إنما عنه لا عن والدته ورث الفحولة والعبقرية ، أما والدته كارليل واسمها مارغريت ايتكين فكانت ورعة تقية شفيقة حذبة رحيمة كثيرة الشغف والحنان واللفف والحنين دمثة الجنب مانوسة الجانب مأمونة الناحية طليقة الجورطية الظل ، وقد قال عنها كارليل « ما أنست بانسان قط أنسى بوالدتي ولا وجدت ممرحا الا في ساحة كرمها ولا مرتعا الا في كنف حلمها ولا مرعى في غير روضة شيمها ولا مشربا في خلاف غدير طبعها وخيمها » وحق له أن يقول ذلك عن أم كانت عليه أبدا خفاقة الاحشاء قلقلة الضلوع وعلى مصلحته ساهرة المقلدة جملة الرجاء تلعاء الجيد

وتلقى مبادئ العلم في مدرسة القرية ثم في مدرسة قرية اسمها « انان » ثم دخل جامعة ادنبرج في الثالثة عشرة من عمره ، وفي التاسعة عشرة أي في عام ١٨١٤ صار مدرسا للرياضة بمدرسة « انان » وبعد ثلاثة أعوام من ذلك صار رئيس مدرسة بيلنة « كركالدي »

وهنا علق فتاة مليحة تدعى مرغريت جوردون وهي التي وصفها في كتابه « سارتور رزارتوس » أو فلسفة الملابس باسم « بلومين » والتي كانت تكون زوجه لولا تعرض أصدقائها وفيها يقول

وكان الفتى المنفرد « يعني نفسه » صاحب الخيال المشتعل يكبر ملكات العالم « يعني النساء » ويقدهسن ويرى لهن جلالات إلهيا ، ولم يك

حظه منهن الا حط اللمس من الخيال والخليل (١) من الآل (٢)  
تراه عيني وكفى لاتباشره حتى كآئي في المرآة أبصره  
فكن له كآئهن من الهوا مخلوقات ، ومن الضياء مصوغات ، أرواح  
في أشباح ، وأذهان في ألوان

خلق من الماء والالوان نيران

وكآئهن ملائكة تحمل كل منهن معراجا يرتقى فيه العاشق إلى  
مقامات الإبرار في الجنان ، فليت شعري هل قضى الله للفتى المنفرد  
« يعنى نفسه » أن يظفر يوما ما باحدى هذه الملكات ؟ بل أين منه ذلك  
هيات هيات

وأما والنبي خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه لئن قضى الله  
للفتى أن تهبط عليه واحدة من تلك الخيالات المليحات فتتحول له جسما  
حيا ملبوسا وحقيقة محسة ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد وتقول له  
بعينها « لك الآن أن تحب وتحب » إذن فاي بركان هاجع يثور ، وأى  
جاجم كامن يجيش ويفور !

وقد اشتعل مثل هذا الحريق يوماما في فؤاد الفتى المنفرد اشتعالا  
بركانيا وكيف يكون الأمر غير ذلك والفتى مزاج رقيق وطبع سريع  
الهايج فيه « كاربون » الحدة و « فوسفور » الشهوة و « كبريت » الانفعال  
تنتظر أدنى شرارة من لحاظ دجاء المهاجر قتالة الالحاظ فتساجج وتشتعل

---

(١) الغليل العطش (٢) الآل السراب وهو ما يحسبه الظآن ماء وليس بهاء

وما شرار اللحظ في هذا العالم بالشيء المفقود، فليت شعري إذا هبطت عليه من آفاق العزة مليحة حسناء فرمت «كبريته» بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل؟ أتكون زخارف نارية<sup>(١)</sup> تتوالى بارقتها في نظام، وتتابع نيراتها في نسق مؤلفا من جميعها عصر غرام بهج وزمن متاع هني، أم تكون ثورات بركانية ذات معمعة وزفير تنشق لها كبد الفتى وينفطر فؤاده (وهذا هو الموت) - أوتهتك حجاب الخيال وتعيث فيه فيختل ميزانه، ويجمع عنانه (وهو الجنون) حتى يخرب ذلك العالم الذهني الذي شاده الله في نفس الفتى ويصبح ولم يبق منه الاقوهة بركان خامد

بين جنات الزهر والريحان الجمرة الفنون والألوان، العبقرة الأرجاء  
بشذا المسك ونفح الطيب تشعل ورودها مجامر الند والعنبر

تشب خزامها إذا الشمس طفلت مصابيح لم يقبس لها النار قابس  
أتاح الرحمن الرحيم للفتى المهجور أن يشهد مجلس الفتاة «بلومين» في  
رهط من أفارها بين منظر معجب وسامع لذ أينما طرح البصر فما شئت  
من روض نضير، وماء نمير، أو نصب الاذن فما أحبت من جرجرة  
وخريز، وهديل وهدير، وتغريد وصفير، وأينا جلس فما اشتبهت من  
مهاد وثير، وأريكة وسرير، وسندس وحرير

وما هي الاهنية حتى قرب إلى الغادة وقدم لها: يارعاك الله ايتها  
الآنسة إنك لتشرقين بين أترابك من الفتيات وتبهرين صواحبك من

(١) مايسمونه «السواربخ»

الغنايات كأنك الكوكب الدرى هبط من السماء فتوسط طائفة من  
المصايح والشموع ، يا اشرف الفتيات ، وسيدة النساء ، يامن سبيت  
الحامل المسكين قهافت عليك بدنا وروحنا وهو مع ذلك منكس الجيد  
فى حضرتك العلية من فرط هيبتك خاشع الطرف تعرفه لذة أليمة  
وتعلوه حيرة لذينة! أحقا أصبح الفتى المسكين يشهد مجلسك ويحتلى  
نور طلعتك وبهاء غرتك وحقا تشرق عليه أشعة لخاظك وحقا يتكلم  
فتصتين ويقول قسمعين ، ويمزح فتضحكين ، ويعظ فترقين ، ويشكو  
فتوجعين ! وحقاً كان الحب متبادلا ، والغرام متداولاً ، والعطف  
متقارضا ، والودمقايضاً ، والقبطان يخفقان للالتصاق ، ويرجفان  
للاعتناق ! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعب  
فى حفرة القمر ! بلى حقا كان كل ذلك

وبحق يقول فيها ذلك وما بالك بمن استشفت بنافذ نظراتها قرارة  
نفس الرجل (كارليل) ولما ينم على فضله شعاع ولا نبض فى أفق  
الأدب له لمحة بارق ، واستطاعت أن تبصر من وراء حجاب نفسه مياه  
العرفان وغدران الحكمة كالمهدد يبصر مواضع الماء جوف الأرض  
ودونها أطباق الثرى . ذلك الى أدب بارع وجمال خلاب

وحسن مرأى وطيب مختبر

ولولا نفاذ بصرها وصدق فراستها لما كتبت الى كارليل الرسالة  
الآتية . وهو بعد خامل مغمور لم يسئل من لعاب پراعه قطرة ولا طلع

في أفق قرطاسه نجم بلاغة ولا سار له مثل ولا ذاعت له حكمة وكان  
لا يزال معلم مدرسة واليك الرسالة وهي رسالة الوداع

قو في نفسك صفات العطف والرقّة ، وأشعر قلبك حب الناس  
ورحمتهم ، وأطفئ ، بارقات الخيال الكاذب وإمح صور الوهم الباطل واعلم  
أن العبقريّة والفضل والنبوغ من حظك ، وأنها ستبلغ بك مراتب  
الفحول يوما ما وتجعلك عظيما ، فلعل مكارم الأخلاق تبلغ بك مقام  
القدسين وتجعلك محبوبا وعسى أنك ترفع ما بينك وبين سائر الناس  
من حجاب العظمة وتقرب ما هنالك من مسافة الوحشة والخلاف ،

وخاطب الناس على قدر عقولهم وقابل بالصفح واللين سيئاتهم ، وبالتجاوز  
والعذر هفواتهم ، فان ذلك أحرى أن يجلوّك ، وأجدر أن يجبوّك ،  
ومالك تستر ما وهبك الله من رحمة وتخفي ما منحك من رقة وعطف ؟

وفي ١٨١٨ ترك حرقة التعليم ساخطا عليها وعلى أهلها صائحا  
« لا طاقة لي بعد بهذه الحرقة الممقوتة ، وذهب إلى ادنبرج وليس بنوى  
عملا مخصوصا ولا يدرى ماذا يكون من أمره ، فدرس أبغض العلوم  
وأثقلها علم المعادن ولكنه كان من أنفع الأشياء له حيث اضطره الى تعلم  
الألمانية التي كانت من أسباب ظهوره ورفعته وكان إذذاك يعيش  
من دروس خاصة وترجمة مقالات علمية عن الفرنسية خلاف مؤن  
من الخبز والزبد كانت تأتيه من دار أبيه ، وقد كان في تركه حرقة التعليم  
وشذوذه عن الطرق المألوفة ، والأساليب المعروفة ما أسخط والديه

واسرته ولكنه لم يبال بسخط القوم ولا بدم الناس وأبى الامضيا على  
عزمه وتدققا في مجراه قائلا أنه مستبد برأيه واثق من نفسه وأنه أقوى  
من الدهر وأعلى يدا من القضاء والحظ وأنه لا بد له من الانتصار على  
الأقدار يوما ما ممثلا

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت انفسنا عما نجد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وعاش كارليل ستة وثمانين عاما قضاها في وضع التأليف الجليلة بين  
فلسفة وتاريخ وترجمة وعظة وحكمة وأشهر مؤلفاته كتاب الأبطال هذا  
الذى تحمله في يدك وكتاب الثورة الفرنسية وكتاب الماضي والحاضر  
وكتاب « سارتور رزارتوس » أو فلسفة الملابس وسيرة كرومويل  
وتاريخ فريدريك ملك بروسيا

وكتاب الأبطال هذا يمتاز بشرحه عبادة البطولة وتقديس عظماء  
الرجال شرحا وافيا دقيقا لم يدع لقائل مجالا وان من قرأ هذا الكتاب  
وكان كافرا ملحدا مستهزئا بعظمة ابن آدم منكر عبقرية الانسان  
ساخرا من عظماء الرجال وعشاقهم فلم يشف من داء الكفر والجحود  
والاستهزاء والسخر فليس في طاقة القلم ولا سلطان البلاغة ولا في قوى  
الانس والجن ما يشفى علته او يغير ما به ، وأحسن ما جاء في ذلك  
الكتاب فصل عن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وكان الرسول  
قبل ذلك هدفا لأقلام الكثيرين من الغربيين (ولاسيا أهل القرن الثامن



عشر) قرن فولتير اعنى قرن الاحاد والكفر، يرمونه جهلا وكنودا بقواذع الهجاء وقواذف الذم قال ريتشارد جازييت فلما كتب كارليل مقاله عن الاسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل دونه لم يبق هجاء أطلق يده فى عرض محمد (عليه السلام) إلا قبضها مجدومة شلاء، ولا فحاش يدرى ذلك الأديم الأملس وتلك الصحيفة البيضاء بسهام السباب الا وردت سهامه فى نحره حتى راح شرف النبي فى تلك الديار بفضل الفيلسوف الأكبر صحيح الأديم موفور الجانب، فحق على عصبه الاسلام جميعا أن تشكر لتلك البطل الجليل هذه اليد البيضاء والمنسة الغراء، ولعمري لوأنهم نصبوا له على كل مأذنة تماثالا وزينوا باسمه جدران المساجد وخطب المنابر لما كانوا فى أداء واجبه الا مقصرين، وعن القيام ببعض حقه عاجزين

فأما من حيث الكتابة فقد كان كارليل من أكتب الناس ومن أشد البلغاء تمكنا من اللسان واقتدارا على اللغة

وأنت الذى تدعو الكلام بقدره فيأتيه وحشى الكلام وآنسه .  
وانه ليرجع لى الموازنة بمعظم من سبقه من الفحول أمثال جونسون وريتشار بارنز وكأنى به كان يبصر أجزاء من نفسه فى صور أولئك الأبطال وأنه أعلى قيمة وأشرف قدرا وما أظنه خليقا أن يقارن إلا بالأنبياء

وقد كان فى مرارة الجمد ومضاضة الحزن شبيها بداتى وروسو،

ولكنه كان بقوة داتى أشبه منه بضعف روسو وكان داتى قليل المزاح  
ولامزاح لروسو، وفي مؤلفات داتى وروسو صحف جديدة كأنها لقلّة  
الفكاهة والهزل قمار ملس ولكن ما يقابلها في تأليف كارليل مزخرف  
بأفانين المزاح وألوان المجون بينها ينابيع الهزل تفيض وتنفجر، وسيوح  
الفكاهة تسيل وتهمر، وكأني به يقول مع صديقه جونسون لقد حاولت  
أن أكون فيلسوفاً في المزاح إلا أن « يعترضني في طريقي » وليس في  
جميع كتاب القرن التاسع عشر من يقارب في المزاح والهزل ذلك الرجل  
المجاد الحاد الذي يلبس أقمسي ظاهر من العبوس والنفرة والتهمك، ولم  
ير الناس منذ عهد « ارستوفانيز » رجلاً غير كارليل خلط المزاح بالشعر  
ولز الخيال والمجون في قرن، ولكن كارليل بلغ في ذلك النحو أقصاه،  
وأدرك في هذا الغرض منتهاه.

## المحاضرة الاولى

### « البطل في صورة إله »

إنما يضمنى وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئاً عن عظمة الرجال ومظاهرهم على مراسم الحياة والأشكال التي تشكلوها في تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الأعمال — للكلام عن الأبطال وعمما استقبالهم به أهالي أزمانهم وعمما صنعواهم من جلائل الأمور — ولعل هذا مبحث عويص لا أراني موفيه حقه — مبحث لعمر الله قصي الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بمخافيره إذ في اعتقادي أن التاريخ العام — تاريخ ما أحدث الانسان في هذا العالم — إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظمة فهم الأئمة وهم المكيفون للأمر وهم الاسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق اليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقناً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظمة الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ماناطته به القدرة الالهية من الخير . فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام .

يبد أن من أسباب العزاه أن في ذكرى العظمة كيفها كانت نفعاً وفائدة

والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق فليس أحسن من مجاورته شيء — نور يضيء وكان يضيء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكننا نجم شفته يد الله بين أشباهه من كواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعاني الرجولة والشرف الكبير وهو الذى فى شعاعه أنس الأرواح وروح النفوس وتمعن الخواطر وليس فى ظنى أن أحداً منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفها كان طريق المورد . ويقينى أن نظرة فى تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه . وما أسعدنى لو أستطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معاني عظمة الأبطال وجلالهم أى من معاني البطولة والبطولة فى مذهبي هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس ما أسعدنى لو أتيج لى ذلك ولكنى محاول وبأذل مجهودى

لقد قيل — وصدقا قيل — ان أهم ما فى الرجل دينه — والأمة مثل الفرد فى ذلك — ولست أذهب بلفظة الدين إلى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب إليه والقواعد المليية التى يعدها ويشهد بها فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا مالا أسميه الدين ، هذه الاعترافات والاعترافات أبعد ما يكون فى الحقيقة من الدين إذ هو اعتراف

وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديه — أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية — وذلك أقصى ما عنده ولكن جوهر المسائل للرجل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشيء الذى يعتقد حق الاعتقاد ويوقن به كل اليقين فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الكون الجسم الأسرار وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته — ذلك هو دينه وربما كان الحاد وكفره — هو اعتقاده أنه متصل بعالم الالهيات أو بلا عالم مطلقاً — فإذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو أى شيء يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ماديته أو دياتهم. هل هى الوثنية أو تعدد الآلهة أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلاً حسياً وعبادة القوى الطبيعية — أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية أعنى بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسبى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة أم هى الشك والريبة هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا بل ربما كان الحاداً محضاً وكفراً مبيناً فعندى أن الاجابة عن هذا السؤال هو اعطائنا روح تاريخ الفرد أو الأمة إذ أن أعمال الأمة أو الفرد إنما هى بنات أفكارهم وما نتجت ظواهر الآثار إلا من مستسر الضمائر ومن ثم أقول إن دين الأمة هو أهم مآلديها فخير بنا فى هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه فانه متى أجدنا معرفة هذه برح الحفاء عن

كل شيء . وقد جعلنا أول أبطالنا « اودين » الرجل الذى كان يعبده قدماء  
السويد والنرويج وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار فلننظر برهة  
إلى البطل فى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة

حقاً لقد كانت الوثنية شيئاً من أعجب الأشياء لا يكاد يتصوره الوهم وهل  
كانت الامتكانفات أضاليل وسخافات وأباطيل قد نبتت فى أديم الحياة  
الغابرة فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت على أكناف الحياة  
غواشى قباها ودواجى ظلالتها ! مما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصوره  
الوهم إذ لا يمكن أحداً أن يتوهم أن ناساً عقلاء أيقاظاً صاحين يعيشون  
عيشة كنتك ويعتقدون عقائد كهاتيك — أعنى يعبدون رجلاً منهم لا  
لابل يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما إليها من أصناف الحيوان  
والجماد ويصوغون لأنفسهم خليطاً مشوشاً من كل أضلولة وأبطولة  
فيحسبونه فلسفة الكون — أما والله ما أحسب كل هذا الا حديث خرافة  
يبد أنه لاشك فى أنهم كانوا يأتون ذلك كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون  
تلك الكفریات الفظيعة المنكرة ويطمئنون إليها ويعيشون بها عجباً أى  
عجباً ! وخليق بنا معشر الاخوان أن نطرق ملياً وتأمل والأسف مل .  
قلوبنا ما يوجد فى نفس الانسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل فان  
ماأشرت إليه من مستنكر المدهشات قد كان فى الانسان ولا يزال بل  
هو فى جميع الناس وفينا أيضاً

بين الجدليين جماعة ليس لسيهم من القول فى الوثنية الا كلمة واحدة

إذ يقولون هي باطل وغش وأنه لم يؤمن بها عاقل قط وإنما هي أكلوبة  
لفقت لخداع أناس لا يصح أن يسمون عقلاء! وأرى من الواجب  
علينا أن ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم  
الجائر وأنى لأدفعه الآن عن الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها  
الإنسان دهرًا ما في هذه الحياة . فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق  
ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينًا ما — ولا تنكر أن الأخاديع  
والأكاذيب تكثر في الأديان ولا سيما في عهودها المتأخرة إذ يعتورها  
الوهن والاضمحلال ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول  
للأديان — انه ما كان قط للأديان حياة وقوة بل كان دلهما ونذير آجالها  
فأعلموا ذلك أصلحكم الله ولا تنسوه . فإني لأظن أن من شر السفسطة  
وأخبث الباطل أن يقال أن ديناً من أديان المتوحشين كان منشؤه  
الكذب فان الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث  
ويولد وإنما من دأبه أن يفني ما أصاب ويقتل كل شيء حتى أننا لو  
حاولنا أن نجيط علماً بأمر ما فأتيناها من ناحية أكاذيبه كان ذلك جديراً  
أن يخفى عنا حقيقته . وهي ما لا ينكشف لنا حتى تنفي تلك الأكاذيب  
بتهائها أمراض ومفاسد واجب على كل امرئ استئصال شاقها سواء  
من الأذهان والأعمال إذ أن الإنسان حينما كان عدو الأكاذيب بل لأرى  
الحق حتى في وثنية أهل التبت . (من أقاليم الصين) اقرأ مادونه الجهبذ  
الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » في حديث سفارته الى تلك

البلاد تجدد أن لهؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل كل حين الى الأرض بشراً يمثله ويحمل صورته — وهو بمثابة اعتقادهم في بطريق أو بابا أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلا هو أفضل الرجال قاطبة — وأن هذا الرجل يمكن الاهتداء الى معرفته من بين سائر القوم: فاما أن الله مرسل في كل جيل رجلا يمثله فهذا هو الحق الكائن في عقيدة هؤلاء القوم وأما كون هذا الرجل ممكنا معرفته من بين سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور ولقساوسة هذه الأمة طرق إلى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم — طرق وايم الله عقيدة ولكنها ليست أعظم من طريقتنا نحن إذ لانفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملوكية) وأسفاه! ما أصعب أن يعرف الطريق الى!.... ولكن ارجع الى ذكر الوثنية فأقول انه قد يرجح لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلطنا أولا أنها كانت في حين من الأحيان دينا صحيحا في اعتقاد أهلها فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس أيقاظا قد صورهم الله على صورنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا بحال من الأحوال ولنوقن كذلك اننا لو كنا وجدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ولكننا وهم سواسية في سائر الأشياء وإذا قد علمت مني ذلك فعليكم أن تسألوني ماذا كانت تلك الوثنية



يقول آخرون من ذوى الجدل - وهو قول أوجه - ان منشأ الوثنية هو شعر الشعراء أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والاحساسات فى رموز من الأفاصيص وضروب من المجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد جريا على قانون أساسى من قوانين النفس البشرية وهو أن كل ما جرى فى وجدان المرء من إحساس شديد لا يرى بدا من إخراجه بواسطة النطق ومن رؤيته ممثلا لعينيه فى شكل منظور حتى كأنما هو شيء حتى ذو حقيقة تاريخية ولا شك فى أن هنالك قانونا كذلك وأنه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلا واستمكانا ولا شك أيضا فى أنه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية وانى وان شهدت بشيء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله الى الرموز الشعرية ولكنى لا أعدها النظرية الصحيحة وانى أنشدكم الله معشر الاخوان هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر؟ أما وربكم ان الأمر لأخطر من ذلك وأجل وأحوج إلى الجدم منه الى اللعب ان أمر الحياة من أكبر الجدم وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث بل انه الجدم أمر من كل جد والحق أوعر من كل حق ا فقد رأيت أن أولئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وان كانوا قد أخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن

الكون ومظاهره وكذلك كل دين انما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والاحساسات ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأياً معكوساً بقولهم عن النتيجة انها السبب وعن الغاية أنها الاصل . فان الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الاقاصيص الشعرية أول حاجهم وأكبر همهم وانما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة . وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون . إذا أخرج الشاعر قصة موقنة جعلها رمزاً لمعتقدات جيله أنحسب أنها أقدم عهداً من تلك المعتقدات كلاب كانت العقائد أولاً ثم أنشأت القصيدة رمزاً اليها وتمثيلاً لها . فالعقيدة أصل والشعر صورة والعقيدة حقيقة والشعر ظلها ثم هو معها بلغ فى مراتب الجسد فانما هو لعب وفكاهة وهو من عبث الخاطر اذا قيس الى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها . فقصارى القول أن الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لا مسيبتها فعلىنا اذن فى شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة — أم هاتيك الرموز الشعرية والاعغلاط والحرافات . كيف جاءت تلك الحقيقة وماذا كانت

تذكرون ماتوهمه افلاطون من أنه لو ولد انسان فى حجرة فى جوف الأرض فترك ثمت حتى بلغ أشده وكمل عقله ثم أخرج بغتة الى ظاهر الأرض فاذا الشمس بارزة فى موكب لآلائها ، ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لانبرج نراه فلا يحرك فىنا ساكناً . ولكن ذلك

الرجل يراه بعيني طفل قد برأهما الله من شوائب أقدار الحياة فروقيتهما في منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج فليس عجباً أن يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ بصره الثاقب الى ما أودع الله ذلك المشهد من روعة الجلال فيخرله ساجداً . فاعلموا معشر الاخوان أن أول رجل مفكر بين شعوب المتوحشين — أول انسان بدأ يفكر انما هو كذلك الانسان الذى تخيله افلاطون جامعاً في طبيعته بين الطفولة والرجولة . كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجاً صريح الطبع كالطفل مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد في اسم مركب من ثلاثة أحرف كما فعلنا نحن حينما سميناه «كوناً» و«طبيعة» وما شا كل ذلك . فطوبنا جلاله العظيم في أثناء لفظ حقير . ولكن الرجل المتوخش كان كل شيء جديداً في نظره لم يخفه عنه حجب الأسماء والالقب عارياً أمامه ساطعاً لعينه مشرق الروق سافر الحسن وضاء الجمال ينحار في كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان . فتأثير جلال الكون في نفس ذلك الانسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره في نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبي في العصور الأخرى بلى أيها الاخوان إن للكون لو تدبر الانسان واعتبر لموقفاً في النفس أى موقع وروعة في القلب أى روعة تلکم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب

الروض وتلكم الجبال الراسيات والأنهار الجارية والبحار ذات الجرجرة  
والضجيج والجلجلة والعجيج وقبة الفلك الزرقاء تعزف في أجوائها كل  
عصافه هوجاء تحدو من السحب كل دجنة وطفاء آنا تسبح بالديممة المدرار  
وآونة بدفع الحريق وصواعق النار ماهذه أيها الاخوان؟ بلى ما هذه؟ أما  
ظاها فقد عرف العالم عنه شيئاً وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن  
يعرف هذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجرية كياوى انما أولى  
بالمرء في مثل هذا المقام الاذعان والخشوع وللجهل هنا أفيد من العلم وما  
يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتبه  
المتمدن العالم بمنظاره وكيمائه ماذا صنع العلماء في أسرار الكون إلا أنهم  
زادوها خفاء واكتاماً بالباسها براقع من الاسماء والاصطلاحات ! هم  
يسمون البرق كهرباء ويلقون الدروس والمحاضرات في ذلك ثم يولدون  
مثال هذا البرق من الزجاج والحريز ولكن ماهو ذلك البرق؟ وما الذى  
احدثه؟ ومن أين جاء؟ وأيان يذهب؟ لآ كذب الله قد أظهر العلم أشياء  
كثيرة ولكن بنس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون  
الرائع الذى يتضائل العلم فى حضرته وينذل لعزته وعظمته ويطفو على جوه  
الهائل كريشة فى مهب الريح: والحق يقال يا اخوانى ان هذا الكون على  
الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات  
بل كفى بالزمن معجزة — بذلك الشيء الفاتت العد والحصر الدائم  
الكر والمر المستمر الصمت والسكون دائماً يجرى ويتدفق عجلًا ساكتًا

كثير البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب وأنفاس لا تكاد تصدر حتى تنيد أما كفانا بذلك معجزة؟ أليس ذلك جديرا أن يلجم ألسنتنا فلا ننطق وبماذا ننطق؟ يا الله من هذا الكون الهائل ماذا كان يستطيع المتوحش القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه أليس أقصى ما نستطيع أن نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخر هذا كل ما يمكننا معرفته . الكون شيء ونحن شيء غيره قوة في قوة في قوة فحيثما ألقيت البصر قوة ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية وليست ورقة ملقاة على ظهر الطريق تعفن بعد النبول الا وفيها قوة وإلا فكيف كان يتأتى لها ان تعفن؟ ولعمري ماذا يقول الملحد المفكر (ولا اخال الاحاد والتفكير يجتمعان) في هذه القوى الفعالة الدائمة المحدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تقتر ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية - ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه هي صنع الخالق ثم يحجى العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويدبرها كأنما هي جثة ميتة توضع في الزجاجات وتباع في الحوانيت ولكن العقل الانسانى السليم الفطرة مازال يرى في هذا الكون شيئاً حياً - شيئاً يحار فيه الذهن الهى المرجع أولى الاشياء بنا ازاه - مهما بلغ علمنا - أن نحنى الرأس له اجلالاً ونكس البصر خشية ومهابة ونعبد ان لم يكن بالمنطق فبالصمت وكذلك كان شأن الانسان القديم المتوحش ازاء هذا الكون الباهر

فقد كانت عين فؤاده ثاقبة الرؤية جليلة الانسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم امامها سحب الاصطلاحات والعلبيات فكان الكون في نظره الهى النسبة بل هو الاله ذاته أما تنظر إلى ذلك المتوحش الغابر إذ يعسف البيد والقلوات قد أضل السيل فاذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بلا لاء أبهر مما يرى أهل هذه العصور فيضىء فؤاد ذلك الضال كما يضىء له السيل ويشرق في نواحي نفسه كما يشرق في نواحي الافق وكأنه مقلة في وجه السماء تنظر اليه من أعماق الابدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون مانسميهم عباد الكواكب؟

هذا هو ما أراه سر الوثنية أعنى افراط العجب والاندھاش من الشيء حتى يصير تقديسا وعبادة وكذلك كان كل شيء في نظر أولئك الأقدمين رمزا إلى شيء الهى أو إلى إله

وهل ينكر أحد أن في فعل الأقدمين هذا عنصرا من الحق أفلودققنا النظر له أما كنا نبصر في كل نجم بل في كل زهرة الها ظاهراً؟ نحن لانعبد الله الآن على هذا النحو ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته أنه يرى في كل مخلوق جمالا الهيا وأن كل شيء صاغته يد الله إنما هو نافذة يشرف منها على أعماق الابد؟ نحن نسعى من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال في كائنات الله شاعراً ومصوراً ونابعة وعبقريا أفضل كان القدماء المتوحشون الا كذلك؟ ألم يكونوا والشعراء سواه في

تعرف بدائع الخليقة؟ وان لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمال وما ادراك ما عملهم؟ - هو لا شيء!

وإذا كان كل ما نراه هو رمزا من رموز الخالق اذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الانسان ان جوهر النفس الانسانية وذلك السر الكائن فينا الذي يسمى نفسه «أنا» - وانجلاه ما أجرأنا على صياغة الالفاظ لمعان تضمحل في سعتها الآفاق - هذه النفس هي نفس من الله وكذلك الانسان هو مظهر الخالق في الارض أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية هي لباسا لتلك السر المجهول الذي نسميه الله؟ قال الصالح «نوفلا» ليس في طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا هو جسم الانسان وحقاً لا شيء أقدس من هذه الذات الشريفة وما الركوع بين أيدي الرجال الاخشوع للذات الالهية بادية في صورة الانسان فاما لمست جسم انسان فقد وضعت يدك على عرش الله! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر الله الذي لا ينال - ولا طاقة لنا بفهمه ولا ندري كيف تتكلم فيه بيد أنه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه ان شئنا وحسبنا بذلك وكفى

هذه حقائق كان الاقدمون أسرع إلى ادراكها منا نحن نعم ان الاقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون إلى صفاء أنفس الاطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الارض والسماء دراية وعرفوا كل شيء

بمجرد وضع الاسماء والاصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغظ في شان الكائنات ينظرون اليها وجها لوجه والروع والاجلال حشو قلوبهم أولئك كانوا أنهم لايات الله في كونه وأدرك لسر الله في عييده هم كانوا يعرفون ولا بأس في عقولهم كيف يعبدون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الانسان وأعنى بالعبادة كما قدمت الافراط في العجب والاجلال الى المالا نهاية له وذلك ما كان في طاقتهم اتيانه من سويداوات أتدتهم وعقولهم كأوفر مايكون وأرجح وظنى أن عبادة الابطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها وأن مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور فكل اجلال لكوكب من الكواكب أو شىء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغابة ولكن اجلال الابطال هو أذهب تلك الجذور فى الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب

وإذا كانت عبادة النجم لم تغل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ؟ وعبادة البطل هى كما قلت الافراط فى إجلاله افراطا لاحد له ولا أحسب إلا أن الابطال ما برحوا موضع إجلال الناس حتى فى هذه العصور وأنه لم يجل فى صدر الانسان معنى أشرف من إجلاله لمن هو أعظم قدرا منه ولست بمخطيء ان قات ان هذا المعنى هو الاثر الفعال فى حياة الانسان أو قلت أنه الاساس الذى يقوم عليه الدين لا أقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق — كل دين كان الى وقتنا هذا وهل ترون



معشر الاخوان في ديننا النصرانية إلا أنها عبادة وإعجاب من صميم اللب  
وضراعة وخشوع لذات انسانية عليية الهية هي ذات أشرف الابطال  
قاطبة — ذات من لا أسميه هنا بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك  
الامر المقدس

وإذا انحدرنا من قمة الدين الى منازل أخط وأدنى وجدنا في جميعها  
من احترام الوضع للشريف وولاء الحقير للجليل مايمثل الايمان في  
الدين اذ الايمان إنما هو الولاء لنبى أو بطل مقدس وماذا ترى ولاء  
الصغير للكبير الذى هو روح المجتمع الافرا من عبادة الابطال ؟ فعبادة  
الابطال اذن هي أساس المجتمع والرتب والدرج الذى يقوم عليه التعاشر  
والتواصل هي مايجوز أن نسميه «هيرواركى» أى حكومة الابطال  
فأهل الدرج والرتب في الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية كلها يمثل  
الذهب وإن كان الكثير منها لسوء الخط مزوراً فقد نحتل الأوراق  
المالية ونعيش بها وإن وجد بينها المزور فأما أن تكون كلها مزورة  
فذلك مالا يقام عليه ولا يحتمل اذن ثور الفتن وتقوم الثارات  
ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها اذ متى وجد الناس  
الأوراق كلها مزورة لا يتال بها من الذهب كثير ولا قليل أخذهم  
اليأس فأقبلوا يصيحون لاذهب ولم يكن قط ذهب والحقيقة أن الذهب —  
وأعنى به عبادة البطل — موجود برغم كل شىء فى كل آن وكل بقعة  
ولن يفنى حتى يفنى الانسان

فشا في هذا العصر رأى باطل هو إنكار وجود الابطال بل كراهة وجود الابطال أذكر لمعشر النقاد بطلا — الامام «لوثار» مثلا فاذا هم قد انبروا ينتقدونه — لا يأخذون في إجلاله بل في أخذ مقاسه ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ! ثم يقولون إنما ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذي أحدثه وشهره هو ابن الوقت وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لافعله — هذا والله افن وسخف أيقول النقاد الوقت هو الذي أحدث ذاكم الرجل؟ نوا أسفاه! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا يبطل أين العظيم ولا عظيم تصرخ الأوقات بالفتى فيذهب نداؤها صيحة في واد ونفخة في رماد وما ذاك إلا أن البطل والفتى لم يكن وقت النداء موجودا ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم وبعد أن يبع صوت الوقت ولا يجيب تهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف لان البطل لم يدركه حينما صالح يستنجده

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتبع له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى — بين عقل يعرف به حاجة العصر وعزم يمضى به في ابلاغ العصر حاجته وفي هذين صلاح العصر وفلاحه ولكن أشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة وأذهانها الشاكة العاجزة وأحوالها المختلطة المضطربة يحدو بها سائق الشقاء الى غاية التلف — أشبه كل هذا بحطب يابس ميت ينتظر

من السماء شهابا يشعله وما الرجل العظيم مرسلا من قوس الله يجيش  
في صدره العزم ويغلي في عروقه البأس الا ذاك الشهاب وما كتبه  
الاشفاء الغلة والثام الجرح ومجتمع الالهواء ومستقر العقائد ثم لا يصيب  
الخطب حتى يلهب من كل جانب نارا كباره ولكن المتقدي محسب أن  
الخطب هو الذي أوجد ذلك الشهاب نحن لا نتكبر أن الخطب كان في  
شدة الحاجة الى الشهاب فاما انه أوجد الشهاب - يا الله من سخافة  
أولئك النقاد وحققهم أما أنه ليس أدل على حطة امرىء ولؤمه من عدم  
إيمانه بالخطب ليس أدل على خسة جيل من الاجيال وضعته من عمله  
عن نور الله المقدس وإيمانه بالخطب اليابس الميت هذا والله أقصى  
منتهى الكفر إذ أن الرجل العظيم ما يبرح في كل آن مستنقذ جيله من  
وهدة البؤس والشهاب الذي لولاه ما شبت النار في الخطب وليس  
تاريخ العالم إلا كما قلت بمجموع سير أبطاله

أولئك النقاد الأصاغر يذلون الجهد في ترويح سوق الكفر ونشر  
أعلام الضلال ولكنهم لا يفلقون إذ ما زال يظهر الرجل العظيم من  
آن الى آن فيرى بحقه باطلهم فاذا هو زاهق واذا هم قد ظلوا من  
مذاهبهم في مثل بيت العنكبوت أو أوهى ثم لن يستطيعوا مها حاهلوا  
أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هي إجلال العظماء فطرية في طبيعة  
الانسان لا تزول منها اعتورها من الفساد والوهن واجلال العظماء باق  
مابقي الانسان فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس

وجل على أنهما كانا في القرن الثامن عشر أشد العصور كفراً وفجوراً  
والامة الفرنسية الكافرة تؤمن بفولتيرها وتظهر عبادتها الأبطال  
في أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يفرق بينها ويحسق بها  
فحقاً اذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فان الفولتيرية من  
أسفل أنواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل  
كانت حياته تقيض حياة المسيح وكان شيطاناً مريداً . هذا مع أن أبعاد الناس  
من فضيلة التقديس والاجلال هم فرنسيوا هذا الجيل وما ظنك بقوم  
كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم فليس في نفوسهم موضع للاجلال  
والاكبار ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير يدخل فولتير  
باريس عائداً من رحلة طويلة شيخاً فانياً متهدماً قد جاوز الرابعة والثمانين  
فيحسون أنه نوع من الأبطال أمضى حياته في محاربة الضلال والظلم  
وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب — انه بالاختصار بمن  
جاهد جهاد الأبطال وإن لم يسلك في ذلك الاخطة غريبة نعم يحسون  
أنه اذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ففولتير اذن هو أكبر الناس  
هو الامام الأعظم الذي يقفون أثره ويتطلبون منزلته فهو في  
الحقيقة المهيم الذي لا يصلح الاله ولا يصلحون الاله ولذلك عبده  
فرنسا من الملكة ماري اتوانيت الى الحارس الذي على باب « سانت  
دينيس » بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتنكرون في أزياء  
خدمة الفنادق لتسهل لهم رؤيته ويصيح الحوذى بفرسه : اسعدى أيتها

الفرس فانك تسيرين بالمسيو فولتير وقد شبه احد كتابهم تلك المركبة  
تخترق باريز برأس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملا جميع الطرقات ذيله ثم  
كانت السيدات يتسابقن لاختد شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أترا  
ظاهرا و ذخرا ثميناً ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل  
الا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل وأجمل

أجل ان البطل مازال معبوداً منذ «أودين» الى «جونسون» ومن  
المسيح الى أحقر قسيس في كل مكان وزمان وسيكون ذلك مادام الليل  
والنهار لانه مامنا الا من يعشق الأبطال — يعشقهم ويحلمهم وينحى  
اكبار ألهم وهل ينبغي الانحناء لغيرهم؟ بل ألا يحس المرء أن في اجلاله  
لمن هو أرفع من رفعة لنفسه؟ وهل جال في صدر المرء احساس هو أشرف  
من ذلك وأقدس؟ وانه ليسرني ويشغى نفسى أنه ليس في طاقة السفسطة  
والاستهزاء والفجور والمجود أن تذهب من نفس الانسان تلك الغريزة  
الفطرية — عبادة الأبطال. هنا وأن أجيال الكفر التي تعقبها الفن  
والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب وانى  
لأرى في غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التي تتلقى الدول  
الساقطة في مهاويها فتمنعها من الضياع في أعماق الخراب فاذا انتهت  
الدولة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بهارثما تهيء نفسها للنهوض  
ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود الى أحسن مما كانت عليه وهكذا  
يظهر لى أن عبادة الانسان للبطل هي الصخرة الحية وسط كل سقوط

وتدهور - هي النقطة الوحيدة الثابتة في التاريخ الثوروى الحديث والا  
كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئاً  
كذلك أجد أن الوثنية روحها الحق وإن كان لها ظاهر مشوه كيف  
لا والطبيعة مازالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد ومن هذا وذلك  
تألفت الوثنية وان اتخذت من الاشكال والاضاع الحقيق والمنكر وظنى  
أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ماعداها لانها (أولاً) آخر  
الوثنيات عهداً اذ مازالت مستمرة حتى القرن الحادى عشر فنذ ثمانمائة  
عام كان أهل الاسكاندينفيا يعبدون «أودين» ثم هى هامة لنا من حيث  
أنها ديانة آباتنا أولئك الذين مارحت دماؤهم جارية فى عروقنا والذين  
نشبههم فى عدة وجوه فعجبا أيها الاخوان أن يكون بين معتقدهم ومعتقدنا  
ذلك الخلاف

(وبعد) فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم بجملة أسباب ولتعلم أن  
ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ  
فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان

\*\*\*

فى تلك الجزيرة العجيبة المسماة «ايسلاندة» التى يخبر علماء طبقات  
الارض أنه استثارها زلزال نارى من قعر البحر - وهى بقعة موحشة يباب  
جرداء يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من أشهر  
العام مطوية فى أجواف العواصف السوداء الا أن لها مع ذلك فى فصل

الصيف لآلاء جمال موحش قفر - وهي وسط العباب الخضم تسمو صعدا  
مكفهرة الجين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفارق الشيب في الهامة  
الشمطاء وتغور فيها الينابيع الحارة حتى تنز مراجلها وتهدر (شقاشقها)  
الى غدران من سائل الكبريت و كهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة  
آثار معتزك لمتكافح جيوش الجليد والنار - في هذه الجزيرة وهي أبعد  
ما يرجح أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التي نحن  
بصددها وعلى شاطئ هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش  
فيها الانعام والانسان من خير هاتيك النعم وما يجود به اليم وكأنا  
كان ناس هذه البقعة المخصبة قوماً شعراء أعنى ذوى صدور جياشة بالمعاني  
والسنة بها ناطقة فكلمنا تأملت علت أنه كان يفوتنا شيء كثير لولم تبعث  
البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الاسكاندينافا  
إذ الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالي «إيسلاندة»  
وكان بالجزيرة في أوائل أمر المسيحية قسيس نصراني يدعى  
«سيمند» لعله كان لا يزال ينزع به عرق الى دين آباءه الوثنية فأخذ يجمع  
عددا من أغانيهم القديمة - مما قد طال عليه القدم فأسمى حوشيا مهورا  
وكان توحيدياً صوفياً عليه مسحة دينية وهذه المجموعة هي ما سمي  
أدباء الشمال «الالدار» أو «ادا» الشعرية وهي كلمة مشكوك في اشتقاقها  
لعل المراد بها «السلف» وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة  
يدعى «سنوروسترلسون» وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس

«سيمند» فكتب فيما كتب تاريخاً حافلاً لعقائد الوثنية وجعله نشر مفصلاً بشذور من النظم لجاء كتاباً بديعاً موقفاً بريئاً من كل أثر للتعلم والكلفة وهو مانسميه «عفو الخاطر» وهذا الكتاب هو المسمى بال «ادا الثرية» ففضل هذين المؤلفين وشتى أغاني غيرهما جلها «ايسلندى» وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والحواشى بين «ايسلندى» وغير ايسلندى ما هوللان مستمر في البلاد الشمالية قد نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه ولتتناس قبل كل شيء أنها دين باطل بل تتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر أما يمكننا أن نعتذر لها ونرتاح اليها شيئاً ما

ان أول خواص هذه الوثنية في رأي هو الايمان الصريح بأن القوى الكونية هي أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة فتلك الأشياء التي تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهبون لرؤيتها. ويركعون لها اجلالاً ومهابة أعنى أن ما نراه نحن فنا من العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانا ومردة «جوتان» مخاليق جسما شعنا غيرا شنع الصور لهم طبائع الشياطين والأبالسة والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهي آلهة وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون وهما يعيشان منفردين كل فريق في جهة ثم لا تخمد قط بينهما نائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجارد)



في السموات ويقطن المردة في بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار  
المردة «جوتنهم»

عجب كل هذا أنا لأراه باطلا ولاخرافيا وكل من أصاب بالنظر  
الثاقب لبابه وسره وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره كان رايه فيه  
رأى قوة النار التي تخفى نحن ماها من آية العجب في طى اسم  
كياوى نجعله حجابا لروعة هولها كان القدماء يرونها عفريتاً سريع  
الحركة خفى المدب من قبيلة المردة «جوتان» وكذلك حسب قبائل  
المتوحشين من جزائر «لادرون» (هكذا ذكر أحد رحالة الاسبان)  
النار وكانوا لم يروها قط من قبل نوعا من الشياطين أو ضرباً من الآلهة  
يعضك اذا مسسته ويعيش بأكل الخشب وكذلك أرى أنه ما كان  
في قدرة أى كيمياء قط أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا مايعينها من  
الحق والغاوة ماهى النار؟ — أما الجليد — فقد رآه كاهنهم القديم  
شيطانا فظيلاً أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد «هيرم»  
أو «رايم» وهى كلمة بطل استعمالها الا فى بعض أودية «اسكوتلاندة»  
وهكذا لم يكن الجليد عندهم كما نراه الآن شيئاً ميثاً ولكنما شيطان حى  
تراه اذا أظلم الليل يسوق أفراسه البلق الى كهفه حيث يقبل عليهن  
يمشط شعورهن — وهذه الافراس البلق هى سحب البرد ورياح  
الجليد أما بقره فهى جلاميد الثلج ثم ان هذا الشيطان يضرب تلك  
الجلاميد بعين عفريت فتفطر وتتصدع

ولم يكن الرعد في تلك الاوقات مجرد كهرباء وإنما كان الاله «دونار» (ثاندار) <sup>(١)</sup> — اله الرعد وهو أيضاً إله حرارة الشمس ذات الخير والبركة وإنما زججة الرعد هي غضبه وسخطه وما احتشاد السحاب السود وازدحامها الا تقطيب جبين ذلك الاله وكسر حاجيه وما الصاعقة تنقض من السماء الا السنان اللامع يطير من كفه ثم هو يدفع عجلته الصخرة فوق قلل الجبال فدويها وقعقتها هو جلجلة الرعد وتراه من غضبه ينفخ في لحيته الصهباء فذلك خفيف الريح قبل الارعاد و«بولدار» الاله الابيض الجميل العادل المنعم (الذي وجد المبشرون الأول أنه أشبه شيء بالمسيح) هو إله الشمس — أجمل الاشياء الظاهرة واحدى العجائب والاسرار رغماً من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة في ظنى هو ذلك الذى عثر على أثره العالم الاشتقاقى الالماني «جريم» وهو الاله «ونش» أو «وش» <sup>(٢)</sup> إله الطلب الذى يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاه النفس الانسانية وأعرق اصوات الروح ؟ وان لم تكن بعد دعاه مهذباً وصوتاً منقحاً هذا أبسط آراء الانسان وهو مع ذلك عنصر جوهرى فى أحدث مذاهب الدين وأذكر من باقى الآلهة «آجير» إله الزوبعة وذلك لأن النوتية بنهر «ترنت» <sup>(٣)</sup> ما برحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما فى حالة المد (وهى حالة

(١) كلمة انكليزية معناها الرعد (٢) كلمة انكليزية معناها «طلب»

(٣) نهر بانكلترا

خطرة) صاحبوا « حذرا فان آجير » ، قادم مجباً لهذا اللفظ قد بقي بعد زوال تلك القرون كأن دنيا طغى عليها الماء فغرقت في عبابه الاثوابة قمة ما برحت لابصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية في العصور الغابرة يؤمنون بالاله آجير وما ذلك الا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت في أنسابنا فدمنا مزيج من السكسونى والنيكاركي والشمالي ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين الا فرقا سطحياً مثل ما أرى بين النصراني والمسلم والوثني

وعن الههم الاكبر أودين سنتكلم قريبا ان شاء الله ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكاندينيفية أو الشمالية : هو الايمان بقوى الكون واعتبارها إلهية رائعة شخصية — أعنى آلهة وأبالسة ولعله قول معقول ومفهوم وكذلك كان الفكر الانساني في طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة وقد أرى في هذا النظام الوثني معنى حرا جزلا شريفا وسذاجة قوية لم تهذب جد تهذيب مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها والمخق يقال أن مذهب الوثنية الشمالية ما هو الا فكر صريح قوى هو الفكر العميق الحر يتفتح في قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه. وقلب لقلب وهو أول خصائص الفكر الصحيح في كل آن فليست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب وإنما تبين فيها قوة ساذجة وحقاً مألوفاً وإخلاصاً جما

كبيراً وانه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صورته منضودة دماه في أبداع نظام وأجل نسق إلى بيوت الوثنية الشمالية تمرح في أفنيثها آلهتها وتخمر النبيذ لتشربه مع «آجير» اله الزوبعة ثم يرسلون «ثورا» اله الرعد ليحضر الرجل من ديار الشياطين ويذهب «ثور» إلى تلك الديار وبعد الجهد الجهد يأخذ الرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة وينقلب راجعا وقد غاب تحت الرجل وبلغ الرجل مواطىء قدميه! وكذلك ترى لهذا النظام الوثني ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء وقوة هائلة الا أنها لم تهذب فهي كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة لكنها قدم عائرة وخطوة طائشة فانظروا أصلحكم الله ماذا كان رأيهم في خلق الدنيا

لما تحارب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه «ميمير» ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا فاما دمه فذلك هو البحر وأما لحمه فهو الأرض والصخور عظامه ثم جعلوا حاجبيه مسكناً لهم أعنى الجنة أو «اسجارد» وجعلوا جمجمته قبة السماء وما بها من دماغ فهو السحاب فهذه استعارة طرفها في المشرق والآخر في المغرب وأصلها في الأرض وفرعها في السماء — آراء جسام ماردية هائلة مازالت بها العصور تنهت جبروتها وتدل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية إلى الصفة الإلهية والثانية أقوى ولا ريب من الأولى — مازالت بها العصور حتى حولتها إلى أفكار شاكسبيرية ومعان

لوثرية<sup>(١)</sup> فأولئك الوثنون القدماء هم آباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا  
ويعجبني منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جذرها في مملكة الموت  
ثم يسمو ساقها صعودا إلى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء  
الكون وهذه هي شجرة الوجود ويجلس عند أصلها في مملكة الموت  
ثلاثة أفضية (جمع قضاء) الماضى والحاضر والمستقبل يروون جذورها  
من البئر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من إوراق وازهار وأثمار  
وسقوط أوراق وازهار وثمار — ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن  
وصروف الزمن وتقلبات الحال — تمتد أفرعها بكل هذه الامور في جميع  
الامكنة والازمان أليست كل ورقة من اوراق هذه الشجرة ترجمة انسان  
وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فصلة؟ وأفرعها تواريخ الامم  
وسواسها صوت الحياة صادرا عن الابد إلى الابد فاذا تنفس في خلالها  
النسيم فتلك زفرات القلب الانساني وان صاحت بين أفنانها العاصفة  
فذلك صوت الآلهة هذه شجرة الوجود — هي الماضى والحاضر  
والمستقبل — ما كان وما يكون وما سيكون — تصرف فعل «يكون»  
تصرفا لانهاية له. فاذا تأماتم معشر الاخوان كيف ان جميع الافعال البشرية  
تتسلسل وتتصل وليس واحدا منها الا آخذا بعنق الآخر متداخلا فيه — وكيف  
ان الكلمة التى ألقيا عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول  
لفظة على لسان أول متكلم — اذا تأملتم كل ذلك رأيتم أنه لا تشبيه قط أصدق

(١) نسبة الى لوثر. رأس المذهب البروتستانتى

من تشبيه الشجرة هذا : نعم ما أجمله وما أجله اذا قسمتموها استعارة أهل هذا العصر التي تشبه الوجود بمكيئة « مكيئة الوجود » بل أرى تشبيه الأقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبئ ! حقاً أن مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن في الطبيعة فمن أين أتى ؟ من أفكار أولئك الشماليين ولاسيما من فكر أول رجل شمالي وهبه الله قوة الفكر — أول شمالي نابغة عبقرى كما ينبغي أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش في العالم من رجال غير ذوى فكر لم يك منهم ازاء هذا الكون الرائع الهائل الا العجب الأبكم كالذى يحسه الحيوان أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الانسان حتى أتى الرجل المفكر الكبير — الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقداً الافكار فى جميع الاذهان وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحانى فان ما يقوله قد كان كامناً فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لاسيلى فها هو الا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الافكار من مكانها كما تماهبت من رقاد طويل فتجيب الدعوة أسرع اجابة فرحة به فرح السارى بالصباح ولاغرو فاتها هو خروج من العدم الى الوجود — من الموت الى الحياة — فياسقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فانه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شا كل ذلك وان حسبه أهل عصر ساحرا وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبياً والهاى والفكرتى انبعث فلنى ينام بعد مبعثه أبداً بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة

بعد طائفة ويزكو غرسه في رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كاله فاذا بلغه لم يكن ثمت مجال للنماء وانما يقلع ذلك الغرس ويخلى مكانه لغيره

ونحسب أن مثل هذا الرجل كان موجودا في أمة الشمال وهو الذي كانوا يدعون له الاله أودين - وكان لهم أستاذوا اماما في أحوالهم الروحانية والجهمانية وبطلا كبيرا لا تقدر قيمته أفرط اجلال الناس له حتى صار عبادة ولاجرم فانه أهل للنك أتمنا كان قد أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل وفضائل أخرى كانت اذذاك من المعجزات فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم أمافسر لهم لغز هذا الكون وعرفهم ماذا يجب عليهم في هذه الدار وماذا ينتظرون في الدار الآخرة وأنطق الوجود وأحيي الحياة فهو منشأ الوثنية الشمالية وأكبر ظني أن أودين هذا أو أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه كان ولاشك رجلا يعيش بين الرجال وهو ما كاد ينشر رأيه في الكون حتى ثار في جميع الاذهان مثل رأيه تماما فكأنما كان مكتوبا على صحائف الاذهان بالخبير المغطى فما هو الا أن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الخبر فظهر واستبان وكذلك مازال قسم الرجل المفكر على العالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث ! ثم لانسى شيئا آخر أحسب أن فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية أل « اداء » وذلك انها ليست نظاما فكريا واحدا متماسكا ولكننا مجموعة نظمات شتى الاصول والازمان ولن يعرف الناس قط

تواريخ هذه النظمات وكيف تنقلب من صورة الى صورة بما ادخله عليها مفكر بعد مفكر الى أن لبست الهيئة التي نراها لها في كتاب آل « ادا » كلا ولن يعرف ماصنعه « أودين » نفسه وماذا عسى أن يعرف من الانبياء عن « أودين » بل أنى يعرف عنه أبناء وكيف يكون له تاريخ وعجيب أن يكون أودين هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية وطهجه الخسنة الشمالية بشرا مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ويمشى على مثل أرجلنا وأقدامنا عجيب أن يكون مثلنا حدوك النعل بالنعل ثم يكون قد أتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وياد الصانع الاسم « أودين » إذ أن لفظة « وودزداي <sup>(١)</sup> » أصلها « أودين زدای » ولعل في هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ وليس فيما رجم فيه المرجون ما يستحق أن يذكر

قد زعم المؤرخ « سنورو » زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أو الفحة وذلك أن أودين كان أميراً وفارساً بطلاً في بقعة بقرب البحر الأسود له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته ثم ان بلادهم ضاقت بهم تحفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الاقطار. وأن هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرهما ثم آل به الأمر الى أن اتخذ أهل اسكاند ينفيا إلها معبودا واعتبروا

---

(١) انكليزية معناها يوم الأربعاء



اتباعه الاثني عشر أبناء له وآلهة كذلك هذا ملايشك فيه المؤرخ «سونورو» ولكن المؤرخ «جراماتيكاس» وهو آخر من أهل الشمال اشد ثقة برأيه من «سونورو» لا يصعب عليه أبدا أن يخلق لكل خرافة من خرافات القدماء أصلا وحقيقة ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدينمارك وغيرها ويحىء المؤرخ «تورفوس» بعد هذين بقرون وهو باللاسف عالم ومحترس فيضع تاريخا لزمان أودين اذ يقول أن أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد وبما أن هذه الأقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن فلا حاجة بي هنا الى تفسيدها بل حسبى أن أقول أن تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وأزمان مديدة ولاأرى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه الا شيئا قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفه من غابر الاعوام

ويحىء بعد ذلك المؤرخ «جريم» الألماني فينكر وجود «أودين» بالمره ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول ان لفظه «فوتام» التي هي أصل كلمة «أودين» المجهولة علما على الاله الأكبر لدى جميع الشعوب التيوتونية في كل مكان — هذه اللفظة التي تتصل حسبنا زعم «جريم» باللفظة اللاتينية «فادير» واللفظة الانجليزية «ويد» الخ — معناها القديم «الحركة» و «القوة» فهي الاسم اللائق للاله الأكبر لخالق

قال جریم وهذه الكلمة اسم الله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية والنوعت المشتقة منها كلها في معنى مقدس وأكبر

وما شا كل حسن وايم الله ما قال المسيو «جريم» ثم لا يسعنا الا الاذعان  
للسيد المذكور في جميع المسائل الاشتقاقية فلنقر ولنقتنع بأن كلمة «فوتان»  
أو «أودين» يراد بها «الحركة» و«القوة» فما الذي يمنع أن تكون اسما  
لرجل بطل محرك كما أنها اسم لاله؟ فاما من حيث أن النعوت المشتقة منها  
كلها في معنى مقدس وأكبر أليس قد اشتق الاسبانيون من اسم بطلهم  
الكبير «لوبي» حينما غلبهم تقديده لفظة «لوبي» نعتاً لكل شيء أفرط  
جماله حتى قالوا بستان لوبي وورد لوبي وغادة لوبي: فلو أن ذلك استمر  
لأصبحت كلمة لوبي وهي نعت من نعوت الاسبانية معناه ملائكي الجمال أو  
الهي الجمال ولقد قال آدم سميث في مقاله على اللغة أنه مامن نعت الا  
وكان في الأصل اسما لشيء من الأشياء ثم قرن على سبيل المجاز والاتساع  
إلى كل شيء شارك الشيء الأصلي في صفته فكلمة أخضر مثلاً كانت  
في الأصل اسما لشيء شديد الخضرة ثم إن الناس كلها أبصروا شيئاً فيه  
خضرة — عشباً مثلاً — قالوا عشب أخضر وما يزال نقول ساعة  
ذهباً وغامماً حديداً فكل النعوت في زعم «سميث» كان أصلها أسماء  
وأشياء ولا يسعنا أن نعدم رجلاً ونقضى عليه لمجرد مسائل اشتقاقية  
كهنه! ولا شك في أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول  
أستاذ وقائد وحققاً لقد وجد في وقت ما رجل هو «أودين» أو مثل «أودين»  
يصر بالعين ويلس باليدين وليس من النعوت بل بطلا مصورا  
من لحم ودم!

فاما كيفية صيرورة الرجل «أودين»، الها — الاله الأكبر — فهذا  
مالا أحسب أن أحداً يجب أن يتفلسف فيه وقد قلت أن أهل عصره  
لم يعرفوا لاجلالهم إياه حدا بل لم يكن لديهم اذ ذلك ميزان يزنون به  
الاجلال فان أردت أن تتصور اجلالهم ذاك فتوهم اجلاك لبطل من  
أكبر الأبطال وجبك إياه حبا من صميم الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى  
يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد وحتى يمتلئ به وعاء صدرك ويفطح  
أوربما كان ذاك الرجل «أودين» اذمنحه الله العقل الكبير وبعث  
في ذهنه نورا من لدنه وجر في نفسه ينبوعا من عنده أصبح يرى نفسه سرا من  
الأسرار ولغزا لا يحل وشيئا يوجب الرعب والدهش في نفسه هو فحسب  
انه ربما كان الهى المنشأ أى شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة  
«فوتان»، أو «أودين» (بمعنى القوة العظمى) أنا لا أحسب أن ذلك قد كان  
منه غشا وتدليسا إنما هى هفوة وهو أصدق ما لديه والحقيقة أن كل  
ذى نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذاهو — فيخال نفسه طورا فى أعلى  
قمة وآنا فى أسفل حضيض ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه  
ثم ترى أن رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر بما  
يحدث نتيجة فاذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقصدونه وأحس هو  
فى فواده حرارة وجدان شريف ووقدة شعور طاهر كبير وخليطاً مشوشا  
من ظلمة حالكة ونور وهاج ثم نظر فاذا حو اليه نون هائل يقطر من  
جميع أنحاء ماء الجمال: هذا: وقد علم أنه لم يسبقه إلى هذا المقام العلى

إنسان — خبروني نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه «أنا قوة كبيرة» فإذا الناس أجمعون يجيبونه «بلى قوة كبيرة ا» «فوتان» أو «أودين» ا

ثم اذكروا ما مجرد من الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم في مثل هذه الأمور وكيف أن الرجل الذى كان أثناء حياته عظيماً تبلغ عظمته بعد المات عشرة أمثالها وظلمة القدم من شأنها أن تجسم ما يصير فيها وكذلك إذا كان للشئ الهالك محبة في القواد واجلال استفحل في الناكرة وتحسم في الخيال فما بالكم إذا كان العصر . عصر ظلمات وجهل مطبق فلا تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش في حجر اللهم الا صخرة صماء على سبيل الأثرنا وهناك بلى والله انه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاماً ضرباً من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم في خرافات القدماء فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام ا — انه لا فائدة في التفلسف في مثل هذه الموضوعات فانها تأتي بطبيعتها البحث والاستقصاء ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان وحسبنا أن نلح في أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق في جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة — حسبنا أنه لم يكن صميمها بزور ولا جنون وإنما حق ومعقول . ويزعم أن «أودين» اخترع حروف الهجاء وكان يأتى بها ضرباً من السحر فبوا ذلك صحيحاً أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع

منذ أقدم الدهور إلى وقتنا هذا؟ وهل هناك شيء أكبر من إبراز  
كوامن الأفكار بعلائم ظاهرة؟ أليس ذلك نطقاً ثانياً لا يقل غرابة  
وإعجازاً عن الأول ثم ألا تذكرون ماذا كان اندهاش ملك «بيرو» المسمى  
«أنا هوليا» عند ما أرى الحروف الهجائية وكيف صعب عليه أن يصدق  
بتلك المعجزة فأمر أحد حراسه من الجند الاسبانيين أن ينقش على  
ظفره لفظة «ديوص» ليمتحن بها الجندي الذي إلى جانبه حتى يتحقق  
صدق هذه المعجزة فإذا كان أودين قد أوجد الحروف في أمته فما باله  
لا يأتي بفنون من السحر؟

ويحكى لنا المؤرخ «سنورو» أيضاً أن «أودين» اخترع الشعر الذي  
هو موسيقى الكلام فتخيلوا أصلحك الله أنفسكم في هذه العصور عصور  
طفولة الأمم — في تبلج صباح الشعوب الأوربية إذ يشرق في جميع  
الأنحاء لألاء جديد ندى وإذا أوروبا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت  
تكون! فكل قلب به دهشة وكل نفس بها رجاء — رجاء ودهشة يتوهجان  
في جميع النفوس شعاعاً جمياً ونوراً عمياً! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الأقوياء  
وكان لهم في «أودين» فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم شاعر ونبي ومفكر  
صديق كبير ومبدع ومخترع وكذلك شمة الرجل الجليل في كل آن أن  
يكون بطلاً من جميع جوانبه بطلاً قبل كل شيء في روحه وفكره وهكذا  
كان لنلك البطل المتوحش «أودين» إلى أمته كان له قلب كبير قد فتح  
أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير وتلقى الحياة الإنسانية كما كانت حينذاك

ثم قال كلمته في هذه وذلك فهو كما قلت بطل في صورة وحشية اولية ولكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق فاذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لانزال نعجب بذلك الرجل فماذا كان اعجاب أولئك المتوحشين به حقا لقد كان عندهم بطالا بل نيبا بل إلهيا أو بعبارتهم هم «فوتان» أى «أودين» ومعناها القوة الكبرى والفكر عا كم الله فكر فى أى صورة بدا وعلى أى شكل ظهر حتى لأحسب أن «أودين» هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم وحسبكم برهانا فكره الكبير فى قلبه الوحشى العميق! أفلاترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ انكليزية لانزال نستعملها؟ وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع

فجدير بنا أن نرى فيه أمودج الرجل الشمالى وأشرف بنى جلدهته ثم ما كاد يظهر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة فهو الجندر الذى أنبت أشياء جمّة ولا تزال ثماره يابنة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة التيوتونية حتى إن كثيرا من أسماء بلادنا واسم يوم الاربعاء كما ذكرت مشتقا من لفظه «أودين» أفلاترون بعد ذلك أن آثار الرجل قد جاوزت إلى بلادنا وأن أفرعا من فروعه قد امتدت إلينا ومن ذلك الجندر ذياك الورق!

فاذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره فهذا ظله الواسع المديد مازال ينشر أعلامه على تاريخ الامم التيوتونية جميعه لانه متى سلطنا أن

أودين كان وقتاً ما أمكننا أن نفهم أن نظام أفكار الأقدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه في طريق آخر وليس هيئته جديدة إذ جعل جميع الأمم التيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل مقال ذلك الرجل وعلم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم وكذلك شأن الرجل الكبير في كل حين أو ماترون في العقائد الاسكاندنافية التي يصعد ظلها الهاائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل «أودين»؟ نعم الفكر فكر كيفما كان وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثاً وما تاريخ العالم الا مجموع سير أبطاله!

يبدانى أرى في صورة ذلك التاريخ القديم شيئاً مرققا للاقتدة وهو افراط أولئك القوم المتوحشين في حب بطلهم وان شاب ذلك الحب سداجة وعجز نعم انه وان شابه منتهى العجز فلقد كان في منتهى الوفاء والشرف وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الانسان وأمالو أمكننى أن أفهمكم مالم أزل أعتقده منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الانسان فى هذه الدنيا لكان لكم فى ذلك غنية عن كل ماسوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات نحن لانعبد أعظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط فى اجلالهم بل تقتصد باللاسف — فى اجلالنا لهم الأام اقتصاد! فهذا وربكم شر ونكرو ولكن خلو العالم من العظماء أشبر وأنكرو وأدهى وأمر

وكذلك نرى في مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلاً وقيمة ثمينة وهو وان لم يكن اليوم بحق فقد كان في يومه حقاً أليست كأنها صوت آباتنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول «هذا رأينا في الدنيا هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكراً لله الذي رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا اشراقاً على كونه وأصح رؤية ولكن لا تحسبوا أنكم بلغت القمة فإن رأيكم وان فضل رأينا لكنه مازال جزئياً ناقصاً والامر أعظم من أن تناله مدارك انسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان وكأني بالانسان بعد أن تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض لا يزال يجد أن أقصر جهده هو الامام بطرف من أطراف هذا الكون فان الامر كما قلت أكبر من الانسان وليس في وسعه أن يفهمه وكيف وهو شيء عديم النهاية»

الايان بأن الكون شيء الهى مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات هو عنصر خرافات الاسكاندناف وسائر الخرافات ولعل الوثنية الاسكاندنافية أصدق في هذا الامر من جميع ماعداها اذ الاخلاص أكبر خواصها وهذا الاخلاص هو عزولنا عن خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهديب فقد احس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح



يقظى وقلوب صحيحة مخلصه جمعت بين معني الطفولة والرجولة الى سداجة  
في شرف احساس وعمق في نشاط وصفاء واجلال في شغف واخلاص  
في شجاعة فله اولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم وكذلك ترى  
أن هذا الايمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية فاما الايمان بعظمة  
الانسان وواجباته الالهية والادبية وان لم يكن مفقودا من الوثنية فهو  
العنصر الأهم في الأديان والأطهر والأصفى وكذلك ترى أن الانسان  
ينهب في أول أمره إلى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ثم لا يعرف  
أنه لا قوة في الحقيقة الا القوة الأدبية وان أهم الأمور هو تمييزه بين  
الخير والشر بين الفرض والمحرم الا بعد تصرف الدهور الطويلة  
أما من حيث الخرافات المذكورة في كتابهم المسمى ال «ادا» فهي كما  
ذكرت آنفا أحدث عهدا من مدة «أودين» ولعلها لم تكن في نظر  
أولئك الأقباط الا ضربا من اللهو والفكاهة ولم تكن انجيلالهم ولا  
توراة إذ أن العقيدة كما قدمت لا بد أن توجد أولا ثم تزدحم حولها  
الأقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح ولا أحسب العقيدة  
الشمالية الا أنها كانت قبل نظم الأشعار حية فعالة في نفوس أهلها  
وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأمى كلما كانت أسكت وأصمت  
ومما يرى في كتابهم ال «ادا» ذلك الكتاب المبهم المظلم يؤخذ أن  
زؤس العقائد لم تكن الا ما يأتي الايمان بالمنتخبين وهم الآلهة المولكون  
بانتخاب من يقضي عليهم بالقتل في ساحة الوغى وحومة الحرب ثم

الايمان بالقضاء المحتوم وهو أن من قضى عليه ان يموت قتلا فلا مرد  
لذلك القضاء ولا مفر ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون  
شجاعا أليست هذه الثلاثة هي أعظم أصول الشرائع العظمى شريعة  
لوثر وشريعة محمد بل أزيدكم وشريعة نابليون أيضاً بل هي سنة الانسان  
أينما كان وكيفما كان وهي السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع والخيط  
الذى منه ينسج ثوب عقيدته وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان  
الذين قضوا فى معترك القتال الى قاعة «أودين» أما الادقة الاخساء  
والجنباء الأذلاء فينبذون فى ديار «هילה» آلهة الموت هذا هو فيما أراه  
روح الوثنية الشمالية جميعها فقد كان أولئك الاقوام يعتقدون أن  
الشجاعة رأس كل شىء وانها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازم  
وأنهم يستوجبون سخط «أودين» ويستنزلون عقابه اذا هم لم يشجعوا فى  
جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون فى ذلك معنى عالياً كبيراً؟ حقاً  
انه لواجب أبدي وفرض سرمدى حتى اللحظة كما كان حقاً فى تلك  
العصور أن يكون الانسان شجاعا وما زال أول واجبات المرء أن يقهر  
الخوف وحقاً أنه ينبغى لنا أن نقطع دابر الخوف فانه لاسبيل الى العمل  
حتى نصنع ذلك فاذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان  
خليقاً أن تخبث نفسه ويفسد طبعه وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية  
وافكاره زورا وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان ولذلك  
ارى انه لو استخلص لباب المذهب الاوديني من قشوره لالفي حقا الى

هذه الساعة كيف لا وإنما أول واجبات الانسان ان يكون كما قمنا  
شجاعا وأن يمضى قدما في سنه ويكون رجلا في كل ما يحاول ويزاول  
ثم هو في جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره وما زال ظفر المرء على  
الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته في كل آن  
ولا شك في أن شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية  
جدا وقد روى المؤرخ «سنورو» أنهم كانوا يرون الموت في غير مواطن  
الحرب عارا وسبة

تسيل على حد الظباء نفوسنا وليست على غير الظباء تسيل  
وما مات منا سيد خفف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل  
فاذا أحس أحدهم دنو الأجل واقترب الموت الطبيعي أحدث  
الجراح في بدنه ترفعا بذلك إلى «أودين» ليفسح له في جناته مقاما وكان  
الملوك إذا أشرفت عليهم منايهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا في سفن ثم  
ترسل السفينة في اليم منشورة القلاع تدب في خشبها نار بطيئة المسرى  
فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح تأججت في بدنها النار وطار  
في أركانها شواظها وكذلك يلقي البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح  
الهواء قبرا شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة . وخير  
من لاشيء ثم أى نجدة روعاء وهمة قعساء وأى عزيمة ومضاء قد  
كانت ملوك البحر من أولئك الشماليين الكأني والله أراهم مشمرين على  
ظهور سفنهم صامتين مقفلي الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى

البسالة والنجدة — يكافون البحر النائر وعفارت أمواجه وشياطين  
حيتانه ونينانه بل يكافون البر والبحر وكل ماعليهما أولئك آباء بحارتنا:  
رالى وبلاك ونلسون! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترنم بعضائهم أعمالهم  
شاعر كهوميروس الا أنى أرى ماثر اغامنون (أحد أبطال اليونان في شعر  
هوميروس) تتضاءل في جانب منسعة رجل من أولئك الأبطال الشماليين —  
رجل مثل «رولف» أو «رولو» أمير نورماندى ذلك الملك البحرى  
الفاتك فانى أرى له الآن يدا في حكومة انكلترا وان كان قد مرت على  
عهده القرون والدهور

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان في البحار  
ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال لان ذلك لم يكن الا تنازع الرئاسة  
ليعلم أى أمة أقوى قسود ثم رأيت أن من أولئك الملوك الشماليين من  
كان يلقب قاطع الشجر أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات  
وفي ذلك معنى وايم الله كبير ولقد أخطأ المؤرخ «سكالدز» حيث  
زعم أن هؤلاء الملوك كان أمرهم قاصرا على الحرب بدليل أن الحرب  
وحدها لا ترزق أمة ولا تميز شعبا وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزره !  
وانى لاحسب أن المحارب الصادق يكون كذلك الغابى (١) الصادق —  
أعنى أنه يكون أيضاً المصلح الصادق والمفكر الصادق والعامل الصادق  
لا يدع أمرا إلا ويتناول برفق وصدق وما ذلك الا لان الشجاعة

---

(١) أعنى قاطع الغاب

الصادقة هي الاساس لكل هذه الامور والشجاعة الصادقة شيء والقسوة  
والفظاعة شيء آخر فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه  
أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشى من قوى الكون لينلوا لنا  
الطبيعة ! أولم نسر نحن أبناءهم في ذلك الطريق الذى نهجوه لنا اذن فلا  
أبعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة !

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة واجابة القوم إياه لاصابة  
قوله هوى فى نفوسهم وظنهم أن كلامه وحيى جاء به من السماء وأنه لذلك  
إله — يظهر لى أن هذا هو أول بذره نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من  
الخرافات على اختلاف ضروبها وألوانها والرموز الشعرية والقصائد  
والقصص والانشيد والاغاني الخ أقول نبتت ! عجا عجا ! إنما يقال  
نبت للشئ الحى وقد قلت أن هذا المذهب الوثنى لم يك الاظلمة حالكة يبرق  
فى جوفها ذهن أودين كالنجم فى الديجور نعم ولكنها ظلمة حية تدبروا  
رعا كم الله ذلك هذه الظلمة هى الذهن المتوحش الجاهل — ذهن تلك الامة  
البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر  
الى ماشاء الله فى فطنته ونطقه ! نعم ان الفكر بذرة تثبت وتتمو ثم  
تمو ثم لاتزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى اصبت بذرة منها فقد  
حصلت من شجرها على مالا نهاية لعدده وذلك أن البذرة تخرج شجرة  
فاى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذراً لشجرة  
جديدة تثبت فروعاً فتصير جذوراً وهكذا الى ماشاء الله والفكر حى

لا يموت واول من فكر من الرجال على ظهر هذه الارض فهو بادي  
الجميع - ثم الثاني والثالث بل كل مفكر صادق إنما هو من قبيل  
«أودين»، أو إن شئت فقل إنما هو «أودين»، على النكرة ثم هو قد بعثه  
الله ليعلم الناس رأيه في الله والكون والانسان ولينشر ظل صورته على  
أجزاء من تاريخ العالم

فأما مزايا ذلك المذهب الشعري فهذا مالا موضع له هنا كلا ولا كبير  
أهمية وقد يوجد أشعار نبوية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب  
من اللهو أضافها الى قواعد الدين أناس متأخرون وما أحسب أنه قد  
بقي من أشعارهم الا الأغانى وأمثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من  
يترنم بالأشعار شأن المصورين المحدثين لا يبرحون يصورون لا من صميم  
القلوب كما كان قداماء المصورين وكما هو الأصل في التصوير والباعث  
عليه بل ربما ليس من القلوب قاطبة فاعلموا ذلك ولا تنسوه

وقد حاول شاعرنا «جراى» أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين  
القدماء غراب خيبة الشاعر بوب اذ ترجم «الايادة» فلم يثأته الشعر على  
ابراز روح هوميروس وحسب جراى أن حياة أولئك القوم كانت  
موحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروع والرعب فصورها كذلك ولم  
يدر أن أهم عناصرها هي وعورة كوعورة صنخورها وخشونة كخشونة  
فتارها الى أنس لاوحشة وانسراح لا انقباض وشيء من الفكاهة  
والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة وكان القوم غايته في

السناجة لم يميلوا في تصوير آلهتهم ووقائع هذه الآلهة الى مآمال اليه  
إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية فكأنني بأولئك الشماليين  
لا يجدون في وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدى الفرائص أمام  
مدهشات المسرح ثم يعجبني جداً سداجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم  
فمن ذلك ما يتخيلون من أن «ثوراً» إله الرعد يقطب جبينه في حنق صادق  
ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ثم أجد كذلك  
الرحمة بادية في أجمل مظاهرها في خرافاتهم تلك فمن ذلك أن «بولدار»  
الإله الأبيض - إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت فلم يدعوا في  
الطبيعة شيئاً الا نقبوا فيه عن دواء ولكنه مات وقضى الأمر فتبعث  
أمه «فريجا» رسولا اسمه «هرمودر» ليبحث عنه ويطوى الرسول تسع  
ليال وتسعة أيام يخب في أودية منخفضة مظلمة ومنعرجات معتمة مشكلة  
حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبي ويقول له الحارس «نعم» لقد عبر  
«بولدار» هنا آنفاً ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً الى جهة  
الشمال فيستمر الرسول في سبيله حتى يصل باب مملكة الموت ويرى بولدار  
ويحدثه فإذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه أن لا يغادره قضاء  
محتوماً لا مفر منه وقد أبت مملكة الموت أن تطلقه كلا ولو أرادت ذلك  
الآلهة طرائم إن امرأته تطلب من أجله أن تموت لتؤنسه في ديار  
الموت فيجانب طلبها ويبقى الزوجان معاً آخر الأبد ثم يرسل «بولدار»  
خاتمه الى «أودين» وترسل زوجته «نانا» خاتماً على سبيل الذكرى

— واسفاه ووارحماه !

والحقيقة أن الشجاعة ينبوع الرحمة — ينبوع الصدق والشرف  
والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب وقد قال المؤرخ  
«اهلاند» أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم  
في اله الرعد رقيقا مؤنسا؟ وأن لا تخاف ولا تذعر من رعده بل ترى  
أنه لا بد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجليل من مصاحبة الرعد؟ وقد  
كان الرجل الشمالي يرتاح ويستأنس الى «ثور» ويحبه ويحب سيفه  
القاذف بالصواعق ويلاعبه ويداعبه وكان ذلك الاله عنده هو إله  
الحرارة الشمسية أيضا أعنى إله العمل والامن والخير والبركة  
وصاحب الفلاح ورفيقه في الغرس والحراث ثم ان «ثورا» نفسه لا  
يترفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية وما يزال يذهب الى ديار  
الشياطين ليدال عقاريت الثلج والجليد ويقهرها وفي بعض هذه  
الأقاويل ما فيه فكاهة وضحك

فمن ذلك ما ذكرنا من أن «ثورا» يذهب الى ديار «المردة» ليجلب  
مرجل «هيمير» حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير فيدخل عليه  
«هيمير» شيخ الابالسة ولحيته مرصعة بالبرد وكلما رمى يبصره عمودا  
من العمد انفاق من حدة نظرتة وبعد طويل صخب وعريدة يأخذ  
«ثور» المرجل فيلبسه في رأسه فإذا هو قد بلغ قدميه ذلك لانه مرجل  
مارد — «هيمير» الذي كان كل بقرة من بقره هضبة من الثلج



هذه أفكار وايم الله ماردية هائلة الجسامة غير أنها تحتاج الى ان تراض وتذلل حتى تصير أفكارا شاكسيرية وداتية (١) وجايتية (٢) ثم انى أبصر نسبة قريبة بين «ثور» اله الرعد و«جاك قاتل المردة» وبين «هندي ايتن» و«ايتن الاحمر الايرلندى» التى جاءت فى أفاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلسم العصور الوثنية بل انى لأجد «هامليت شاكسبير» الافرا من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا مالا نزاع فيه ولا ريب نعم ان هامليت أو أمليت قد ورد فى خرافة قديمة من أساطير الاولين تحدث عن مقتل ملك بصب السم فى أذنه أثناء نومه الى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسيرية خرافة قديمة أخذها أولاً الشاعر القديم «ساكسو» فصاغ منها قصة دانياركية ثم تناول شاكسبير ماصنعه «ساكسو» فصور منه ماترونه فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صدقة

وحقا ان فى هذه الاغانى الشمالية معنى صادقا شريفاً شأن كل قول تتداوله الرواة وتتوارثه القرون وليس هو مجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ولكننا شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة وأرى فى قلوب أولئك القدماء جدا صامتا واطراقا فى غير ضجر ولا شكوى وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والالهام مارآه الناس

(١) نسبة الى داتى أكبر شعراء ايطاليا وأعظم رجالها قاطبة

(٢) نسبة الى جايتى أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجالها على الاطلاق

في جميع العصور بالرؤية والتفكير وهو أن الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة أن «ثوراً» يذهب إلى «اتجار» — حديقة أرض المردة يصحبه اثنان من اتباعه «ثيالفى» و«لوكى» وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون في سهول وقفار بين صخور وأشجار حتى إذا جن الليل آنسوا داراً وكان جانب من جوانبها كله باباً فولوجوه فإذا مكان حقيير خال فأقاموا به فلما سجد الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ «ثور» معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال وجعل صاحبه يجر يان هنا وهناك فزعا يتمسان مخرجا فوجدا غرفة صغيرة فعازا بها وأقام ثور بالباب يتربعدوا مهاجماً ولا عدو ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن الا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم — المارد «سكريمير» وكان نائماً ناحية منهم وكان المكان الذى حسبه دار افياتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عند ما أراد النوم وكانت الغرفة التى عازا بها هى بيت الابهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع يالها من قفازة عتيقة! ثم إن المارد «سكريمير» صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ولكن «ثوراً» ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه

أنتبه وحك وجنته وقال ورقة سقطت ثم عاد في نومه فأرسل «ثور» على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلاً ماهى الإحصاة ثم نام فصب عليه «ثور» يديه جميعاً ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد فمازاد على أن قطع شخيريه وقال أحسب أن بهذه الشجرة عصافير والافنا هذا الذى سقط على؟ ثم إن «سكيرمير» دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهُو وشراب فناولوا «ثوراً» كأساً وسألوه أن يشرف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثاً طويلاً وما كاد يحدث أثراً فقالوا له طفل ولا رب ثم أومأوا له إلى قطة فسألوه أيقدر أن يرفعها فحاول «ثور» فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهد الإحدى أقدامها فقالوا له: ما أنت يا هذا برجل - انظر ثمت الى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها فعانقها ثور وجهه وكد فافعل شيئاً

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثور لقد غلبت ولكن لا تنجبل فإن فى الأمر سرا أنا كاشفه لك فاما الكاس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر وحسبك أنك أحدثت به جزرا ومن ذا الذى ياتور يستطيع أن يشرب البحر؟ وأما الهرة التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تلتف حول الأرض فتمسك أجزائها وتضم أركانها فقل لى أكنت محاولا برفعك اياها أن تخرب العالم؟ وأما العجوز فهذه هى الدهر والهزم والدوام ومن ذا الذى يصارع ذلك؟ لا انسان ولا

إله فانها غلبة لكل شيء. وأما الضربات الثلاث التي ضربتها فتأويلها أن تنظر إلى هذه الاودية الثلاث «فهي من صنع ضرباتك» فظهر «ثور» إلى رفيقه فاذا هو المارد «سكيرمير» وهذا المارد هو الارض ذاتها وما قفازته إلا أحد الكهوف وأملس المارد فلم يبق له أثر ثم إن ثورا التفت لينظر حديقة المردة فاذا هي قد صارت هواء ولم يبق الا صوت المارد يهتف به ساخرا «أولى لك أن لا تعود إلى ديار المردة» - هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الاقاويل التنبؤية الجدية ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إيريز؟ نعم ذهب أنقى وأصفى مما يوجد في خرافات اليونان وان كانت أجود صنعة وأرشق معرضا وقد أرى لذلك المارد «سكيرمير» فكاهة جملة أساسها الجدل والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل «بين جونسون» وهي فكاهة تجري في دماغنا حسبا يخيل الى لآني أكاد أسمعها الآن من أقاصي غابات أمريكا يصيح بها كاتبها الكبير «امرسون»

ومن الرائع الكبير من أفكار القوم ذاك الذي في الصورة الآتية وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخراب الكون ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وأبهى وارض أنضر وأحلى وإله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعاً فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدرکوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة

والبعث وهذا فيما اراه القانون الاساسى لكل مخلوق أحدثه الله  
وأقامه في دار الأمل<sup>(١)</sup> قانون قد نفذ اليه نظر قوى الاخلاص  
والبصيرة وسينفذ مادام الانسان

ولننظر الآن الى الخرافة التي يذكر فيها آخر ظهور « ثور » في  
الأرض ونجعلها خاتمة هذا الباب ولعلها فيما يخيل الى آخر هذه الخرافات  
عهداً وفيها انكار لانتشار النصرانية مشفوع برثة حزن على ماتولى  
من عهد الوثنية — وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من  
محافظة الوثنيين في أوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج وهذا خواها  
بينما الملك « اولاف » امير النرويج ذلك الذي كان له اليد الطولى في هدم  
صروح الوثنية ونشر أوية النصرانية في البلاد سائحاً في حاشيته على  
سواحل النرويج يتنقل من ثغر الى ثغر ويبث العدل في الرعية أو يصلح  
من أمورها اذا بغريب بادی الوقار أصعب اللحية نبيل الصورة مهيب  
الطلعة قد طرأ ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعه ولكنه مالبت  
أن غير من لهجة كلامه فخطب الملك قائلاً: نعم أيها الملك « اولاف »  
ما أجل هذا الشاطيء يزهو في روتق الضحى وما أندى خضرته وأهوى  
نضرتة فحبذا السهل وحبذا الجبل وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان  
ولكن اذكر أنك ما كنت ممتعاً بذلك لولا ما مهده لك « ثور » من أمر  
البلاد وما وطأه لك من شأن الملك فكم كافح دونه المردة وكم دافع عنه

الأبالسة وكمل لاقى في ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب والآن إذ استتب لك الأمر وطاب لك الزمان تناسيت «ثورا» ودفت ذكره فيا أيها الانسان انتبه من رقدتك وكن من أمرك على حنرا» قال الغريب ذلك وقطب جبينه والثفت الملك وحاشيته فاذا هو قد غاب عن الأبصار وكان هذا آخر ظهوره على مسرح العالم! وإني لأرى باعث حزن وشجن في ذلك الصوت — آخر أصوات الوثنية الذي فنى معه «ثور» والعالم الشمال باكله فناء لارجعة بعده وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فالى الفناء مصيره وما من شيء حبيب الينا عزيز علينا الا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحل ويرونا بنواه يوم وداع وكذلك كان لاولئك الشماليين الانجاد في تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا أن نعرف وثنتهم) ما كفاهم ديننا وشرعا وما تقديس الشجاعة بالامر الهين ثم لا أحسب أن عرفانا بعض الشيء عن وثنية آباءنا الا شيئا مفيدا ذلك أن الدين لا يبرح منه في نفوسنا: وان لم نشعر بذلك: أثر فشعورنا به جدير أن يجعل صلتنا بالماضى أكد وفهمنا له أصفى وأنقب والماضى تعلقون ميراث لنا وأى ميراث وهو جزء من الحقيقة التي هي مجموع كل عصر وكل أمة فعلنا بالجميع خير من جهلنا به وقد جاء في كلام «جايتي» أن رجلا اسمه «مايستر» سأل أستاذه بأى الاديان الثلاثة أنت مؤمن فأجاب «بجميعها لان من اجتماعها يتكون الدين الحق»

## المحاضرة الثانية

### البطل في صورة رسول

محمد — الاسلام — تنتقل الآن من تلك العصور الخشنة — عصور الوثنية الشمالية إلى دين آخر في أمة أخرى — دين الاسلام في أمة العرب وما هي الاثقة بعيدة ويون شاسع بل أى رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره

في هذا الطور الجديد لم ير الناس في بطلهم إلهاً بل رسولا يوحى من الاله وهذه هي الصورة الثانية للبطل فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبنا الى حيث لا تعود أبداً ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم بل لنا أن نسأل أكان من أى ناس قط أنهم عمدوا الى رجل يرونه ويلبسونه فقالوا هذا خالق الكون أنا لا أظن ذلك إنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على أن هذا أيضاً لن يكون قط ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولولم يبلغ منتهى العظمة

لقد كان اعتبار الرجل العظيم الهاغلطة وحشية فاحشة ولكن دعنا نقل أن الرجل العظيم ما برح في جميع الأزمان لغزاً من الألغاز لا تدرى كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله! ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم وسواء استقبلوه كاله أو كنبى

أو كيفما كان فذلك هو السؤال الأكبر ومن طريق إجابته عن هذا السؤال وكيفية مذهبه في ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحية كما لو كان من خلال نافذة

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً — أعني من ذات الله فهو جنس واحد: «أودين» أو «لور» أو «جونسون» أو «بارنز» وأرجو أن أوفق إلى أفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة وإنه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر إلا الهيئة التي يكتسبونها هم أو الطريقة التي يستقبلهم بها أهل زمنهم

\*\*\*

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصفى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المنحجلة فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا أفكان احدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتمة المحصر والاحضار أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادقان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بهل ومجانين وما الجياه الا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لا تتخلق



فواسفاه ما سوا مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالراء  
والمرحة (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن  
لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء فانها نتائج جيل كفر وعصر  
جحود وإلحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت  
الأرواح فى حياة الأبدان ولعل العالم لم يرق رأياً أكفر من هذا والأم وهل  
رأيتهم قط معشر الاخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره  
عجاً والله ان الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب افهو إذا  
لم يكن عليهما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فاذنك  
الذى يبنيه بيت وإنما هو تل من الانقاض وكثير من أخلط المواد  
نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائه اتى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من  
الانفس ولكنه جدير ان تنهار أركانه فينهدم فكانه لم يكن وانى  
لأعلم انه على المرء ان يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة والابتن  
أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار  
وان زخرفوه حتى خيلوه حقاً وزور وباطل وان زينوه حتى أوهوه صدقاً  
ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأماً بهذه الأضاليل وتسود  
الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل  
الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفها الأثيمة  
ويحيق مصابها بالغير لابه وأى مصاب وأيكم؟ مصاب كمصاب الثورة  
الفرنسوية وأشبابها من الفن والمخن تصيح بملء أفواهها « هذه

### الاوراق كاذبة اء

أما الرجل الكبير خاصة فاقى أقول عنه يقيناً أنه من المحال أن يكون كاذباً فاقى أرى الصدق أساسه وأساس كل مابه من فضل ومحمدة وعندى انه مامن رجل كبير - ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كرمويل - كفه للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شىء بل أقول ان الاخلاص - الاخلاص الحر العميق الكبير - هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس باخلاصه كلا فان هذا حقير جدا وأيم الله هذا اخلاص سطحى وقح - وهو فى الغالب غرور وفتنة انما اخلاص الرجل الكبير هو عما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص اذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوماً واحداً؟ نعم ان الرجل الكبير لا يفخر باخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلصه أو بعبارة أخرى أقول ان إخلاصه غير متوقف على ارادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول هكذا خلق الله ذهنه وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمتة هو يرى الكون مدحشاً ومخيفاً وحقا كالموت وحقا كالحياة وهذه الحقيقة

لاتفارقة أبدا وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخطوا  
في غياهب الضلال والعمية بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه  
ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من الذهب لاشك فيها ولا ريب  
هاهي ! ها هي ! — فاعرفوا هداكم الله ان هذه هي أول صفات العظيم  
وهذا حده الجوهري وتعريفه وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي  
جديرة أن توجد في نفس كل انسان خلقه الله ولكنها من لوازم  
الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها

مثل هذا الرجل هو مانسميه رجلا أصليا صافي الجوهر كريم  
العنصر — فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة الينا فقد  
نسميه شاعرا أو نيبيا أو إلها وسواء هذا أو ذاك أو ذلك فقد نعلم  
أن قوله ليس بماخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق  
الاشياء نعم هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات  
وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الاوهام والآراء  
وكيف وإن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ثم اذا نظرت  
الى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو نيبيا أو فارسا أو ملكا أترأها  
ضربا من الوحي والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء  
الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للاشياء وقد دل الله على وجوده  
بعده آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذي علمه الله  
العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغي اليه قبل كل شيء

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع  
بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك أو سلطان أو غير  
ذلك من الحقائق والصغائر وما الرساله التي أداها الا حق صراح وما  
كلمته الا صوت صادق صادر من العالم المجهول كلا ما محمد بالكاذب  
ولا الملقق وانما هو قطعة من الحياة قد تفرط عنها قلب الطبيعة فاذا هي  
شهاب قد أضاء العالم أجمع ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء  
والله ذو الفضل العظيم وهذه حقيقة تدمع كل باطل وتدحض حجة  
القوم الكافرين

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات — وای انسان  
لا يخطئ. انما العصمة لله وحده — فانه ليس في طاقة أية هفوات  
او غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى وهي أنه رجل صادق  
ونبي مرسل

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا  
الحقائق الكلية. الهفوات ! أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ان أكبر  
الهفوات عندي أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات مابال الناس  
لا يذكرون نبي الله داود؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام  
الامأهون أمر الذنوب وأصغر خطر الاغلاط — الجزئيات والقشور —  
إذا كان لبها كريما وسرها حرا شريفا وكان في التوبة النصوح والندم  
الصادق ووخز الضمير ولذع الناكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر

لإردان الروح من أدران الشوائب أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله؟ إنما الأثم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه يرى من كل ذنب وكل نفس هذا شأنها فهي في نظري مطلقة من الوفاء والمروءة بعيدة عن التقى والبر والحق - أو هي ميتة - أو إن تشأ فقل هي نقية نقاء الرمل الجاف الميت وإن أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء في معارج المكرمات وعلى حرب العقل والهوى - حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقي مشفيا على الانقراض ولكنها حرب بغير نهاية مشفوعة أبدا بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة يا ويل النفس الانسانية ما أشد خطبها بين ضعفها وقوة شهواتها! أوليست حياة الانسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات؟ وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك؟ وهل يطبق في ظلمات هذه الحياة الا الاعتساف والتخبط؟ فما ينهض من عثرة الا لاخرى وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات وانما الأمر الهام هو أيطفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات؟ وأنا لنصفح عن كثير من الجزئيات مادام الباب حقا والصميم صحيحا وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة انسان

\*\*\*

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة وكانما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكانت شبة قريب بين وعورة

جبالها ووعورة اخلاقهم وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم وكان يلفظ من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدمائة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء وكان الأعرابي صامتا لا يتكلم الا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلي جمرة النهار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القريله رأته رجلا اما إذا الشمس عارضت فيضحى واما بالعشى فينصر ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها الا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر وإذا صح أن الفرس هم فرنسويو المشرق فالعرب لاشك طليانه والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما اقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم احصن سور وأمنع حاجز وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مشواه وينحرله فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحملة وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاومه متى عادت به اليه الفرص وكان العربي أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح: ويرغم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود في مرارة الجسد وخالفوهم في حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفي المعية القريحة وأريحية القلب وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر يبحرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تناشد

الشعراء القصاصد ابتغاء جائزة تجعل للاجود قريضا والأحكم قافية فكان  
الأعراب الجفافة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمت القصيد  
ويجدون لرناتها أى لذة فيتهاقون على المنشد كالقراش ويتهاكون  
وأرى طهؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائيلين واضحة فيهم  
واحسبها ثمرة الفضائل جميعا والمحامد بمخذا فيرها ألا وهى التدين فانهم مذ  
كانوا ما برحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب  
وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته  
فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه فان مصنوعات الله ما برحت  
بوجه ما رموزا له ودلائل عليه أسنا كما قدمت نعتها مفخرة للشاعر  
وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو «أسرار  
الجمال الشعري» كما اصطاح الناس على تسميته؟ وقد كان طهؤلاء العرب  
عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقضيه مبلغ علمه ورأيه ثم  
أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى  
مسددواى تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو والمفكرين؟ وقد اتفق النقاد أن  
«سفر أيوب» أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب في بلاد العرب  
وأراني في هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر  
يراع ودونت يد كاتب ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين  
لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها — عمومية تتخالف التعصب  
والتحيز وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بعرق في كل نفس ويمت

بصلة الى كل قلب ويكون كالبيت يفضى اليه منتهى السبل وكالأرج  
الضائع تتنازعه جميع الانوف

والكتاب المذكور هو أول ما جاملنا عن مسألة المسائل -  
حياة الانسان وفعل الله به في هذه الدار وقد أتانا بذلك في أنصح بيان  
وأشد إخلاص وأحسن سهولة وإني لأتبين فيه العين البصيرة والقلب  
النافذ الفهم الجيم الخشوع فهو الحق من حيث جنته والنظر الراسب  
في قرارة كل شيء وصميم كل أمر - مادي وروحاني ألا تذكرون  
ما جاء فيه من ذكر الفرس . « الله الذي أودع الرعد حنجرته » « فهل  
ترى صهيله الا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله أجود الاستعارة وما  
أحسب أن في عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه ذلك إلى ما في  
الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل وما  
قرأت فيه قط الا حسبت قلب الانسانية يتزعم شجى ووجداء ودمع  
الانسانية يفيض حرقة وكندا فيا لها من رقة في شدة ورأفة في قوة وما  
أشبهها الا بسحر الليلة الصائفة - رقة نسيم في جلال مشهد عظيم وإلا  
بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار وما أحسب أن في جميع  
التوراة شيئاً يدانيه فضلا وقيمة

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ولا يزال للآن بمكة  
في البناء المسمى « الكعبة » وقد ذكر المؤرخ الروماني « سيسلاس »  
الكعبة فقال انها كانت في مدته أشرف معابد العالم طرا وأقدمها وذلك



قبل الميلاد بخمسين عاما وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » أن الحجر  
الاسود ربما كان من رجوم السموات فاذا صح ذلك فلا بد أن إنسانا  
قد بصر به ساقطا من الجوا والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم  
والكعبة مبنية فوقهما والبئر تعلون منظر حيثما كان سار مفرح ينجس  
من الحجر الاصم كالحياة من الموت فما بالكم بها إذا كانت تفيض  
بديمومة لا ظل في صححانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوم  
ترى الآل فيها يلطم الآل ما أنجأ وبارحها المسموم للوجه ألطم  
أظل اذا كافتها وكأنتى بوهاجها دون اللثام ملثم  
وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها والعرب  
تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وشفاء وقد  
قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليها الكعبة منذ آلاف من  
السنين وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها فهي في هذه الآونة قائمة  
على قواعدها عليها الكسوة السوداء التي يرسلها السلطان كل عام يبلغ  
ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من العمد وبها  
صفوف من المصاييح وبها نقوش وزخارف عجيبة وستوقد تلك المصاييح  
الليلة لتشرق تحت النجوم المشرقة فنعم أثر الماضى هى ونعم ميراث  
الغابر هذه كعبة المسلمين ومن أقاصى المشرق الى أخريات المغرب —  
من دهلى الى مراکش تتوجه أبصار العديد الجمهر من عباد الله المصلين  
شطرها وتهفوقلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم وكل يوم نعم لهى

والله من اجل مرا كز المعمورة وأشرف أقطابها

وإنما من شرف البئر زمزم و قدسية الحجر الاسود ومن حج القبائل الى ذيك المكان كان منشأ مدينة مكة ولقد كانت هذه المدينة وقاما ذات بال وشأن وان كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها وموقعها من حيث هي مدينة سيء جداً اذ هي واقعة في بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ولكن الذي اضطر الى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ثم ان أما كن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعي التجارة فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وان لم يكن في الحسبان لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشتريين وموردين لبضائع الشرق والغرب وبيعة للبا كولات والخلال وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الارسطوقراطية عليها صبغة دينية وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة وكانت لقريش في عهد محمد وأسرته محمد من قبيلة قريش وكان سائر الامة مبدداً في أنحاء

تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والاخرى البيد والقفار وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء: وربما كان الامير راعياً أو ناقل أمتعة ويكون في الغالب لصاً وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ولم يك يؤلف بينهم حلف على الا التقاهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنيتهم مذهب واحد والا رابطة الدم واللغة وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طويلاً خاملى الذكر غامضى الشأن - أناساً ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير فى الآفاق صيتهم ويرتفع الى عنان السماء صوتهم وما ذلك بعيد وكأئنا كانت وثنيتهم قد وصلت الى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط وقد حدثت بينهم دواعى اختلاط وفوران وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أبناء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة - أعنى حياة المسيح ووفاته وهى التى أحدثت انقلاباً هائلاً فى جميع سكان العالم - فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران فى أحشاء الامة العربية

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم ان ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه عقب مولده ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شهرة بالجمال والفضل. والعقل فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً وكان ابنه عبد الله أحب أولاده اليه

فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبد الله فاحب اليتيم الصغير بملء قلبه وكان يقول ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الاسرة والقبيلة حسناً وفضلاً ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الاسرة بعده فرباه عمه — وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل على أحسن نظام عربي

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب غير أن اهم أسفاره ربما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ بوضع سنين — رحلة الى مشارف الشام اذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الاهمية جدا في نظره — أعنى الديانة المسيحية وانى لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه في دار ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أى راهب ما فان محمدا لم يكن يتجاوز اذ ذلك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ولا شك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره الا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح قواده أمور وشؤون فأقامت في ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوماً ما

فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات فلعل هذه الرجل الشاميه  
كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمه

ثم لانسى شيئاً آخر وهو انه لم يتلق دروساً على أستاذ ابداء وكانت  
صناعة الخط حديثه العهد اذذاك في بلاد العرب ويظهر لى أن الحقيقة  
هى أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء  
وأحوالها وكل ماوفق الى معرفته هو ما امكنه أن يشاهد بعينه ويتلقى  
بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية وعجيب وأيم الله أمة محمد نعم انه  
لم يعرف من العالم ولا من علومه الا مايسر له أن يبصره بنفسه او  
يصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ولم يضره ولم يزره به انه لم  
يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لانه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك  
ولم يقتبس محمد من نور أى انسان آخر ولم يعترف من مناهل غيره ولم  
يك فى جميع أشباهه من الانبياء والعظماء — أولئك الذين أشبههم بالمصاييح  
الهادهة فى ظلمات الدهور — من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وانما  
نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة  
وبين أفكاره

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شاباً مفكراً وقد سماه رقاؤه الامين  
— رجل الصدق والوفاء — الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره وقد لاحظوا  
أن ما من كلمة تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة وإنى لاعرف عنه  
أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فسا

شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة لا يتناول غرضا فيتركه إلا  
وقد أثار شهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته  
وهكذا يكون الكلام والافلا وقد رأياه طول حياته رجلا راسخ  
المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا ورؤوفا تقيا فاضلا حرا - رجلا  
شديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر  
والطلاقة حميد العشرة حلوا الايناس بل ربما مارح وداعب وكان  
على العموم تضىء وجهه ابتسامه مشرقة من قواد صادق لان من الناس  
من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله - هؤلاء لا يستطيعون  
أن يتسموا وكان محمد جميل الوجه وضى الطلعة حسن القامة زاهى  
اللون له عينان سوداوان تتلألآن وانى لأحب فى جبينه ذلك العرق  
الذى كان ينتفخ ويسود فى حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد فى قصة  
القفازة الحمراء لوالترسكوت) وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم  
ولكنه كان أبيض فى محمد وأظهر نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع  
نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادق النية كان ذكى اللب شهم الفؤاد  
لوذعيا كاتما بين جنيد ٤ مصاييح كل ليل بهم

متملنا ناراً ونورا رجلا عظيما بفطرته لم تتقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو  
غنى عن ذلك كالشوكه استغنت عن التتقيح فأدى عمله فى الحياة وحده  
فى أعماق الصحراء

وما ألد وما أوضح قصته مع خديجة وكيف انه كان أولا يسافر فى

تجارات لها الى أسواق الشام وكيف كان ينهج في ذلك اقوم مناهج الحزم والامانة وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ولما زوجت منه كانت في الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه ولقد عاش مع زوجته هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة يخلص لها الحب وحدها وما يبطل دعوى القائلين أن محمداً لم يكن صادقا في رسالته بل كان ملفقا مزورا أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة لم يحاول أثناءها احداث خضجة ولا دوى بما يكون وراه ذكر وشهر قوجه وسلطة ولما يك الابد الاربعين أن تحدث برسالة سماوية ومن هذا التاريخ تبتدى حوادثه وشواذه حقيقة كانت أو محتلمة وفي هذا التاريخ توفيت خديجة نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادى الساكن وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدرة ذلك البركان الذى كان هاجما وثار يريد أمرا جليلا وشأناً عظيما

ويزعم المتعصبون من النصارى والملاحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان كلا وأيم الله لقد كان في قواد ذلك الرجل الكبير - ابن القفار والفلوات المتوقد المقتلين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبراً وحكمة وحجى وإرادة ونهى - أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ..

وكيف وتلك نفس صامته كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين فينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفت بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات لقد كان سر الوجود يسطع لعينه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره لم يك هنا لك من الأباطيل ما يجب ذلك عنه فكان لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه «ها أنا ذا» فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس وما كذبت مثل هذا الرجل الاصوت خارج من صميم قلب الطبيعة فاذا تكلم فكل الأذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الاعوام الطوال — منذ أيام رحله وأسفاره يحول بخاطره آلاف من الافكار: ماذا أنا؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه والذي يسميه الناس كوناً؟ وما هي الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا أفعل؟ فهل أجبته عن ذلك صخور جبل حراء أو شاربخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات كلا ولا قبة الفلك السوار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والانبواء الماطرة لم يجبه لاهذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره!

وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه فقد أحسن ذلك الرجل القفري ان هذه هي كبرى المسائل وأهم الامور وكل شيء عديم الأهمية



في جانبها وكان اذا بحث عن الجواب في فرق اليونان الجدلية أو في روايات اليهود المهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده وقد قلت ان أهم خصائص البطل وأول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة وكان يقول في نفسه «هذه الاوثان التي يعبدها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء ما هي إلا رمز له وإشارة اليه والافهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع» وما لهذا الرجل والاصنام وأنى تؤثر في مثله أو ثاب ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ولو عبدها الجحاحج من عدنان والاقبال من حمير أى خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة؟ انه في واد وهم في واد هم يعمهون في ضلالهم وهو مائل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينه الحقيقة الهائلة فاما أن يجيها والاقصد حبط سعيه وكان من الخاسرين. فلتجها يا محمد! أجب لا بد من أن توجد الجواب أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره حق وايم الله وسخافة وهوس أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر ووصولان كسرى وجميع مبالارض من تيجان وصولجة وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أنى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو في ملك كسرى وتاج ذهبى النؤابة منجاة للدرء ومظفرة؟ كلا اذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل أن محمدا كاذب ونعد موافقتهم عار وأوسية وسخافة

وحقاً فلتربأ بنفوسنا عنه ولنترفع

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع الى السكون  
والوحدة دأب العرب وعاداتهم ونعمت العادة ما أجل وأنفع ولا سيما الرجل  
كمحمد لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتاً بين الجبال الصامته  
متفتحاً صدره لاصوات الكون الغامضة الخفية أجل حبذا تلك عادة  
ونعمت فلما كان في الاربعين من عمره وقد خلا الى نفسه في غار بجبل  
«حراء» قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى اذا  
هو قد خرج الى خديجة ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزها  
قريباً من مكان خلوته فقال لها أنه بفضل الله قد استجلى غامض السر  
واستثار كامن الأمر وأنه قد أنارت الشبهة وانجلي الشك وبرح الخفاء  
وان جميع هذه الاصنام محال وليست إلا أخشاباً حقيرة وان لا إله إلا  
الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل خلقنا ويرزقنا  
وما نحن وسائر الخلق والكائنات الا ظل له وستار يحجب النور  
الأبدى والرواق السرمدي الله أكبر والله الحمد: ثم الاسلام وهو أن  
نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن اليه وتوكل عليه وان القوة كل القوة  
هي في الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته أية  
كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ونهما يصنابه الله ولو كان الموت  
الزؤام فلتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن  
لاخير إلا هو ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم «جايتي» اذا

كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم وقدا قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الاذعان للضرورة — فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما ياتيه الانسان مكرها — بل في اليقين بان الضرورة الالهية المرة هي خير مايقع للانسان وأفضل مايناله وان لله في ذلك حكمة تلتطف عن الأفهام وتدق عن الاذهان وأنه من الافن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لنلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد أن للكون قانوناً عادلا وان غاب عن ادراكه . وان الخير هو أساس الكون والصالح روح الوجود والنفع لباب الحياة نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى والمذهب الاشرف الأطهر وما زال الرجل مصيبا وظافراً وحرأ وكريماً وسائراً على المنهج الاقوم وسالكا سبيل السعادة مادام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الامكن غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقية وحسابات الربح والخسارة نعم هو ظافر اذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري — قطب رحى الكون ومحور الدهر — وليس بظافر اذا فعل غير ذلك وحقاً أن أول وسيلة تؤدي الى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شئ غيره صالح وهذا يا اخواني هو روح الاسلام وهذا هو أيضاً روح النصرانية والاسلام لو تفقهون ضرب من

النصرانية والاسلام والنصرانية يامرانا أن نتوكل على الله قبل كل شيء  
وان نفظم النفس عن الشهوات ونهوى القلب عن الهوى وان لانجمع  
في عنان المنى وأن نصبر على البث والاسى وان نعرف أننا لانعرف  
شيئاً وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يدا يضاء نعمة غراء ونقول  
الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ونقول « انا  
بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون »

فن فضائل الاسلام تضحية النفس في سبيل الله وهذا اشرف منازل  
من السماء على نبي الأرض نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل  
فانار ظلماتها هوضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران  
والهلاك وقد سماه محمد (عليه السلام) وحيا و«جبريل» وأينا يستطيع أن  
يحدث له اسما ألم يحىء في الانجيل ان وحى الله يهبنا الفهم والادراك ولا  
شك أن العلم والنفاذ الى صميم الامور وجواهر الأشياء لسر من أغمض  
الاسرار لا يكاد المنطقيون يلبسون منه الاقشوره وقد قال نوقاليس  
« أليس الايمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد اذ  
اشتعلت روحه بلبيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هي  
أهم ما يجب على الناس علمه لم يك الا أمرا بديها وكون الله قد انعم  
عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة وكونه قد أصبح مضطرا الى  
اظهارها للعالم أجمع — هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو  
الصدق الجلي والحق المبين

ويخيل اليها أن الصالحة خديجة أصغت اليه في دهشة وشك ثم آمنت وقالت « إى وربى انه لحق » وتوهم أن محمدا شكر لها ذلك الصنيع ورأى في إيمانها بكلمته المخلصة المقدوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت اليه من قبل فانه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا في اعتقاده ولقد قال نوفاليس « مارأيت شيئا قط أكد ليقينى وأوثق لاعتقادى من انضمام انسان آخر الى فى رأى » نعم انه لصنيع أغر ونعمة وفيرة وكذلك ما أفكك محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه حتى أن عاتشة - زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التى اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها - هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم « ألسنت الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحببى أكثر مما كنت تحبها . فأجاب محمد « كلا والله لست أفضل منها وكيف وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر ولم يك لى فى هذا العالم الا صديق واحد - وهذا الصديق هى » وآمن به مولاه زيد ( بن حارثة ) كذلك وعلى وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف الاجودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام الا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث آدب مأذبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم

خطيباً فذ كر دعوته وانه يريد أن يذيعها في سائر انحاء الكون وانها  
للمسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأبهم يد اليه يده وياخذ بناصره ؟  
ويبين القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على - وكان غلاماً في السادسة  
عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في أحد لهجة انهذاك النصير  
والظهير ولا يحتمل أن القوم كانوا منا بدين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته  
وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو علي ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه  
غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو  
الى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ولكن الأمر لم يك  
بالمضحك بل كان نهاية في الجدة والخطر ، أما علي فلا يسعنا الا أن نجبه  
وتعشقه فانه قتي شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً  
ويتلظى فؤاده نجدة وحاسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة  
ممزوجة بركة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب في القرون  
الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله  
حتى حسب كل انسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أمر في قاتله  
« ان أعش فالأمر الى وان أمت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضرية  
بضرية وان تعفوا أقرب الى التقوى » !

وكان في عمل محمد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الكعبة  
وخدمة الأصنام وانضم اليه منهم رجلان أو ثلاثة أو لولا بأس ونفوذ  
وسرى أمر محمد بيطء ولكنه سرعان علي كل حال وكان عمله بالطبع

سوء الوقع لدى كل انسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذي يزعم انه  
أعقل منا جميعا والذي يعنفنا ويرمينا بالحق وعبادة الخشب ! وأشار عليه  
أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده وان يكون له من نفسه ما يشغله  
عن العالم وأن لا يستخط القوم ويشتر غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته  
فأجاب به محمد والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن  
أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته كلا فان في هذه  
الحقيقة التي جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس  
ولا القمر ولا أى مصنوعات الطبيعة ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر  
برغم الشمس والقمر ما دام قد أراد أن تظهر وبرغم قريش جميعها وبكره  
سائر الخلائق والكائنات نعم لا بد من أن تظهر ولا يسعها الا أن تظهر  
بذلك أجاب محمد ويقال أنه «اغر ورقت عيناه» اغرورقت عيناه :  
لقد أحس من عمه البر والشفقة وأدرك وعورة الحال وعلم أنه أمر  
ليس بالهين اللين ولكننا أمر صعب المراس مر اللذاق

واستمر يؤدى الرسالة الى كل من أصغى اليه وينشر مذهبه بين  
الحبيج مدة اقامتهم بمكة ويستميل الاتباع هنا وهناك وهو يلقي  
أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرأ باديا  
وكامناو كانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة  
الى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم  
عليه فصبوا له الاشرك وثوا الجبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمدا بأيديهم

وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب وتعلمون أصلحك الله أن محمداً ليس بحاجة الى نرثي له ولجأه التكرام اذ ذلك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ولكن اعرفوا معي ان حاله اذذاك من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط فلقد كان يخشي في السهوف ويفر متكرراً الى هذا المكان والى ذلك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر تهدده الخوف وتتوعده الهلكات وتفغر له أفواها المنايا وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة — كاجفال فرس من أفراس اتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكن أمر محمد — ذلك الأمر العظيم ما كان ليتهى على مثل تلك الحال

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متالين عليه جميعاً وكانوا أربعين رجلاً كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ألفى المقام بمكة مستحياً هاجر الى يثرب حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبي وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقووم وسط صنخور وقفار ومن هذه الهجرة يتبدى التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد قرون أنه كان قد أصبح اذ ذلك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعراً وسديلاً قفراً وخطة نكراء موحشة فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحرماً ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيات أن يجد بارقات الأمل فيما يمدق به من عوايس الخطوب ويحيط به



من كالحات المحن والملمات وهكذا شان كل انسان في مثل هذه الأحوال  
وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط  
فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء إلى  
صوت ضميره وصيحة ليه حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم  
ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربي ولسان حاله  
يقول وأما وقد أبت قريش الا الحرب فلينظروا أي فتيان هيجاء نحن ا  
وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق  
وأبوا الا تماديا في ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون  
وينهبون ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ويأتون كل اثم ومنكر وقد  
جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا الاعتوا وطغيانا فليجعل الأمر  
اذن الى الحسام المهندو الوشيح المقوم وإلى كل مسرودة حصاء وسابحة  
جرءاء ا وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب  
وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق وكانت النتيجة ماتعلمون  
ولقد قيل كثير ا في شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس  
ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين  
لينتشر لولا السيف ولكن ماهو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك  
الدين وأنه حق والرأى الجديد اول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد  
فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هذا الفرد  
سيفا وقام في وجه الدنيا قلبها والله يضيع وأرى على العموم ان الحق

ينشر نفسه باية طريقة حسبها تقتضيه الحال أولم تروا أن النصرانية كانت  
لاتائف أن تستخدم السيف احياناً وحسبكم ما فعل شارلمان بقبايل  
السكسون وأنا لأحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم باية آلة  
أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار  
لندعها تكافح وتجاهد بايديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ما كان  
يستحق أن يهزم وليس في طاقتها قط ان تغنى ما هو خير منها بل ما هو  
أحط وأدنى فانها حرب لاحكم فيها الا الطبيعة ذاتها ونعم الحكم ما عدل  
وما أقسط وما كان اعتمق جذرا في الحق وأذهب اعراقا في الطبيعة فذلك  
هو الذي ترونه بعد المهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده  
أقول الطبيعة أعدل حكم بلى ما عدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم  
انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الأرض وربما كانت هذه  
الحبوب مخلوطة بقشوروتين وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقداء  
ولكن لا بأس عليك من ذلك والتى الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى  
في جوف الأرض العادلة البارة فانها لاتعطيك إلا قمحا خالصاً نقياً فاما  
القذى فانها تبلعه في سكون وتدفته ولا تذكر عنه كلمة وما هي الابرة  
حتى ترى القمح زاكياً يهتر كأنه سبائك الذهب الابريز والأرض الكريمة  
قد طوت كشحاً على الاقداء وأغضت بل انها حولتها كذلك إلى أشياء  
نافعة ولم تشك منها شجهاً ولا نصباً وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها  
فهي حق لا باطل وهي عظيمة وعادلة ورحيمة خنون وهي لاتشترط في

الشيء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم فإذا كان كذلك حتمه وحرسته  
أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه فترى لكل شيء تحميه الطبيعة  
روحا من الحق أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وأسفاه  
شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجيء فيها بعد؟ أعنى أن  
الحقيقة مزيج من حق وباطل نور في ظلام وتجيئنا الحقائق في أثواب من  
القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة  
صحيحة صائبة ثم لا بد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجوهرها  
فتموت وتذهب نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى  
أبد ويتخذ ثوبا أطهر ويدنا أشرف وما يزال يتنقل من الاثواب والابدان  
من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود سنة الطبيعة التي لا تتبدل نعم أن جوهر  
الحقيقة الكريم حتى لا يموت وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد  
الذي يعرض في محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق  
وصوت من أعماق الطبيعة؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء  
أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ليس الأمر الهام عند الطبيعة  
حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك هو أفيك أقدار وأكدار ام لا  
وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا أو بعبارة تشبيهية ليس  
السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا بل أفيك قح؟ أيقول  
بعض الناس أنه نقى إني أقول له «نعم نقى - نقى جدا ولكنك  
قشر - ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح وبمجرد اصطلاح

وعادة وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة  
والواقع إنك لانتقى ولا غير نقى وإنما أنت لاشيء والطبيعة لاتعرفك  
ولإنها منك براء.

نحن سميना الاسلام ضربا من النصرانية ولو نظرنا إلى ما كان من  
سرعه إلى القلوب وشدة امتزاجه بالفوس واختلاطه بالدماء في العروق  
لأيقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التي كانت اذ ذاك في الشام واليونان  
وسائر تلك الأقطار والبلدان - تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس  
بضوضائها الكاذبة وتترك القلب يطلاتها قفرا ميتاً على أنه قد كان فيها  
عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا ويفضله فقط آمن الناس بها وحقا  
إنها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الاصلاح ولكنها ضرب  
حتى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب  
اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم - نظر ابن  
القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجليلة إلى لباب  
الامر وصميمه فقال في نفسه الوثنية باطل وهذه الاصنام التي تصقلونها  
بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لاتضر ولا تنفع وهي  
منكر وفضيح وكفر لو تعلمون إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده  
لا شريك له خلقنا وبه حياتكم وموتكم وهو أرف بكم منكم وما أصابكم  
من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية  
لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به وإن ما أودع هذا الدين  
من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به وهذا الشيء  
هو روح جميع الأديان - روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة وهي  
في الحقيقة شيء واحد وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان اماماً كبيراً لهذا  
المعبد الأكبر - الكون - جارياً على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه لا محال ولا  
عبثاً أن يقاومها ويدافعها ولم أعرف قط تعريفاً للواجب أحسن من هذا  
والصواب كل الصواب في السير على منهاج النيا فان الفلاح في ذلك (إذ كان  
منهاج النيا هو طريق الفلاح): وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق  
الجدال وتتخاطب بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر أما انه الأهم  
ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن اتجاها وانما هو أن خلق الله وابتداء  
آدم يعتقدون تلك الحقائق السبرى لقد جاء الاسلام على تلك الملل  
الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يتلعها لانه حقيقة خارجة من قلب  
الطبيعة وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات  
النصرانية وكل ما لم يكن بحق فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب  
والنار لم تذهب

أما القرآن فان فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل  
على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب بأكثر  
جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لا أعجب اذا قلت ان الأوربي يجد

قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها فقارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملائمة ولأن لا ترجمة ذهبت بحسنه ورويقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه اتقى النصارى لا يجيلهم وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ومصدر احكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئارة به في غياهب الحياة وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاعلى التوالى وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرنا في كل آن ولحظة ويقال أن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة!

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان وإذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أئمة سامعيه وقارئييه وقد زعم «براديه» وأمثاله انه طائفة من الأعداء والتراويق لفقها محمد لتكون اعدارا له عما كان يرتكب ويقترب وذرائع لبلوغ مطامعه وغايته ولكنه قد آن لنا أن نرفض

جميع هذه الأقوال فاني لامقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الاكاذيب  
وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل  
والقرآن لو تبصرون ما هو الاجرات ذاكيات قدقت بها نفس رجل كبير  
النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات وكانت  
الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتراحم في صدره حتى لا تكاد  
تجد مخرجا وقل مانطق به في جانب ما كانت يجيش بنفسه العظيمة  
القوية هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفع الخطوب يعجله عن روية القول  
وتنميق الكلم وياله من خطوب كانت تطيح به وتطير فلقد كان في  
هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمت  
متصادمات وعالم كله هرج ومرج وقن ومحن — حروب مع قريش  
والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهياج نفسه وثورانها — كل ذلك جعله في  
نصب دائم وعناء مستمر فلم تنق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة  
قط وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهي تتملح طول الليل الساهر  
يظفوبها الوجد ويرسب وتدور بها دومات الفكر حتى اذا أسفرت  
لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهيم به  
يخاله جبريل ووحيه أيزعم الافاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال كلا  
ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر ينفور  
ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ لقد كانت حياته في نظره حقا وهذا  
الكون حقيقة رائعة كبيرة

والإخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته إلى العربي المتوحش وهي أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهي منشأ فضائل غيرها بل لأشئ غيرها يمكنه ان يبعث للكتاب فضائل أخرى ومن العجب ان نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجري فيه من بدايته الى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم أجل لقد كان لمحمد في شؤون الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع في اذهاننا كل ما أبصره ذهنه أنا لا أحصل كثيرا بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها في الانجيل شبيهاً ولكنى شديد الإعجاب بالنظر الذى ينفذ الى أسرار الامور فهذا اعظم ما يلذنى ويعجبنى وهو ما أجده في القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتية من يشاء .

وكان محمد اذا سئل ان يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة انظروا الى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كإرد اسود ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخيلاً وأعشاباً أليس ذلك آية والأنعام خلقها لكم تحول الكلاء لبنا وهي نحر لكم والسفن - وكثيرا ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها



ومحتفز في سواء اليم لها حد من الريح وبيننا تسير اذا هي قد وقفت  
بغثة وقد قبض الله الريح . معجزات والله كل هذه وأى معجزات  
بعدها تريلون ألسنم أتم معجزات ؛ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم  
تكونوا ابدا ثم لكم جمال وقوة وعقل « ثم وهبكم الرحمة أشرف  
الصفات ، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون  
فتصبحوا غير موجودين « ثم وهبكم الرحمة ، لقد ادهشتني جدا هذه الجملة  
فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فاذا كان يكون أمرهم ! هذه من  
محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية  
كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال وأتئين فيه عقلا  
راجحاً عظيماً وعيناً بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لوشاء  
لكان شاعرا فخلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أى صنف من  
أصناف البطل

نعم لقد كان العالم في نظره معجزة اى معجزة وكان يرى فيه كل  
ما كان يراه أعظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة وهو أن هذا  
الكون الصلب المسادى انما هو فى الحقيقة لاشىء - انما هو آية على  
وجود الله منظورة ملبوسة وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لاغير  
وكان يقول هذه الجبال الشاخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتغنى  
وكان يقول الجبال أوتاد الأرض وانها ستغنى كذلك يوم القيامة وان  
الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء

مشورا فتعدم وكان لا يزال واضحاً لعينه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورويق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة وهذا ما يسميه علماء العصر القوي والمادة ولا يرونه شيئاً مقدسا بل لا يرونه شيئاً واحداً وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل في تسيير السفن البخارية فسرعان ما تنسينا الكيمويات والحسابيات ما يمكن في الكائنات من سر الله وما أخش ذلك النسيان عاراً وأكبر هذه الغفلة اثماً. وإذا نسينا ذلك فأى الامور يستحق الذكر اذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية بقلة ذابلة نعم وما أحسب العلوم لولا ذلك الا خشباً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة المتتفة التي لا تبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أولاً الى العبادة أعنى أنه لا علم الا لمن عبد والا فما العلم الا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة

وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الاسلامي وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً فان الذي أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جارياً متبعاً لدى العرب من قديم الأزل وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان في امكانه أن يجعل والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين وكيف ومعه كل ما تعلقون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة واقامة الصلاة خمساً في اليوم

والحرمان من الخمر وليس كما يزعمون كان نجاح الاسلام وقبول الناس  
إياه لسهولة لآته من أخش الطعن على بنى آدم والقدرح فى اعراضهم أن  
يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واثيان الجسائم هو طلب الراحة  
واللذة — إلتماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة اكلا فان أحسن  
الآدميين لا يخلو من شىء من العظمة والجلائل فالجندى الجاهل الجلف  
الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر ينحس له مع ذلك «شرف»  
يحلف به فتره لا يبرح يقول: لافعلن ذلك وشرقى: وليست أمنية أحقر  
الآدميين هى أن يأكل الحلو بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلاً محموداً  
ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم ليعمد أيكم الى أبلد إنسان فير به سيبل  
المكرمات والمحامد فاذا هو قد تأجج قلبه حماساً واتقدت نفسه غيرة وصار  
فى الحال بطلا وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم انه ميال بفطرته الى  
الراحة وانه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة إنما مغريات الانسان  
وجاذباته هى الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل أقدر ما بنفس  
المرء من زناد الفضل تلك ناراً تحرق سائر ما فيه من الحسائس والتقائص  
وما كان قط اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذتقبل  
لما يثور فى قلوبهم من دواعى الشرف والعظمة  
وما كان محمد أخا شهوات برغم ما أتهم به ظلماً وعدواناً وشد ما تجور  
ونخطىء إذا حسبناه رجلاً شهوياً لاهم له الا قضاء مآربه من الملاذ — كلا  
فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه

وما كله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز  
والماء وربما تابعت الشهور ولم توقد بداره نار وانهم ليدكرون - ونعم  
ما يدكرون - انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة  
ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم  
النهار ساهر الليل دثباً في نشر دين الله غير طامح الى ما يطمح اليه أصاغر  
الرجال من رتبة أودولة أو سلطان غير متطلع الى ذكر أو شهرة كيفما كانت  
رجل عظيم وربكم والا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيرا  
واحتراماً واكباراً واعظاماً وما كان يمكنه ان يقودهم ويعاشرهم معظم  
أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاثلون بين يديه ويجاهدون حوله  
لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة وكانوا حماة  
الأنوف اباق الضيم وعر المقادة صعب الشكيمة فمن قرع على رياضتهم وتذليل  
جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا  
فيه من آيات النبيل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وكيف وقد كانوا  
اطوع له من بنائه وظنى أنه لو كان أتبع لهم بدل محمد قيصر من القياصرة  
بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه  
المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال!

وكانت آخر كلماته تسديحاً وصلابة - صوت فؤادهم بين الرجاء  
والخوف أن يصعد إلى ربه ولا نحسب أن شدة تدينه أزرته بفضلته  
كلا بل زادته فضلاً وقد بروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين

رزى غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول مايسخط الرب :  
ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) في غزوة «مؤتة» قال محمد لقد  
جاهد زيد في الله حق جهاده وقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه ولكن ابنة  
زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها - وجدت الرجل الكهل  
الذى دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً فقالت «ماذا ارى» قال  
«صديقاً يبكي صديقه» مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا  
الانسانية الرحيم - أخانا جميعا الرؤوف الشفيق وابن أمنا الاولى  
وأبينا الاول

وإني لأحب محمدا لبرائة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن  
القفار هذا رجلا مستقل الرأي لا يعول الا على نفسه ولا يدعى ماليس  
فيه. ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا. فهو قائم في ثوبه  
المرقع كما أوجده الله وكما أراد. يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم  
وأكاسرة العجم يرشدهم إلى مايجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة.  
وكان يعرف لنفسه قدرها. ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له  
مع الاعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة  
وكرم وغفران. وكان محمد لا يعتنر من الاولى ولا يقتنر بالثانية.  
إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه  
بالمتم ولا شعوره بالظنين. وكان رجلا ماضى العزم لا يؤثر عمل اليوم  
إلى غد. وطالما كان يذكر يوم «تبوك» إذ أبى رجاله السير إلى موطن

القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : الحصيد : انه لا يلبث الا يوما . فماذا تزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم انه حر ولكن جهنم أشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية . إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب وهو . بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسالة فناء وبقاء . ولم يك منه ازامها الا الاخلاص الشديد والجد المر . فاما التلاعب بالاقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندي أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق . وعيشة المرء في مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الانسان هو أن جميع أقواله وأعماله ا كاذب بل انه هو نفسه ا كذوبة . وأرى خصلة المرومة والشرف — شعاع الله — متضائلا في مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل كاذب لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشي الكلام محترم في بعض الازمان والامكنة . لا تؤذيك بادرته لين المس رفيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما تقيعا . وموتا ذريعا . وفي الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الارض والناس في الاسلام سواء . والاسلام لا يكتفي

يجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم . وقاعدته من قواعد الاسلام ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل . فتكون جزأ من أربعين من الثروة . تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا وما هو الا صوت الانسانية - صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل - ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب فان القرآن قد أقل جد من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار وكل ما فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى أحقوها بالجنة ولا عذاباً بدنياً وألما جثامياً حتى أسندوه الى النار ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانياً اذ قال « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما في نظر كل عاقل أقصى أمان المرء وأعظم الملاذ قاطبة والشئ الذي عبثا يلتمسه الانسان في الحياة الدنيا وقال أيضاً « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » وأي رذيلة أخبث من النل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات وأي شئ أهنا من التآلف والتصافي ؟

وأي دليل أشهر ببراة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو

ان تذلل النفس لجبار الشهوات وتتقاد لحادى الأوطار والرغبات ولعل امجد  
الحصائل وأشرف المكارم هو أن يكون للبرء من نفسه على نفسه سلطان وان  
يجعل من لذاته لاسلاسل وأغلالا تعييه وتعناص عليه اذا هم أن يصدعها  
بل حلياً وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها  
وكنذك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معيناً أو كان وحى  
الغريزة وإلهاماً فطرياً فهو والله نعم الأمر

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين همار من لحقيقة أبدية  
لم تصادف من حسن الذكر قط مثلاً صادفت فى القرآن وماذا ترون تلك  
الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها ديوم ترونها  
تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس  
سكارى وما هم بسكارى ، ماذا ترون كل هذه إلا ظلال تمثل فى خيال ذلك النبى  
الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أغنى الواجب وجسامته  
أمره لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل انسانى  
مهما حقر خطاؤه كبرى فما كان من سىء فله من السوء نتيجة أبدية وما كان  
صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية وان المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى  
عليين ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين وان على عمره القصير تقوم دعائم  
أبدية هائلة خفية كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما  
قد نقش ثمت باحرف النار وكل ذلك قد حاول فى أشد اخلاص وأحد  
جد أن يخرج للناس ويصوره لهم فاخرجه وصوره فى صورة تلکم النار



والجنة وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية وفيه للبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلىها فأعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ولقد مضى عليه مئتان والى عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات اقتدتهم ولا أحسب أن أمة من النصراني اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم - إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والابد وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة احد المارة « من السائر » فيجيبه السائر « لا الله الا الله » وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل واطراف النهار فى ارواح تلك الملايين الكشيفة وان الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم ما يفعلون

ولقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور واحيى به من العرب امة هامة وارضاهامدة وهل كانت الاقمة من جولة الاعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فارسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فانا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعفة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الانحاء وعم ضوئه الارحاء وعقد شعاعه الشمال

بالجنوب والمشرق بالمغرب وما هو الاقرن بعد هذا الحادث حتى  
اصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس واشرقت دولة  
الاسلام حقبا عديدة ودهورا مدينة بنور الفضل والنبيل والمروءة  
والبأس والنجدة وروثق الحق والهدى على نصف المعمورة وكذلك  
الايان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة وما زال للامة رقى في درج  
الفضل وتعريج الى ذرى المجد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان  
ألستم ترون في حالة اولئك الاعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت  
من السماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى  
فيها خير فاذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ميت واذا هي قد  
تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى ولطالما قلت أن  
الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالخطب فما  
هو الا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا

---

## المحاضرة الثالثة

### البطل في صورة شاعر

دائى — شاكسبير البطل في صورة إله والبطل في صورة نبي هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك أبدا وهما يدلان على جفاء في الفكر وغلظة في الفهم يحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والاعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه لها أو ناطقا بصوت إله إلا إذا كانوا عاشرين في عصر خال البتة من الأوضاع العلمية الطبيعية نعم لقد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وابهة وان لم تك أقل فضلا وحقا أعنى صورة الشاعر والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها

بطل نبي شاعر — الى غير ذلك من شتى الاسماء نعطيها للرجل العظيم فى شتى الازمان والامكنة وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق وحسب ما برعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم وعلى هذه القاعدة يمكننا ان نعطي كثيرا من الاسماء غير ذلك وانى لا وبقن بانى لا أحسب أن هناك رجلا عظيما لا يمكنه أن يكون عظيما فى كل فن فالشاعر الذى لا يستطيع إلا أن يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه أن ينظم

قصيدة بارعة ولا احسبه يجيد صفة الفارس الأروع إلا إذا كان هو نفسه فارساً أروع ولا أحسب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع في نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف وأنه قد كان يمكنه أن يكون بل هو بالفعل — كل هذه ثم لأفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل «ميرابو» صاحب القلب الكبير المتوهج المتأجج ناراً المفعم دموعاً أن يكون شاعراً ينظم القصيد والمبقيات التمثيلية والمقطعات فيقرعها القلوب والاكباد لو قد ساقته الاحوال والاسباب الى ذلك والامر الاولى الجوهرى هو أن يكون الرجل عظيماً وان فيما قاله نابليون لكلمات لاتقل قيمة عن اكبر وقاعة وقد أذكر قواد لوزير الرابع عشر فيخيل الى أنهم كذلك شعراء وأن فى كلمات القائد «تورين» مايمائل أقوال «سامويل جونسون» حكمة وبلاغة فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل وما كان لامرىء قط أن يحل ويعظم بغيرهما أو لاتذكرون أن الشعارين «بترايك» و«بواكاشيو» كانا يقومان باعمال سياسية فيحسننا القيام بذلك! أم لانهسبون أن الشاعر «بارنز» لو قد جعله الله مكان «ميرابو» لآنى مالم يستطعه ولا نعلم أى عمل من الأعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند اليه

ولست أنكر أن لكل أمرىء طبيعة خاصة واستعداداً فطرياً وأن هنالك فروقا فى الغرائز ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر وأكبر وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر إلا كاصاغرهم فانك لتناول الطفل

الممكن تصديره أى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجارا أو بناء ومثى  
أصبح هذا أو ذاك بقى كذلك طول عمره واذ كنا لانزال كما قال «اديسون»  
نجد الرجل الاعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء  
تحت ثقله الفادح وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح  
كانه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لا يحمل الا خيطا و ابرة يخف  
محملها على النملة علمنا أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى  
وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف — أى صير غازيا أم  
سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ انها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين  
العالم ! وما عليه الا أن يقرأ العالم وقوانينه والعالم وقوانينه صحيفة  
منشورة أمامه ومالدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى  
شأن الرجل العظيم

ان بين الشاعر وبين النبي فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا ولقد كان  
مدلولها فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة «فاتيس» معناها شاعر  
أو نبي والحقيقة انه مازال بين النبي والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب  
وما برح جوهرهما واحدا من حيث ان كليهما ينفذ بصره الى سر  
الكائنات المقدس . أو مايسميه «جائى» السر الجلى لكل انسان ولا  
يكاد يراه مع ذلك انسان . السر الالهى الكائن فى كل كائن — المستقر فى  
باطن «الظاهر» كما يقول «فيشتى» — السر الذى ما جميع الظواهر من  
النجوم الزاهرة الى الرياض الناضرة الى ظواهر الانسان وأفعاله الاثوب

له وبدن يتراعى فيه ويظهر نعم السر الالهى فى كل زمان ومكان موجود ولا ريب وربما أغفله الناس فى معظم الأوقات والجهات اذ يحسب الكون الذى هو «فكر الله المحقق» شيئاً عادياً تافها هامداً تماماً هو شئ جامد تولى صنعه النجار والحداد ولا داعى هنا للاكثار فى ذلك الموضوع ولكنى أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به بل ويل لهم وأسف عليهم ويابؤس للحياة اذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولكن أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله فان «الفاتيس» أعنى الشاعر او النبي باحدى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ولكنه نفذ اليه بصيرته وانما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض هذه هى ابداء رسالته الى الناس أن يجلو لنا غامض السر — ذلك السر الذى هو اليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق فاذا نسوه فقد ذكره مسوقاً الى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه عائشاً فيه من حيث لم يرد ولم يشعر فهو ليس بتايح لمعتاد القول ولكننا رجل نظارة مبتدىء محقق فهو لا يستطيع الا ان يكون مخلصاً ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق المجتهد فى الله الجاد فى شؤون الحياة والكائنات ولو عبث العالم طراً فالإخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته وهكذا يشترك الشاعر والنبي فى ادراك سر الله الجلى فهما من حيث ذلك واحد

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبي قد تناول هذا السر المقدس

من وجهة الخير والشر — المحذور والمباح وتناوله الشاعر من وجهة  
الجمال والحسن والجلال وما شاكل فأحدهما الهادى الى مانفعل وثانيهما  
الدال على مانعشق على أنهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان لا يمكن  
الفصل بينهما وفصم عروتهما ولا يخلو النبي أيضاً من تتبع الجمال  
إيان كان والا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا اتيانه ولقد جاء في  
التوراة — وهو قول نبي — آية جديرة أن تحسب كأبداع مانظم شاعر  
وهي «انظر الى زهر الرياض فانك لاتراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج  
وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن مالم يكسه سليمان  
فيريحان سلطانه» أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة الى أعمق أعماق  
الجمال؟ «زهر الرياض» — رافل من فنون ألوانه في أفتش من مطارف  
الامراء وآق من حلل الملوك وهي بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب  
المتطامن كأنها عيون الملاح ترنو اليك من خلال بحر الجمال الباطن وهل  
كان للأرض أن تصوغ هذه الازهار لولم يكن الجمال جوهرها رغما من  
ظاهاها الجعد المتلبد ومن ثم قال «جيتا» قولا استنكره الكثيرون  
وهو «الجمال أفضل من الخير والجمال يشتمل على الخير وأكثر» وانما  
قصد الى الجمال الحق الذى يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة  
غابات «بولونيا» وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبي

قليل فى شعراء الاعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين  
قد بلغوا الغاية القصوى وهذا القول وأيم الله ان كلن ظاهره الصدى

فهو في الواقع اخدوعة اذ الحقيقة أنه ليس في جميع الشعراء كامل وإنما الشعر عرق يجري في طبيعة كل امرئ لا يخلوا منه فرد وكل انسان يجيد فهم قصيدة فهو اثناء قراءتها شاعر وما الفؤاد الذي يرتاع لتلاوة جسيم «دانتى» الا من طينه فؤاد ذلك الشاعر وان كان بعد أقل شاعرية ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة — حكاية الشاعر «ساكسو جراماتيكاس» ولكنه ليس من انسان الا ويستطيع أن يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداء بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه وأرى التعريفات كلها اختيارية ذوقية مالم يكن هنا لك فرق محدود كما بين المربع والدائرة فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله حتى نصح أمره بينهم كالغرة في الفرس البهيم والأبلق وسط الدم كان جديراً أن يسموه شاعراً وكذلك شأن انتقادهم أكبر شعراء العالم فان من رأوه من الشعراء قد برز في مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق في سماء الخيال حتى علا النظراء أجمعوا على اجلاله وسموه شاعراً عاماً على أن مثل هذا الحكم ليس في الحقيقة الا مسألة ذوق ورأيا خاصة فان في جميع الشعراء بل في جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء ثم لاحتسبن أن الاعاظم الأفضلين منهم: أمثال شاكسبير وهو ميروس: الإملاقين من النسيان حظوظهم ولا بد من يوم يصبح أمرهم فيه نسياً منسياً



ولسائل ان يسأل أى فرق هناك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى فالأجوبة على ذلك كثيرة ولا سيما ما كتبه نقاد الالمان فى ذلك الصدد وفيها الذى لا يفهم لاول وهلة فمن ذلك قولهم ان الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ثم هو ينفض هذه الخاصية أعنى عدم النهاية على كل شىء يصفه أو يصوره فهذا الكلام وان لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر إذ كان إنما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر ثم هو لا يخلو من بعض المعنى إذا توهم وتدبر أما أنا فأتى أجد معنى جمافى التعريف القديم للشعر وهو أنه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى هو ضرب من الغناء وحقاً لو اضطرب الانسان إلى اعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزاً ذلك التعريف القديم فاذا كان نظمك موسيقياً لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة وفى جميع الافكار والمعانى والنظام والنسق فهو شعر والافلا والمعنى الموسيقى هو ما إذا خرج من ذهن نفذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره أعنى النعمة الكامنة فى جوفه — أعنى ما يستسر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقى الائتلاف والوئام — من ذلك الموسيقى الذى ليس الا بفضلها يوجد ذلك الشىء ويكون أهلاً لأن يوجد فى هذه الدنيا ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى أعنى أنه اذا بدا للناس بدا فى منطق موسيقى أى بدا فى صوت الغناء وانى أرى معنى الغناء عويصاً عميقاً اذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان والغناء ضرب من الكلام المستجيب للنطق والمنتهاهى العمق الذى

يذهب بنا الى شواطئ المجهول فيتركنا ننظر برهة في ذلك البحر !  
أجل أن في جميع الكلام حتى في أكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء  
وليس ثمة قرية في العالم مها حقرت الا ولاهها لهجة قد خص بها  
منطقهم وكلامهم — فهذه اللهجة هي النعمة التي يعنى بها أولئك القوم  
ما يقولونه من الكلام ! نعم أن اللهجة ضرب من النشيد والترنم وما من  
قوم الا ولهم لهجة خصوا بها وان كانوا لا يفطنون الا للهجات غيرهم  
ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فانه يلبس بطبيعته ثوبا  
موسيقيا بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء وهكذا كل لباب  
وصميم وشيء عميق فهو غناء بل يظهر لي أن الغناء هو لبنا الجوهرى وأن  
كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فانما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم  
الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء ولقد كانت اليونان تقول في  
خرافاتهما أن للفلك في مسيره موسيقى ولعل ذلك كان دليلا على ما كانوا يشعرون  
به من تركيب الكائنات الباطنى ونظامها الداخلى وان روح أصواتها  
وتعبيراتها لم يك الاغناء وموسيقى وعلى ذلك فسندسى الشعر: فكراً  
موسيقياً: والشاعر هو ذلك الذى يفكر على هذه الصورة وأساس ذلك  
هو في الحقيقة قوة الذهن وانه الاخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان  
يجعلان المرء شاعراً أنظر الى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقياً فان قلب  
الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك أن تنفذ اليه  
ويظهر لي أن الشاعر — كاشف أسرار الوجود بنغماته — ينزل منى

نفوس الناس منزلة منحطة جدا عن منزلة النبي اذ يرون عمله تافها  
ووظيفته صغيرة فكان البطل عندهم أولا الهائم نيا ثم شاعرا أليس  
في ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم في أنظارنا على توالي الزمن فانا  
نراه أولا الهائم ذا وحى الهى ثم لانرى فيه بعد ذلك الاناظم أشعار جميلة  
ورجلا نابغة وبارعا وما أشبه ! هذا هو الظاهر لى ولكنى أحمل نفسى على  
الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك شعور أنى بانه لا يزال فى بنى آدم  
الاجلال المفرط — لم ينقص مثال ذرة للعظمة والبطولة فى آية هيئة بدت  
وأى اسم أعطيت

وقد أعلم أنه اذا كنا الآن لانرى فى الرجل العظيم الها ولا نبيا فما ذلك  
ان رأينا فى الله وفى ينبوع الضياء الاقدس الاعلى ومنبع العظمة والعقل  
الافر الا وفى قد اتضع وخابل بالعكس لأنه قد سما وطاب وجدير بكم  
أن تعوا ذلك وتذكروه ولا أنكر أن الشك والكفر والاستخفاف  
آفات هذه العصور قد أحدثت ضررا عظيما فى هذا الأمر الاجل الاعلى  
باضعافها فى نفوس الناس اجلالهم للبطل حتى أصبح معظمهم ينكرون  
وجود العطاء المستحقين للاجلال وهذه وايكم الآم العقائد وأنكاهها وأوحها  
مغبة ولن يكون مع اعتقادها الا اليأس المطلق من الانسانية وسائر أمورها  
وأشائها ومع كل ذلك فانظروا إلى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من  
جند المدافع هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة  
رجالها وتقديسهم إياه ما لم يصبه كثير من الانبياء وجبايرة الملوك ثم

انظروا الى الشاعر بارنز كيف كان اذا أطرده به مجرى الحديث استوقف  
الأميرات وخدم الاصطبلات بسحر بيانه فلم يبق منهم الا من شعر بأن  
لذلك الرجل فتنة وجمالا لم يروهما لأحد غيره وانه هكذا تكون الرجال  
والا فلا افترون من ذلك انه قد كان يكمن في قلوب هؤلاء القوم وان لم  
تصرح به ألسنتهم ويلبغ من خلال حركاتهم وان لم يظهر ساطعاً جلياً  
انهم كانوا يرون عظمة وقوة وجمالة لا يجدونها لسائر الرجال في ذلك  
الفلاح الكفيف الحاجبين الوقاد المقتلين صاحب الكلمات التي تستوكف  
الأعين تارة بهوامر الدموع وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع  
اولا نشعر نحن أيضاً بذلك؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من  
ادران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل  
الله ذلك يوماً ما — نعم لو أبدلت القلوب من رذيلة الايمان بالمظاهر  
الكاذبة فضيلة الايمان بالجواهر الصادقة اذن فاي منزلة تكون لمثل  
الشاعر بارنز في نفوسنا وأي محبة واكبار وتمجيد

وعلى كل ذلك ألا ترون أن لدينا شاعرين هما وان لم يتالا منزلة  
الألوهية فقد نالا في هذه العصور على ما بهما من رذائل الاستخفاف والتكران  
والشك منزلة التقديس والولاية نعم ان شا كسبير وداتي لوليان من اولياء  
الشعر حرام على كل انسان أن ينال مقامهما الشريف بأذى اساءة وهذه  
نتيجة وصل اليها العالم بالالهام والفترة رغماً بما قام في طريقه من ظلمات  
الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر ويفصل هذين الشاعرين من

الزمن مسافة قصية وكلاهما قائم في فضاء الدهر كراهب في فضاء  
القفر له مملكة من الوجدة ودولة من الوحشة غريب في جيله وقومه .  
غربته العلي على كثرة الأله ل فاضحي في الاقربين غريباً  
لامثيل لهما في سائر الشعراء تباركا عن الانداد والاقران يحفهما في  
نظر العالم نور من الجلال ورويق من الكمال فهما مقدسان وان لم يتول  
تقديسهما بطارقة وقسوس وهكذا ترون كيف ان ما أودع نفوس البشر  
من فطرة اجلال البطل ما يزال يحيى في قلوبهم برغم انتشار السخرية  
والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر وسنلقى نظرة في تاريخ  
هذين البطلين

لقد ألفت عدة تراجم لذاتي وجملة حواشٍ وشروح لكتابه ولكنها على  
العموم قليلة الثمرة أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه وقد فقد معظمه حتى  
لا يمكن تداركه لم يك ذاتي في زمانه الا رجلاً صغير الشأن شريداً  
طريداً مكسور الفؤاد مريض الجناح قليلاً اهتمام الناس به مدة حياته وأسوأ  
من ذلك ان معظم أبناء ذلك الخمول والبلاء تراها على علاقتها قبادت على عمر  
خمسة قرون وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح فكتابه هو  
جل ما نعرفه عنه كتابه وصورته المنسوبة الى المصور « جيوتو » التي إما  
نظرت اليها لم يسعك الا الشهادة لصانعها بالاحسان والاجادة أيا كان أما  
أنا فأرى ذلك الوجه أسس الوجوه لكبدى وأقرعها لأحشائي وأرى آية  
الحزن والالام وآية الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادي في رقعة

المصور منفردا وحيدا لا يحفه شيء من الأناث والمتاع الا ما يرفرف عليه من روح الوحشة أرى كل ذلك عنواناً على تاريخ ذاتي ! وظنى أنه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه مخزن مفتت للقواد أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان لا كما تكون في الرجل بل كما تكون في الطفل ولكن قد خالط هذه المعاني الرقيقة معان أفسى وأمر معاني وحشة وسنخط وألم في نجد وتعزز ويأس في رفعة وكبرياء روح رقيقة هواء قد لبست آية اليأس والقسوة والاستبداد والعبوس والا كفهرار كأنما تنظر اليك من وراء سجن من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقارا وازدراء — لا كازدراء الأناث بل كازدراء الآلهة — للشيء الذي يذيب حشاه ويأكل فؤاده — كأن ذلك الشيء هو أحقر ما يكون وأدنى وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشيء وان كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب إنما هو وجه رجل منابذ للدنيا مناصب لها معارص لأحكامها قد صب عليها غارة شعواء وأقام لها من الحرب سوقا بضاعتها أبدا نافقة ورحى ماتبرح العمر دائرة وهل هي إلا محبة تحولت حنقا — لا يفتر ولا يستريح — متمهلا مطردا ساكتا كحقي إله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خاق الله الدنيا على هذه الصفة ؟ هنا هو ذاتي هذا هو صوت عشر قرون خرس هذا هو الرجل الذي صدح لنا صوتا عن الجحيم والجنة ! وأرى هناك مطابقة بين ما نعرفه عن حياة ذاتي وبين صورته وكتابه

ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من أعمال إيطاليا في عام ١٢٦٥ وعلم وثقف على أحسن نظام كان اذذاك وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتيني — وقدم راسخه في بعض أبواب العلم ولم يدع داتى فيما نظن شبتاً يتعلم حتى حصله وكان ذافهم صفى مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح وكان قد أتقن من العلم ماجاء في الازمان القرية من عصره فاما مابعد عنه في أقاصى الغابر فلم يجد اليه سييلا لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل وسلك في حياته المذاهب المعنادة فصحب جيش بلاده في حريين وذهب مرة سفيرا إلى بعض الولايات وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكاير وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وكان قد عرف في طفولته صبية حسناء في مثل سنه ومنزلته وكان يراها أحيانا وكانت تمتد بينهما صلاة على بعد وكلكم يعرف ما كان من أمره معها وما كان من الشتات والفرقة ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل وهى تشغل جزءا عظيما من كتاب داتى ومن حياته أيضاً ويظهر لى أنه لم يجب قط غيرها انسانا وكان جبا من صميم الأحشاء وان فواده ما برح ينجيها والقبر ما بينه وبينها وينزع اليها وهى مع الله ماتت وزوج من امرأة أخرى ولكته لم يسعد وشتان ما بينه وبين السعادة

..... ولسنا متوجعين لباتى آسفين لما أصابه فانه لولا تلك المصائب لما كان داتى إلا أحد قضاة بلده ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما

تغنى به نعم لقد كان يزيد قضاة «فلورنس» واحدا ولكن العشرة  
القرون الخرس كانت تستمر على خرسها والعشرة القرون التالية المصيعة  
(لانه سيتم طبعا بعد تاريخ وفاة داتى عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك  
القصيدة الرائعة — كتاب داتى وتخسر لذيذ مسموعها ! نعم لا أسف  
ولا حرقة ولا حسرة وكيف وانما أراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف  
واسمى ولعلنا لا نعرف أيهما الاسعد الأهنأ — عيشته تلك المرة الاليمة  
أم عيشا هادئا عاديا والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعنى به البشر  
وكلمهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل

وبينا داتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاء اذ ثارت فتنة أدت الى  
نفيه وسائر حربه فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل وانترعت  
املاكه واصبح وهو

ناء عن الاهل صفر الكف منفرد كالسيف عرى متناه عن الخلل  
وكان يشعر وفى حشاه جمرة تتوقد بان مالمقيه من أخش الظلم  
وأفزع الجور وحاول جهده أن يرجع الى وطنه وثروته ولم يدع وسيلة  
الا اتخذها حتى السلاح ولكن عبثا حاول وما زاده اجتهاده الا خطبا  
على خطب ومحنة فوق محنة فاهدر دمه ونودى متى قبض عليه أعدم  
احراقا هكذا وجد فى بعض الآثار وألقى أيضا رسالة تاريخها واقع  
بعد هذه الحوادث بعدة سنين ردا من داتى على اقتراح قدمه اليه قضاة  
بله يعدونه العفو والعودة الى منصبه وأملاكه اذا هو قبل ان يقدم



معذرة وغرامة فاجاب في عزة وكبرياء « اذا انا لم ارجع برى الساحة  
موفور الكرامة فلا رجعت أبدا »

وكذلك راح ذاتي في هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل  
من مضيف الى مضيف ومن محل الى محل منطبقاً عليه قوله « آه ما  
أوعر المسلك وما أخشن الطريق! » ولم يك ذاتي بالجليلس الممتع  
وانى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال كلا ولا كان  
ذاتي صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجاد والاحزان والاشجان بجدير أن  
يلهى الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرتة وقد روى عنه بترارك انه  
لما كان في بلاط الأمير « كانديلا سكالاً » وقد لاهه ذلك الأمير على  
اطرافه واكتابه وصمته اجابه بجواب خشن وكان الأمير اذ ذاك وسط  
بجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوارد فاقبل على ذاتي يقول له  
« أليس عجيباً ان نرى ذلك الماغن المسكين يجتهد ليجعل في مقاله متاعاً  
ولنة وأنت على مابك من عقل وحكمة تطوى اليوم فاليوم والشهر فالشهر  
مطرقاً صامتاً لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال ذاتي  
« لا عجب أو لا تذكر المثل : ان الطيور على اشكالها تقع ، فمثل هذا الرجل  
الكبير صاحب الأجوبة المسكتات والكلمات الموجعات والصمت  
والاطراق لم يك بمن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك و كذلك ما زالت  
الأيام بلدتي حتى افهمته انه اصبح ولا ماوى له على ظهر الأرض ولا

ملاذ ولا ملجا ولا أمل وان الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب في  
أنحاءها شريدا

كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض ينزعه  
وانه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له أو حشا يخفق  
وجدا عليه وانه لا لخل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء.

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجاقت جنح بالطبع الى الآخرة  
وتوجه وامتلاء خياله بصورة العالم الابدى — ذلك العالم الحق الذى  
ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها الا ظلا كاذبا يرفرف عليه  
وناجته نفسه: أما وطنك «فلورنس» فلست ناظرا آخر الأبد واما  
الجحيم والجنة فسوف ترى! وماذا وطنك والامراء وماذا العالم والحياة!  
تلك لاشئ! وكذلك اذ أصبح ذاتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى  
عالم الآخرة الرائع الهائل وكذلك أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة  
فصارت مسرح خواطره ومراح افكاره والآخرة سواء حسبها الناس  
شيئا معنويا أو شيئا حسيئا فانها ما برحت أهم أمورهم ولكن ذاتى كان  
يعتقد انها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد وكذلك كانت  
عقيدة تلك العصور فلم يشك ذاتى فى انه سيصير طبقات الجحيم  
وينظر بها بركة «ماليويج» كما لا يشك أحدكم فى انه يبصر القسطنطينية  
لو أصبح على شاطئ البوسفور فلما افهم فؤاد ذاتى من هذه الافكار

والخواطر وطال عليه تأملها في سَدوت وتبهرها في صمت طفتح بها اناء صدره وفاض فبرزت للعالم في ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر كتابه المسمى القصة المقدسة أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدائتي بل من أعظم دواعي الفخر أنه استطاع أن يخرج ذلك الكتاب الاجل في منفاه ومحتته وانه لم يك في طاقة «فلورنس» ولا في قدرة أى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين اتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها وكان يشعر بعض الشعور أنه عمل جليل كأجل ما يستطيعه امرؤ وكان ذلك البطل الضخم يقول في شدة بأسائه وأزمة نكرائه إذا أمضيت عزمك ظفرت كل من سار على الدرب وصل وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جداً وكان نصبها شاقا حتى قال : « هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعولم في هزال ، أجل لقد أحرز داتى قصبات السبق بالكد والام لا بالدعة والعبث — بل بالجد العلقى والجهد الناصب كيف لا وإنما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه وكذلك معظم الكتب الجليلة تقش بدماء كتابها والكتاب مودع سيرته جميعها وكانت وفاته بعد أن أكمله بمدة يسيرة ولما يطعن فى السن — وإنما قضى فى السادسة والخمسين من عمره — ضحية الحزن والكمد — هكذا يقال وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته فى بلدة «رافينا» ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى «رافينا» فأبوا كل الاباء وعلى قبر داتى هذه

الآية :ها اناذا — ذاتي — مدفون بعيدا عن وطني ومسقط رأسي  
قلت أن قصيدة ذاتي غناء وقد سماها «تيك» غناء لغزيا عميقاً وما  
عدا بذلك عين الحقيقة وقد قال «كولريج» في بعض كتاباته أن كل جملة  
موسيقية التركيب يجرى في أثناء لفظها حلو النغم فلا بد من أن تكون  
ذات معنى جليل شريف لأنه مازال أبداً بين الجسم والروح — بين  
اللفظ والمعنى ألفة وشبه والشعر القديم الجيد — شعر هو ميروس مثلاً  
كله غناء بل كل شعر حر غناء وان كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما  
هو شعر ولكنه قطعة ترفصت في لفظ بطنان فيه عقوق لقواعد النحو  
وأذى ومصاب على القراء وإذا كان في رأس أحد الناس خاطر فما  
باله لا يبيديه في عبارة سهلة قريبة — أعنى في جملة نثرية؟ بل ما باله  
لا يستريح أو يخرج ملتويا معقدا تطن به القافية أما انه لاحق له قط  
في النظم والغناء بالقوافي حتى تملك فواده حرارة الانفعال وموسيقى  
الوجد فيصبح صوت منطقته بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها  
موسيقياً إذن فله علينا أن ندعوه شاعراً ونصغى اليه على أنه غريد  
الناطقين وهزار اللافظين والادعاء في ذلك كثيرون ولذلك كانت  
قراءة النظم على القارىء الارب عملاً شاقاً إن لم نقل عملاً لا يطاق  
وما أقبح النظم الذي لم يكن هناك ضرورة إلى نظمه — الذي كان أولى له  
أن يلقي الينا معناه في وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا  
طنين ولاني أنصح إلى كل من أمكنه أن يقول أفكاره أن لا يغنيا

وان يفهم أنه لا مجال في الاحوال الجديدة وبين القوم الجادين للطين  
بأفكاره والتلاعب بها مادامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه  
شعراً وكما أن الغناء الحر يلذنا ويطننا فكذلك الكاذب منه يؤلنا  
ويوجعنا ولا يقع منا الا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ولا نراه  
الا كطين النباب أودوى النحل

وحسب ذاتي فخراً أن أقول أن قصته هي غناء حسن بلى أنى  
لأحس الوزن الموسيقى يطرد في جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد  
ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا في ذلك بل أرى حركة اللسان في  
تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص ولكن السبب  
الأكبر في ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد فجورها ومادتها من  
الموسيقى وهي بفضل عمقها وحرارتها وإخلاصها موسيقية وانك ما  
تعمقت قط إلا أصبت الموسيقى في كل شيء ثم لاتنس مبالغة من  
حسن الائتلاف والتوازن والتناسب وهذا أيضا من جنس الموسيقى  
وكأنما أركانها الثلاثة: الجحيم ومكان التطهير والجنة في تواجها الأركان  
الثلاثة لقصر مشيد وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آية  
الروع والجلال والهيبة هذا هو العالم الذي خلقه ذاتي وملأه بالارواح  
بين منعم ومعذب — هذا عالم الارواح خلقه ذاتي ! وهي أشد اشعار  
الدنيا إخلاصاً فالإخلاص هنا أيضا مقياس الفضل ولقد خرجت  
من لباب لبه فهي ماتزال تبلغ لباب ألبابنا

أفرغت في الزجاج من كل قلب ففى محبوبة الى كل نفس  
وكان أهل فيرونا اذا بصروا به في إحدى الطرقات قالوا: هاهو  
الرجل الذى كان في جهنم ! بلى وخالق الخلق لقد كان في جهنم — فى جحيم  
الحزن والكربة والبلاء والقصاص التى تخرج من القلوب مقدسة  
لا يكون مصدرها إلا الشقاء والبث واللوعة أو ليس الفكر والعمل الحر  
أيا كان والفضيلة العليا — أفليسيت كل هذه نبات الألم؟ فكأنها نتجت  
من الزوبعة السوداء — أليست مجهداً صادقاً كمجهود الاسير اذا يحاول  
خلاصه؟ وما زال الألم مصفاة النفوس وراوق الطباع

وقد هذبتك الحادثات وربما صفا الذهب الابريز قبلك بالسبك  
بلى لينخيل الى أن شعرداتى قد سبك فى تنور روجه وبودقة قلبه الم  
يتركه «مهزولاً» عدة سنين؟ وان الدقة لتعتور قصته جميعها لم تغادر  
منها فقرة ولا جملة فتراها لذلك أصدق ما يكون وأجلى وأنصح وتراها  
متجاوبة الاقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر  
أنعم نخته وأجيد صقله وهل هى الارواح داتى تتضمن روح القرون  
الوسطى قد برزت للعيون فى أبدع قوالب الشعر وأعجب صوره وتالله  
ما هو بالعمل السهل وإنما أمر عظيم وخطب جليل ولكنه أمر نفذ  
وعمل أكمل

ولعل الحلة هى أكبر مميزات داتى فها هو بالرجل الواسع الصدر  
السمح النفس ولكنه رجل ضيق العطن متحزب وبعض هذا راجع

إلى طبيعة العصر وبعضه إلى طبيعة الرجل فترى أن ملكات داتى وقواه الذهنية قد تجمعت وتكاثفت حتى أصبحت حدة نارية وشعورا عميقاً فهو ينفذ في جسم كل شيء حتى يرسب في قرارته ولست والله أعرف في الوجود شيئاً له مثل هذه الحدة أنظروا إلى تصويره الأشياء تروا أنه أقوى قوة بصرية فاذا نظر إلى الشيء عرف حقيقته فأداها وحدها وتذكرون صفته لقاعة «دايت» بالجحيم اذ قال «ذروة حمراء حديدية محماة جمرية التوقد مخروطية تتوهج في ظلمة كشيقة طخياء» ما أنصع هذا الوصف وما أبين وما أوضحه لأول وهلة ثم إلى الأبد! وهذا عنوان الرجل فان في داتى لاخصر ايجاز واقتضاب في دقة واحكام وانه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمي ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول

والشعر لمح تكفى اشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ثم ما أرقش تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها حتى لينخيل إلى أنه يحز في الشيء بقلم من نار فيقول عن المارد المتنفخ حينما أرعوى لزجر فرجيل «أنه كان كالشراع انحطم عموده بغتة فهوى» ويذكر أحد المعنيين فيقول «بوجه مشوى» ثم انظروا ما ذكره من «الثلج النارى» المتساقط على المعنيين «ثلج نارى بلا ريح بطيء مصمم دائب لا يبنى ولا ينتهى» ولا أحسب هذا التصوير الاقطعة من صميم عقل الرجل وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطليانى الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوى وحر كانه

### الوشكة المقتضبة وثوراته الساكثة الكظيمة

لأن التصوير وان لم يكن إلا من القوى الظاهرية السطحية ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه أوجد رجلا يحسن الوصف توجد رجلا فاضلا ذاقيمة فانه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن في فواده حب يلقيه على ذلك الشيء فيكون سبباً الى التعمق فيه وانعام النظر — لو لم يكن ذا جد واخلاص والرجل العديم الفضل لا يستطيع أن يصف لك شيئاً فانه بضغفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ولا يقف الا عند الأكاذيب والأباطيل أو لا يمكننا القول بأن آفة الذهن هو قدرته على استنباط حقائق الأشياء ؟ — استبانتها بالامتراج بها الناشئ عن محبتها والابجذاب نحوها وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها الا للولوع بها الذي كله اخلاص لها وصبابة اليها وقدما كان الحب أول هاد الى خبايا الحقائق الحب الصادق الصاحي الراكر على أساس العقل والحكمة لا الكاذب التمل الطائر بأجنحة الخديعة والطيئش لأن الحب الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجلية للغوامض المستبطنة للدخائل ولن ترى الرجل البليد الاحساس الكليل الحب إلا محجوباً عن أسرار الأمور لا يلبس منها سوى القشور وهذا هو الواقع حتى في المسائل العملية فالرجل الذكي الأريب هو ما أبصر من الأمر المراد اتيانه النقطة الجوهرية فامسك بها وصفح عن كل ما عداها



وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلال الناصع الذي كأنه وهج  
الحريق في الليل البهيم هو كل ما يمتاز به وصف ذاتي وتصويره بل تراه أيضاً  
شريفاً جليلاً كيفما قلبته ومن أي ناحية أتتبه ثمرة روح شريفة جليلة  
انظروا الى ما ورد بالقصة من حديث الغادة «فرانسسكا، وعاشقها -  
ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الأكباد تجدوه كأنه منسوج من ألوان  
قزح على رقعة من السواد الأبدى أو كأنه صوت ناي جم النواح مبجوح  
الآئين يناجى حبات القلوب بادياً فيه رقة الشكوى وذلة الوهلى ورنه  
الثكلى وأشجى ما فيه ان الحبيبين يلقىان عذاب الجحيم معاً فخذنا ذلك  
الاجتماع سلوة في الشقاء وعزاء في الضراء لقد كان الشاعر صديق والد  
«فرانسسكا» هذه وربما جلست تلك الفتاة على ركة ذاتى صبية بريئة من  
كل عيب حسناء سمحاء ولكنها اذ أتتبت في حياتها أبى ذاتى إلا عدل  
الجزاء فجعلها فى جحيمه بحيث تعلقون ولكنه شفع العقوبة بمتارون من نعمة  
الوصل ومنة الاجتماع بحبيها ياله رحمة فى قسوة وعفوفى شدة وتلك  
شيمة الطبيعة وما قصر عن ادراكها ذاتى وما أفيل رأى القائلين بان  
كتاب ذاتى لم يك الا هجاء فاحشاً أراد أن يسيء به الى من أعياه  
مؤاخذتهم والانتقام منهم وأحسب لو أن رجلاً حمل فى قلبه حنان  
الأم الرؤوم وراقها فذاك هو ذاتى ولكن من لم يعرف القسوة لم  
يعرف الرحمة أيضاً والذى نخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع  
للرحمة قصد الافتخار وما أعرف فى العالم رجلاً أرحم من ذاتى ولا

أكثر حبا وان بين جنبيه لحشا خفاقا ووجدنا واشفاقا وفؤادا ملتاما  
وولها ونزاعا كحنين النايات والعيدان لينا لينا او كمهجة الطفل  
ويشوب كل ذلك مرارة الخنق ووعورة البأس والنادا ! سخط على  
عمى الحظ وعثرة الجدد وجور القضاء ولؤم الزمن وصباية وحنين  
الى حبيته «بياتريس» ولقاؤها فى الجنة ونظره فى عينها النجلاوين  
تشرقان بشعاع النور المقدس - وقربه منها - من الغادة التى طهرتها  
حياض الفردوس وصفاء الابدية كل هذا شبيه عندى بأغانى الملائكة  
ولعله أصفى ما نطق به امرء فى هذه الحياة الدنيا من آيات  
الحب الطاهر

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شىء فلقد نفذ بحدته الى كل  
جوهر ولب وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل  
الا ما يعثور جميع ملكاته من الحدة وهو فوق كل ذلك كبير من حيث  
الصلاح والتقى وذلك أساسه وعنصره فاحتقاره للدينونة عظيم وأسفه  
على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده وهل الأسف  
والاحتقار الاحب قلب عن جهته وأحيل عن طبيعته ويقول فى كتابه عن  
الجنة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم «لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة اليهم  
ثم نضرب صفحا» ياله احتقار فى ترفع ونفرة فى سكوت وانفة فى صمت  
واعراض ثم قوله يذكر فته من المعذنين «لقد انقطع أملهم حتى من الموت»  
ليخيل الى ان ذاتي يعرض بنفسه فى هذه الجملة فلقد أتى عليه حين من

الدهر كان قد يئس من الراحة حتى راحة الموت ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لغزاه المكلوم شعاع أمل انه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكد راحة القبر وان القضاء نفسه لا يمكنه أن يحرمه هذه النعمة، مثل هذه الكلمات كانت في ذلك الرجل وأراه في الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظر الا في انبياء بني اسرائيل فاما اردت مثل كلامه فانظر في التوراة العبرانية

ولا أوافق قوما يفضلون الجحيم في قصة ذاتي على قسمها الآخرين ومرجع هذا التفضيل هو في ظني «بيرونية»<sup>(١)</sup> في الذوق والمشرب ولعل القسم الثاني «مكان التطهير» أبرع من الجحيم وأسمى أجل ما أشرف ذلك الجبل - جبل التطهير - فهو رمز لأشرف أفكار هذا العصر رمز لبراءة الانسان بالتوبة واذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلبون والجحيم من العذاب والألم كما تعهدون أليس جديرا أن يكون في التوبة منجاة للذنب وبراة؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية ثم ما أبدع ما وصفها ذاتي وأبرع اذ قال انه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق أمواه تترقق ولمع أمواج تهتز وتحقق في بريق الصباح ولمع الضحى فهذه صورة تدل على تحسن الحال وهذا ولا شك فجر الامل والرجاء فد لاح والامل حي لا يموت وأشد ما يكون في الحزن كالشهاب أسطع ما يكون في فحة الديجور

---

(١) نسبة الى بيرون براد طريقة بيرون وهي كراهة العالم

كالكوكب الدرى أخلص ضويه حلك الدجى حتى تألق وانجلي  
وهناك جبل يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون التائبون  
وقمة الجبل فى عليين دونها باب الجنة وماتى أنفاس هؤلاء التائبين  
المستغفرين تصاعد الى عرش الله ويقولون لداتى حين يرونه :  
استغفرلنا ربك : ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعودا وارتقاء ومشقة  
وعناء وقد أدنى الكلال خطاهم وأنضى الكد أبدانهم وأسنوا  
وشاخوا فى ذلك الصعود ولما يبلغوا القمة ولكنهم مواظبون وجادون  
حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس وبرحمة من ربهم وغفران  
سيدخلونها خالدين وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع وزرع الجبل  
طريا ووجف سرورا وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا فى نظرى  
تصوير شريف لمعنى شريف

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن  
الآخرين وأرى «الفردوس» أحد أركانها موسيقيا صامتا وغناء  
سا ستأوهى المكفرة لسينته الجحيم والجحيم لولاها ضرب من الباطل  
ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى  
وهوشى جليل حر الجواهر طول الدهر ولعله لم يتمثل فى نفس انسان  
كما تمثل فى نفس داتى اذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على  
لوح خاطره كالوحى فى الحجر وما داتى الانبى أرسله الله ليين هذه  
الحقيقة للناس وينقشها على جهة الدهر وما أغرب والله سهولة انتقاله

وسرعة تخلصه في مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية الى العالم الخفى حتى لنجدنا بعد سبعة آيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملبوسة لارب فيها ! وكذلك كانت في نظر داتى وما كانت الحياة الدنيا عنده الا سيلا الى حياة أخرى خير وأبقى ولم تكن الدنيا في نظر داتى بأقل غرابة من الآخرة ولا الآخرة بأقل حقاً من الدنيا واذا كانت الآخرة عنده هي عالم أرواح فالدنيا كذلك في نظره عالم أرواح أو ليس في كل امرئ روح ؟ نعم لقد كان ذلك بيتاً له جلياً ولقد كان يعتقدُه وينظره فهو من أجل ذلك شاعره والاخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر

وجحيم داتى وجنته ومطهره انما هي في الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته في الكون ولعل ناقدنا يقوم فيقول لنا ما قصة داتى الا العوبة شعرية وضرب من اللهو والعبث كلا والله انما هي أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهي تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه داتى من ان الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذين عليهما مدار كل شيء وان الخلاف بينهما ليس هو أن الخير أفضل من الشر — مذهب الماديين الذين يرجعون في كل أمر الى الحساب والوزن والمكسب والخسارة — بل ان الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب وان الشر هو الخبيث المحرم اتيانه تحريماً كلياً لامقارنته بينهما ولا قياس ولا تفضيل فاحدهما للآخر كالحياة للموت كالجنة للنار نعم ما شعر داتى الا رمز لتلك ورمز للعدل السرمدي

والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت في تلك القرون — رمز ولكنها  
في نظر ذاتي ونظر تلك الاجيال عين الحقيقة التي لا ريب فيها ولا شك  
ولا نزاع التي يعتقدها الناس من صميم أفتدتهم ولقد قلنا قبل ان الناس  
ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والاقاصيص المنظومة ولا أحسب  
ان أهل عصرنا هذا يحسبون قصة ذاتي مجرد قصة قصد بها الانتقام  
من أساءوا اليه ومجرد عبث وصنعة فاذا رأى ذلك أهل العصور الآتية  
فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية أنها البيان الحق لما كان يجيش  
في صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه — بيان كان  
في وقته حقاً صادقاً وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا ولكن  
انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية — فرقا كبيرا لم تكن الوثنية  
الامتثالا لظواهر الكون وأفعال الطبيعة وحياة الانسان وطبائع  
الأشياء وتقلباتها وتصرفات شؤونهما واختلاطهما في هذه الدنيا وأما  
النصرانية فتمثل قانون الواجب الانساني — قانون الأخلاق والآداب  
فكانت إحداها للطبيعة الحسية بيانا عاجزا ساذجا لأفكار الانسان  
الاولية إذ كان أهم الفضائل هي الشجاعة — الاستعلاء على الخوف ولم  
تكن الاخرى للعالم الحسي بل للعالم الاخلاقي فان لم يكن من الفرق سوى  
ذلك فاي فضل بين وارتقاء عظيم!

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التي سبقت عصر ذاتي  
صوتها في ذلك الشاعر الكبير ولسانها وده القصبة المقدسة، من يراع

داتى ولكنها فى الحقيقة إملأ عشرة قرون نصرانية وإنما أتمها داتى  
وأكملها وتلك ما زالت الحال وكذلك الحداد بالآلاته وأدواته وصنعتة  
وحذقه — قل والله نصيبه هو فيما يأتىك به من بدائع صنعتة وإنما  
معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها  
وأبوابها وكلهم قد صنع معه ما صنع وتلك هى الحال فى كل أمر  
فداتى هو لسان القرون الوسطى ومن خلال سطورہ يلد آذاننا صوت  
أفكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء ويرن فى مسامعنا  
موسيقيا أبدى مادعا الله داع وما ترنم فى الايك مسجاع وما أفكاره  
تلك السامية الجميلة الرائعة الأثمة ما فكر جميع الصالحين من قبله أولو  
أفضل والله أولئك وهل خلاه من الفضل؟ أما انه لو لم ينطق لبقى  
الطيب الكثير من تلك الافكار كامناً مكتوماً — لا أقول ميتاً:  
بل حياً صامتاً

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من أكبر  
الارواح وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق؟ والنصرانية كما يغنيها داتى  
شئ خلاف الوثنية الشمالية وخلاف النصرانية التى هدمها الاسلام  
بقرى الشام — وإنما هى أجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك  
الشاعر فغناها وألبسها ثوباً لا يلبه الدهر

ابقى على الزمن الباقي من الزمن: أليس خليقاً بنا أن نفرح بذلك  
الكتاب ونعجب؟ وظنى به سيبقى الآلاف المؤلفه من السنين لان

فرقا عظيما بين ما يخرج من أعماق النفس وما صدر من خوارج  
أجزائها فالخارجي هو سحابة صيف ومسألة تولد مع الصبح وتموت  
مع المساء وتزول كالظلال بزوال الالهواء والاميال وما تزال تتلون  
وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الاحوال وأما الداخلى فانه سواء  
اليوم وفي غد وآخر الابد وما يزال ذووا النفوس الحرة والقلوب  
البارة في كل زمان ومكان يجدون في ذاتى هذا أخا وصديقاً وخلا  
شقيقاً لما بين روحه وأرواحهم من النسب وبين قلبه وقلوبهم  
من الصلة والسبب

أول ما يكن نسب هناك فإؤنا ماء تحدر من غمام واحد  
كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من أصل واحد  
أصبح الألم الذى يقدح فى نفسه يقدح كذلك فى نفوسهم والألم الذى  
يدب فى روحه يدب أيضاً فى أرواحهم فقلبه وقلوبهم كالنأى والعيدان إذا  
حن وهتف خفقت جوابا وأنت وأعولت وذلكم نأبليون كان يرتاح فى  
منفاه بسانت هلينا الى قصيد هوميروس ويسر جداً بما فيه من الحق  
والصدق وبين القارىء والمقروء كما تعلقون عدد السنين وأقوال أنبياء  
الله الأقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائلها وصدور  
الكلام من أعماق الروح هو سر خلوده الوحيد وداتى فى عمق  
الاخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء وأقواله كأقوالهم خارجة من القلب  
ولا عجب اذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شىء أخرجه أوروبا



لانه ليس أخذ من كلمة الحق شيء وكل ما بالقارة الأوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومباني مشيدة وثيقة فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهي قصيرة العمر في جانب غناء قلبى هكذا وظنى أنه سيقى حبيباً الى القلوب شهباً الى النفوس وقد زالت جميع هذه الاشياء عن أوضاعها ولبست هيئات محدثة وتألقت في تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وان لم تنعدم مادتها وان ما صنعت أوروبا وما أتت لكثير جداً مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية ذاتي إلا شيئاً قليلاً وذلكم هو ميروس حى للآن يخاطبكم وجهاً لوجه ولكن أين دولة اليونان؟ بادت من القرون العديدة وذهبت وزالت ولم يبق منها الا كسبان أنقاض ان تسلهاعن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جواباً. حلم كان ومضى. دولة أصبحت في الثرى . كآنها رفات أميرها أفا ممنون! وكذلك قد كانت اليونان. وهي اليوم لا تكون إلا مانطقت

وماذا نقول للقوم السائلين «ما فوائد ذاتي؟» أنه سؤال غريب لا يسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب. حسبنا القول بان العقل الذى أمكنه أن ينغمس في عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمت غناء حسناً جدير أن يكون قد أثر أكبر الأثر في صميم الحياة وقلب الوجود. وأنه مازال طول الدهر ينبوع الغذاء لما في النفوس من جذور كل خير ومكرمة يغذيها بطريقة لا يهتدى الى قياسها ووزنها علمه الاقتصاد

بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا  
من نفقات الشمع والبترول ؟ والخلاصة ان ذاتي أجل من أن  
تقدر قيمته

وعلى العموم فأكانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم في  
الدنيا — بما نراه نحن انه تأثيرهم . — تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا  
وباطل ! ليصنع كل امرء صنعه فاثمرته إلا حسب عناية غيره . وسيثمر  
ثمرته ، وليس يهمننا أخرجت أعماله ترفل في حلقة الملك والدولة وتترن من ضجيج  
الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التي هي  
جرائد مصفاة . أم خرجت عارية من كل هذه — خفية صامتة — نعم ماذا  
يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هي الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة  
إلا ما أحسن وإذا كانت أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير  
والمنفعة فانها كالهباء وما ذلك الملك إلا أكذوبة وباطل وحرص هالك  
وسقط متاع مهما أحدثت أعماله في الجو من الضجة والجلبة ومهما  
فلل من مضارب السيوف وأدار من أقداح الختوف . ومهما قبض من  
الآجال . والأموال . وملك من أعة الرجال . والأحوال . هذا الملك في  
الحقيقة لم يكن . ألا فلتكبروا معي دولة السكوت وعالم الصمت احيائهما  
الله من عالم ودولة ؟ لا يريان بالحس ولا يدركان باللس . وهما مع ذلك  
أنفع من الصراخ واجدى . وخير من الضجة وأبقى .

وكأن الله أرسل ذاتي ليصور لنا في أشجن القتاء والنغم ديانته

القرون الوسطى أو حياتها الباطنة فكذلك ارسل شاكسبير ليصور  
حياتها الظاهرة الخارجية كما كانت اذذاك وماها من مظاهر الفروسية  
والنجدة والمروءة وشتى الاهواء والمشارب والمطامع والمطامح والاساليب  
الدينية للتفكير والعمل والرأى وكما انا نصر في هوميروس يونان  
القديمة فذلك سيكون شاكسبير وداتى بعد آلاف السنين المعرض الواضح  
لاوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية وديوية نعم لئن يك داتى أدى الينا  
العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن وكان الله  
أبى الا أن نعطي البدن أيضا فاعطانا على لسان شاكسبير وكذلك لما  
بلغت حياة القرون الوسطى — تلك الحياة الشريفة العالية — حد  
الكمال وآنت بالاضمحلال السريع أو البطىء كما نراها الآن فى كل  
مكان أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته المطرب الرنان لينظر  
تلك الحياة وليتغنى بها غناء يقى ما ترنم النسيم فى الشجر. وغرد البلبل  
فى القمر رجلا كفتوان — داتى عميق حاد فأتى كأنه ما يجوف الأرض  
من النار وشاكسبير واسع هادى بعيد مرمى البصر قصى مدى النظر  
كأنه الشمس نور الأرض الظاهرى. أحدهما ثمرة ايطاليا. والثانى  
بحمد الله مرة بلادنا

وعجيب والله كيف ساق الصدفه الينا ذلك الرجل. وظنى أن  
شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس  
بحيث انه لولم يخرج من قرته يسبب ما أتى من سرقة الغزلان لكان

له في عيشه القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ماعدهما وكان قد عاش ومات ولم تفتح اغلاق خزائنه . ولم تكشف أسرار دفتائه . فخرم العالم أكبر شعرائه قاطبة نعم لولا تشرده عن وطنه لذاك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروى . ولكن ان كان شاكسبير هذا قد جامنا عفوا . ألم يجيء ذلك العصر — عصر اليصابات — أيضا عفوا كما ؟ من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحي وتذبل وتنض كالشجرة التى جعلها الوثنيون الشمال رمزا للحياة الدنيا — ولكنها تذبل وتنض وتلقى أوراقها وتورق بقوانين أزلية ونواميس أبدية . لا تظهر عليها ورقة الابداعات . لا يظهر عليها بطل الابداعات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الأسباب والروابط فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق الا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات أجمع مستحيل فصله عن سائر الأجزاء وليست كلمة أو فعلة لرجل ما الا ومنشؤها العالم أجمع ولا بد أن تعود بالتأثير آجلا أو عاجلا ظاهرا أو باطنا فى العالم أجمع . أجل . هى شجرة « اجد رازيل » التى أصلها فى مملكة الموت وذرى فروعها فى الجنان ! وعهد اليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ثمرة العصور السالفة — وينسب الى كاثوليكية القرون الوسطى . وإنما نشأت هذه الحياة الظاهرية العلية التى تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التى سجع بها داتى . لأن الدين كان اذ ذاك كما هو الآن وما يكون

في كل آن روح العمل - كان الحقيقة الأولى الجوهرية في حياة البشر . ومن العجب أن ظهور شاكسبير لم يكن الا بعد ان نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التي شاكسبير من ثمراتها بقدر ما في استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ ديننا وثيق العرى - ومع ذلك فقد ظهر شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد أرسلته الطبيعة حين شامت ولم تبال باللوائح والبرلمانات . فان للبوك والأميرات مذهبها والطبيعة كذلك مذهبها . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ماتحدث من المججلة والدوى . إذ اى لأتحة أو مناظرة كانت قادرة على إخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا اللائم بالقصور ولا افتتاح صحائف الاشتراك ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق أو الباطل ! إنما جاد ذلك العصر الا ليصباتى بمجده وشرفه من غير ماطلاع ولا رواد ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شاكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر . أداه الينا الحظ في سكوت . فتناولناه في سكوت . كأنما هوشى صغير الشأن قليل الخطر . وإنه في الواقع النعمة لا تقدر . والهبة لا يحد مقدارها ولا يحصر

إن صفوة الأدباء في جميع الاقطار الاوروبية وأعظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن شاكسبير سيد شعراء العالم على الاطلاق . والحق أقول أنى لأعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوى إذا تأملنا جميع صفاته في أى إنسان

آخر: تبارك الله وتعالى عن الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تترآى في جوفها صور جميع الاشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق الصفى ! وقد قيل أن في تركيب روايات شاكسبير فضلا عن سائر الفضائل والمزايا آية على فهم مماثل لما جاء في كتاب بالون «النظام الجديد» «نوفام أورجنام» وهذا حق . ولا غرابة فيه . وربما كان أبين إذا نظرنا إلى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العارية الجافة التي أحدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة واجتهد أحدها أن يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع ذلك الشاعر الاكبر ! حجارة وأخشاب وحديد مترام كمبعضها فوق بعض في أفسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الاركان . موثق البنيان . تتلى في أصغر أجزائه آية الاحكام والصنعة . حيثما ألقيت البصر لم تلق إلا اتقاناً واحساناً . فكأنما ظهر في الدنيا وحده بقانون أبدى في فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى وما هو إلا أن ننظر اليه حتى ننسى الانتقاض المبعثرة والاخلط المشوشة التي صاغ منها وصور . وإن كمال تلك الصنعة التي كأنها صنعة الطبيعة نفسها لتخفى فضل الصانع وتغييه . ولنا أن نصف شاكسبير في ذلك بأنه أكمل من كل إنسان وفوق كل امرئ بطبقات . فانه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال والمواد التي يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والاحوال . وما نظرته في ذلك بالسريعة القصيرة ولا غناء في تلك . وإنما نظرة طويلة

جثة الشعاع غريزة الضياء ينير اشراقها الموضوع كله - وعين ذات  
ابصار دائب دائم . ساج ساكن أو بالاختصار عقل كبير . وعنى أصح  
قياس لقدار عقل الرجل هو أن تجعله يصف لك في قصة أمرا جليلا  
كان أبصره فتنظر أى تمثيل وصورة يقدم لك وأى حادثة هى فى نظره  
أعظم وأجل فيبرزها وأى أمر أذن وأقل فيخفيه وما هو أحسن ابتداء  
واستهلال وأعجب تخلص وانتقال . وماذا أبرع تقسيم وتوييب . وأبداع  
تنسيق وترتيب وكيف يكون حسن الغاية . وجودة النهاية ؟ فإذا حملت  
الرجل على ابداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد . وكددت أسباب  
عقله منتهى الكد . اذ لا بد له أن يفهم الشيء الذى يحاوله ويصير الادر  
الذى يزاوله . وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أتراه يضع الكلام  
فى مواضعه ؟ ويجعل اللفظ الى لفته وقريبه . والمعنى الى شكله ونسيبه .  
وهل أرسل روح النظام فى تلك الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة  
فرد الفوضى نظاما . والخلاف وتاما . وألف أعناق الشوارد . وجمع  
شمل البدائد ؟ وهل أمكنه أن يقول للشيء كن فيكون ؟ هل أمكنه أن  
يقول ليكن ثم ضياء يحول به عالم السديم نظاما ؟ أما انه لا يستطيع  
ذلك لو كان الضياء فى عقله والشعاع فى نفسه

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضاً براعة تصويره للأشخاص  
والأشياء لاسيما الأشخاص . نعم لشد ماتتجلى عظمتة فى ذلك وتستبين  
ولا أحسب أن إنساناً يماثله فى تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة . فاذا

نظر إلى شيء لم ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذلك بل إلى صميم له . فكان ذلك المنظور يتحلل أمامه في ذوب من الضياء فتتكشف له دخائل تركيبه ويواطن بنائه . نحن نسمى ذلك ابداعا واختراعا وخلقاً — خلقا شعرياً وما هو لو تأملت الا النظر الدقيق المستوعب للشيء . المحيط بظاهره وباطنه . ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعاً ثم أما ترون في شاكسبير أيضاً فضائل الحكمة والعظمة والعبرة والشجاعة والمروءة والصراحة والحلم والعمق والصدق والسداد والصدق وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذلة العقبات الهازمة المشقات الخروج من كل قحمة عزاء . وورطة نكراء . عظمة ويمين الله في سعة السموات والارضين . وعقل يمثل لك الحقائق كما هي لا كما يحرفها الذهن للتحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد . فكأنما والله عقل شاكسبير المرآة المستوية إذا كانت اذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعنى أن شاكسبير رجل يعدل في النظر ويسوى في الرأى بين جميع الاشياء والبشر — رجل كريم عادل . براعة والله وقوة وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت إلى أوثيلو إلى فولستاف إلى روميو إلى كوريبالاناس وتأديته إياهم في أكمل خلقهم وصفاتهم والتسوية بينهم في حبه ومعدرته . وسعته إياهم جميعاً بلطفه ورحمته — حينذا هو أخو البشر وشقيق الانسان . وما كان ذهن باكون



ليقاس بذهن ذلك الشاعر فان الاول على كماله وعظمته من طينة أدنى من طينة الثانى - طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس إلى ذهن الشاعر الاكبر. وإنى لأجد لشاكسير فى التاريخ الحديث مثيلاً قط وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكركه الا رجلاً واحداً هو «جيتا» فانه أيضاً نظار إلى حقائق الامور وجواهر الاشياء ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو فى شاكسير إذ قال «أشخاص شاكسير كالساعات الشفافة الوجوه - بينا تريك الساعة فى وجوها إذا هى أيضاً تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة واحشائها»

العين البصيرة . هذه هى الكشافة لبواطن الامور والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف - الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الأشياء من الاغراض - من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة . نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شىء منها قبح ظاهره غرضاً هو للعين البصيرة واضح بين . أفهل هذه الاشياء خبيثة دنيئة ؟ إنك قد تضحك من تلك الاشياء . وقد تبكى . وقد تمد بينك وبينها الصلات والاسباب كيفما كانت . أو على الاقل يمكنك أن تصد عنها وتصرف . وتعرض وتتحرف حتى يحين أن تقتلها وتمحوها ! والعقل الكبير هو أول مواهب الشاعر فإنا اوتى ذلك فقد صار شاعراً - شاعراً بالقول . فان لم يؤاته ذلك فشاعراً بالفعل . وكونه يكتب أولاً يكتب - ثم يكتب شعراً أو نثرأ هذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف - ربما على أدنى الصدف . ولكن القوة التي

تمكته من أن يبصر أبواب الأشياء والمودع ضمائرهما من النظام «لأن لكل كائن نظاماً في جوفه واثلاً فاموسيقياً في ضميره والافسان يتماسك ويكون» ماهى بنتيجة عادات ولا صدف ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول مانقول للشاعر بل لكل انسان هو — انظر! فاذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنالك في استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافي ولا حاجة هناك الى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعراً . وأولى لك ان تقطع من ذلك الامل وتفرض يدك من هذه الامنية . فاذا شئت فان لك في غير الشعر مجالاً ومدوحة — في التجارة مثلاً أو الصناعة أو الزراعة . وحسبك ذلك . وأنت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنتم عملك أيا كان بشرط ان يكون حلالاً طيباً كريماً . ولا عار في العمل المتقن مالم يكن خبيثاً والاتقان نتيجة العقل . فالعقل هو أجل النعم كما فقدته أشد المحن

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعتت من يداويها  
والحقيقة ان قيمة المرء بمقدار بصيرته ولو سئلت ان اعرف  
ملكات شاكسبير فقلت ارباه عقله على كل عقل لكنك قد أدركت  
الغاية وبلغت النهاية وما هي في الحقيقة تلك الملكات التي نذكرها  
كأنها أشياء شتى كأن للمرء ذهنأ وخيالاً وادراكاً مثلاً له يدان ورجلان  
وقدمان وهذه غلطة مبينة ثم نسمع أيضاً ان للمرء «طبيعة ذهنية»  
و«طبيعة أخلاقية» كأن هذين شعبتان كل في ناحية أما انه لا باعش علي

استعمال تلك الالفاظ المختلفة الا ضرورة النطق وأرانا اذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المنفرقة ولكن لا ينبغي أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء فان ذلك هو السبب الى خطئنا في هذا الامر وضلالنا وانما يجب علينا أن لا نزال نذكر ان هذه الاقسام ليست في الحقيقة الا أسماء وان طبيعة المرء الروحانية القوة الحية الكامنة فيه — هي شيء واحد لا ينقسم ولا يتشعب وان مانسميه خيالاً وادراكاً وذهناً ومفكرة وبصيرة وغير ذلك انما هي صور مختلفة لتلك القوة المبصرة وكلها شديد اتصال بعضها ببعض دليل بعضها على بعض حتى لو عرفنا أحدها لا يمكننا أن نعرف الباقي وما اخلاق المرء الا ناحية من تلك القوة الحية التي بها يعمل وبها يكون وكل أفعال المرء لو تفقهون دليل عليه حتى ليكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه في الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه فان جنبه أو اقدمه ليدولك في خلال لفظه وما كلمة الرجل أو رايه باقل نمياً عن شجاعته أو خوره من ضربته أو طعته وهو بعينه واحد يظهر للبلاء نفساً واحدة في صورتي

قد يعيش الرجل من غير يدين قائماً على قدميه يسعى بهما في الارض ويضرب ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا اخلاق والرجل الذي لا اخلاق له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرء لا يرى شيئاً حق الرؤية ولا يعرف شيئاً حق المعرفة لان المعرفة

الصادقة لشيء ماتستوحب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه أعنى  
الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة وإذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال  
ينتصف لكل شيء من نفسه ويأخذ الحق منها لغيرها ويقمعها ويقدها  
ويذها ويقهرها ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل الى الحق  
على ما فيه من عذاب ومضض فكيف يجد الى العلم بالحقائق سيلا؟ وإنما  
الطبيعة وحقايقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مخوم وما يعرف مثل هذا  
من الطبيعة إلا قشورا وأباطيل وخبائث مما يستخدمه في أغراض ساعته  
وما مثله إلا كمثل الثعلب أو ما يعرف الثعلب شيئا من الطبيعة؟ نعم  
يعرف أين توجد الأوز! وكذلك الثعلب الأدمى وما أكثره في كل  
زمن وبقعة أترأه يعرف إلا هذا أو مثل هذا؟ كلاب ان اشتام الثعلب  
ريح الدجاج واهتداه اليها فضيلة ثعلبية ولو أنه أضاع أوقاته حزينا أسفا  
مطرقا يفكر في نحسه وشقائه وظلم القضاء له وجور الدهر واشتغال الحظ  
عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ولو لم يكن عنده  
جرأة واقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية لما أصاب  
دهره من الدجاج ولا ريشة.

فإذا قلت اذن ان شاكسبير أكبر الاذهان فقد قلت كل ما يقال عنه  
على أن في ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو ما سميه  
ذهنا غير متعمد وفيه من الفضل أكثر مما يشعر به صاحبه وقد قال  
نوفاليس ماروايات شاكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها

وأرى ذلك صواباً وحقاً فما صناعته بصناعة إنما هي وحي يتدفق به  
طبعه عفواً ويهطل به خاطره سحاً دراكاً

ويدرك للألى يغونه عفواً بلا مسخ ولا أساس

شيء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب. يلوب كدمعة  
المحزون غير معتصر ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ويجىء كوداد  
المحب غير معتنف ولا مقتسر ويسقط من تلقاء نفسه كالطل في السحر  
وغناء الحمام في الشجر أو كشذا المسك يفوح وينتشر وسنا البدر يلوح  
ويشتهر لا تكلف ولا تعمل ولا تصنع ولا تمحل وإنما هونبات  
ينبت من جوف الطبيعة فيحترق روح ذلك الرجل أو صوت الطبيعة  
يخرج الينا من فم ذلك الرجل أو إن شاكسبير نأى تتناوله الطبيعة فتترنم  
فيه بأشجى نعماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ولعل الأمم التي ستجىء  
بعد آلاف السنين ستجد في شاكسبير هذا معاني جديدة وبيانا لألغاز  
حياتهم وإنها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق ان يجعله جزءاً منها  
فولقات هذا الرجل مهما تعمدأن يجيدها ويتقنها تخرج من مجاهل أعماق  
نفسه عفواً إلا أثر فيها للصنعة والتكلف — كالدوحة نابتة من الثرى وكالجبال  
والأمواه إذ تلبس أشكالا خاصة منطبقه على قوانين الطبيعة. موافقة لسنة  
الحق أيا كان. ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات أرايتموه يتسخط  
ويتشكى ويتلهف ويتشهى أعهدتموه يتألم ويتحسر. ويتوجع ويتضجر.  
أم كان خلواً من الألم والبرح والكمد والترح. كلا ولكنه ستار للشجو

كنوم للصيبة وكم خفى فى تلك السريرة من الآلام والمحن فلم يظهر إلا ثمارها من بارع الكلم . ورائع الحكم . كأنها الجذور وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر عظيم والله الكلام ولكن الصمت أعظم

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجدلة الفرحة هى من جلائل الصفات ولا أنعى على ذاتى كاتبته وشقوته فانها حرب بلا ظفر ولكنها حرب صادقة وهى أهم المسائل وأخطر الأمور وأرى شا كسير يعد أعظم من ذاتى من حيث أنه جاهد فظفر ولا يخالجمك الشك فى أنه قد كان له حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح والأشجان وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن وتجرع من مرارة المحن وغامس من حومة الخطب وكافح من غمرة الكرب يكدح فى بحر الشقاء ويضرب ويظفويه ذلك العباب ويرسب حتى بلغ شاطئه الأمن ونجاه الله من الحين وقد أقال الرأى من زعم ان عيش شا كسير كان خلوا من الأسى صفوا من القذى لم يرد منه الاعدبا زلالا وفراتا سلسالا وان شا كسير لم يك إلا بلبلابروضة الصفاء أفنى عمره سجعا وتويا وبلغ أجله شدوا وتطريا سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادى البلبال شأن البلبال والقهارى اللواتى هن

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولادائرات الدهر كيف تدور  
كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا وانى لرجل أن ينتقل من سرقة

الغزلان الى كتابة مبكيات كبكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق  
الحزن ولبس الشجى بل كيف يتأنى لرجل أن يصور أمثال هامليت  
وكوريا لانا و ما كبيت وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة الا  
وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين  
الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج إن المبالغة عنده مقصورة  
على فن الفكاهة رهن يباب الضحك وكثير في رواياته اللفظ الموجه  
والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ولكنه عند حد وما كان قط  
ليغلو في كراهة البشر ولكن ضحكة ينحط عليك ذالسيل المنهمر وإذا  
نصب من أشخاصه واحدا للفكاهة هال على رأسه ما لا يحصى من فنون  
المزاح والمجون وألقاب السخرية وما زال ينقله من الأشكال المضحكة  
فيما يستقصى العجب ويستنفد الاستغراب فكأنه يضحك بهلء ضلوعه  
وقلبه ثم هو ضحك صالح لا يقصده به الى السخر من المساكين والبؤساء  
والضعفاء ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكا وإنما هو سفالة ولؤم  
فان الضحك الحر الكريم من شيء ما يستلزم جبك لهذا الشيء وليس  
الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر — تفهقه النار والقدر تفور  
وتلتهب ! وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الاغبياء والادعياء  
وهذا الضحك في نظري كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط

ولا مجال هنا للاسترسال في وصف كل من زوايات شاكسبير على  
حدة وإن كان لا يزال في ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام فلو أن كل

قصة من قصصه اتيح لها شارح مثل «جيتا» لكان خيرا وسيكون ذلك يوما ما وقد سمي الفيلسوف الكبير الالماني «سكليجل» رواية هنرى الخامس وما شاكلها تاريخها جليلا وطنياً. وتذكرون مقاله القائد «المبرا» من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيا إلا ما علمه من شاكسبير وقل في كتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازي تلكم الروايات قيمة وفضلا وما أبدع وصفه لحرب «اجنكورت»، ونعته جيش الانكليز المكبود المنهوك وساعة التصاف اذ توشك الحرب أن تبتدىء — تلك الساعة الجليسة التي يكمن في اثناها النحس والسعد ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر «معشر الرماة الذين صيغت أكتفهم في بريطانيا» الا تجدون في ذلك ربح الوطنية؟ أما في ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض في كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادى قوى برىء من كل أثر للجلبه والغلواء كأنما صوت نبضه رنين الحديد الصلب وظنى أن في صدر شاكسبير هذا جرأة ليث وفي يمينه بطشة قسور لو اشهدته صروف الدهر ساعة الوغى!

هذا هو فلاح قرية «سترافورد» الذي ارتفع الى درجة مدير تمثيل فكفى بذلك ذل السؤال والذى رمقه اللورد سواذمبتون بعين رحمة والذى كان السير توماس حفظه الله يريد ارساله الى السجن ! انا لم نعهده لها كاودين اذ هو عائش وسطنا ولكنه رغما من ضعف ايمان



الازمان الحديثة بالأبطال فإى اجلال و اكار لم يصبه شا كسير هذا  
من أبناء اللسان الانكليزى ؟ أى رجل بل أى مليون رجل من رجالنا  
لانجعلهم فداء شا كسير الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا — مفخرة  
نزهى بها على الاجانب و حلية يزدان بها صدر برطانيا انظر واماذا  
يكون الجواب اذا خيرنا بين أن نترك شا كسير أو بلاد الهند — أن  
نكون لم نمتلك قط شا كسير أو لم نمتلك قط امبراطورية الهند أنا أعلم  
ان رجال السياسة و الحكومة يفضلون الهند و لكننا نحن لنا الحق أيضاً  
فى أن نختار ما نراه أفضل فنقول سواه حكمتنا الهند أو لم نحكمها فلا  
غنى لنا عن شا كسير ! استذهب الهند يوما ما و لكن شا كسير لا يذهب  
بل ان لشا كسير فضلا عن مزية المجد و الفخار و تهذيب النفوس  
و الاخلاق فائدة مادية عملية و هى انه الجامعة الكبرى و العروة الوثقى  
لشقى طوائف البريطان فى أنحاء المعمورة و سيجىء يوم تظل جزيرتنا  
هذه لاتفى من أبناء برطانيا الا الجزء الاخس و سائرهم مبعثر فى نواحي  
الكرة مبدد فى جوانبها و اذا كان ذلك فما الذى يقرب بين هذى  
النفوس المتدبرة و يؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة فيخضر بينهم اثرى  
و يتحلى و يشرق الجوينهم و يتلأأ و يصبحون بفضله أمة واحدة ؟  
ماذاك الذى يكون قطباً تدور حوله مصالحهم و أوطارهم و كعبة تشرئب  
نحوها أعناقهم و أبصارهم ؟ و بماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره

ونصابه ويستحکم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟  
أبالحكومة ولائحتها أم بالوزارة واقتراحاتها أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟  
كلا ثم كلا ! بل بشا كسير هذا فهو الملك الا كبر الحاكم على جميع  
طوائف الانكليز في سائر الانحاء والارجاه الذي

يؤلف من أعناقهم فكأنما يؤلف من أعناق وحش منفر  
الذي يفضله نصيح وأمريكا شعباً واحداً على رغم ما أتته الحكومة  
من التفريق بيننا وبينهم وما هو في الحقيقة الا انفصال ظاهري سطحي  
وشا كسير الملك الذي يضمنا جميعاً تحت صولجان واحد وراية واحدة  
الذي ليس في قدرة الحكومة ولا البرلمان كلا ولا ألف حكومة وألف  
برلمان أن تخلعه ؟ ولن يبرح الرجل الانكليزي يقول لصاحبه وجاره  
والمرأة الانكليزية تقول لرتبها وجارتها في الهند وفي كندا وفي جامايكا  
وفي استراليا نعم شا كسير هذا رجلنا . نحن أنتجناه والينا ينسب  
وبفؤاده نشعر وبذهنه نفكر ونحن واياه من طينة بعينها ومن دوحه  
واحدة . ولاهل السياسة ورجال الحكومة ان يتدبروا ذلك لوشاوا

## المحاضرة الرابعة

### البطل في صورة قسيس

لوثر — البروتستانتية — نوكس — اليوريتانية سيكون كلامنا اليوم عن البطل في صورة قسيس . والقسيس في مذهبي نوع من النبي إذ لا بد من أن يكون منظوياً على نور الوحي والقسيس دليل الناس في مذاهب الدين وقائدهم في مناهج العبادة . والواصل بينهم وبين السر الخفي . فهو وزيرهم الروحاني إذ النبي أميرهم الروحاني والقساوسة ووزاؤه وهو (القسيس) العارج بهم إلى السماء عن طريق الأرض الصاعد بهم إلى الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارض الخيرات والحسنات وهو أيضاً في اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب إلى الازهان وأشبه بالذنيويات من عبارة الانبياء والرسل : يترجم أسرار السموات — أو ماسماه جيتا (السر الجلي) الذي لا يكاد يراه إنسان فكنا — إلا من اصطفاه الله — ازامه كما قيل

ياشاهداً يرنو بعيني غائب ومشاهداً للأمر غير مشاهد

هو نبي عار من روعة جلال النبي وهول مهابته يشرق له في نواحي المعيشة اليومية سراج أقل وهجاً من الشهاب النبوي وأسكن لألاء هذا ما يجب أن يكون صفة القسيس الكامل وكلنا يعلم أن الكمال نادر وأنه

ينبغي الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعة . فلما أن يكون قسيس مجردا من كل هذه الشروط غير محاول أن يكون كل ماوصفت ولا متيمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه

\*\*\*

كان لوئار ونوكس قسيسين حرقه وقد أديا الوظيفة في أمانة وصدق وأولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية أعنى مصلحين وربما وجد في أيام السلم من القسوس من يساؤون لوئار ونوكس في حسن القيام بشؤون الوظيفة وصدق النهوض باعبائها — يستزلون هدى الله على عبيده ويحدون بركب الفناء في سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ولكن إذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت وقامت فيها القهم والعقبات . والموارط والهلكات . ودجت الخطوب وأظلمت الفتن . وأزمت الكروب وتشنعت المحن فليس القسيس الذى يسير بنا في هذه الطريق سيرة النوقى في البحر ذى الصخور والحجارة تجافى بها النوقى حتى كأنما يسير من الاشفاق فى جبل وعر ليس الذى يساور بنا تلك القهم ويوائب . ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب إلا أكبر من غيره — ولا سيما فى نظرنا نحن — وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذلول الركوب ولا جرت سفينته على يم ساكت مطمئن تحت ریح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة

ولكنه نزل باناسه سوح (ساحات) القتال في زمن فوق نائرة وخطوب  
طائرة وحروب دائرة . وصروف جائرة . وأمور باثرة . ونفوس  
حائرة . فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث انهما أكبر  
مصلحيننا . أوليس كل مصلح صادق قسيماً قبل كل شيء بطبيعته ؟  
وكيف وانه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين . وجور الجائرين  
ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وان

يد الله كانت فوق أيديكم التي أرادت بنا في الظنون الكواذب  
أليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة — كاهناً يهتك يبصره الشبهات  
عن حقائقها — أعنى قسيماً . واذا لم يكن قسيماً قبل كل شيء فلن تراه  
من الاصلاح والمصلحين في شيء

وكا رأينا أعظم الرجال في مراكزهم المختلفة يبنون الأديان —  
الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية العقائد الحيوية الجديرة بأن يتغنى  
بها أمثال داتى والأفعال الخليفة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير — نرى  
أيضاً عكس ذلك أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضاً من الضرورات  
وحرى أن يكون من أعمال الابطال ومفاخر العظماء . وعجيب أن يكون  
ذلك ضرورياً ولكنه في الحقيقة ضرورى . حتى ترى نور الشاعر —  
ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض  
الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط  
ولولا المصلحان القديس (ومينا كيس) والرجل الشديد الباس .

الصعب المراس (ثييار دايماس) ماتر نم ذاتى . ولولا ماسبق شا كسير  
من أعمال الأمم ومساعى العالم من (أودين) الى معاصره (والترالى)  
مانطق شا كسير . بل ان الشاعر الكامل لدليل على أن عصره قد بلغ  
حد الكمال وانه قد أوشك أن يتهى ويهىء عصر جديد ودولة جديدة  
وحال جديدة . فلا بد اذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة  
ولا شك أنه قد كان خيرا لنا وأجمل لو أمكننا أن نقلت تلك الفتن  
والثورات وتتحاى هذه القلاقل والاضطرابات . ونسير أبداً السير اللين  
الرفيق على أنغام الشعراء . يروضنا شجى غنائهم . وطرب حدائهم .  
كما كان يفعل (أورفيس)

حيث استفز الراسيات بلحنه أورفيس واستدنى القطا الحذرات  
ودعا الوحوش النافرات فاقبلت خضع الرقاب نواكس الهامات  
وكان خيرا لنا إذ يؤاتنا غناء الشعراء لو انا سرنا فى طريق السكينة  
والامن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم . يصلحون  
من أحوالنا يوماً فيوماً . لقد كان حسبنا والله ذلك . ولكن أبت سنة  
الطبيعة إلا أموراً أخرى . إذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات  
فى طريق الحياة الدينية بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من أسباب  
الرقى عقبه وعائقاً وقيداً لامناس من خلعه واطراحه . وفى ذلك ما فيه  
من الجهد الجهيد والمشقة وعجيب والله كيف ترى الخطة الدينية والنظرية  
الروحانية التى كانت بالأمس تشمل العالم طراً وتسع الأمم جميعاً ويرضى

بها بمسام الرضى ذهن ثاقب دقيق كذهن داتى تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر وموضع تكذيب وإنكار . وسخر وإصغار . شبيهة عندهم بنظرية (أودين) ! كان داتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها فى قصته وتلك الإلودية والجمال . ولكن لوثر لم يرد ذلك ولا صوبه . فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الأيام كاثوليكية داتى حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لاشئ يبقى !

أنا لأحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا العصر فان كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخطب مضطرب مشوش ولكنى أقول على الرغم من ذلك ان ارتقاء النوع حقيقة لاشك فيها وبرهانها باد فى طبيعة الاشياء . وذلك أن كل انسان فضلا عن أنه متعلم فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهبه الله ماصنع السلف وبنفس هذا العقل يكتشف أموراً جديدة ويبدع ويبتكر . وليس انسان قط يخلو من ملكة الابداع والاختراع . ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقد جده حدوك النعل بالنعل بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره فى الكون ويعد مدي رأيه فى الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية وما كان لرأى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه . ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرئ يزيد رأيه فى الكون على رأى جده اذ يخطئ بعض ما كان يراه ذلك الجد ويراه غير منطبق على حقيقة

حديثة الاكتشاف . هذا تاريخ كل فرد وهو يظهر في مجرى التاريخ العام مضاعفاً أعظم تضعيف حتى يبدو في هيئة الانقلابات الكبيرة والثورات الخطيرة . ولقد كان ذاتي بحسب أن في نصف الدنيا الآخر جبلا في المحيط يظهر الله فيه أرواح المذنبين قبل ادخالها الجنة وهو ما وصفه في قصته وسماه جبل التطهير . هكذا كان يرى ذاتي ويعتقد فلما ذهب كرستفور كولومباس الى ذلك النصف الآخر من الدنيا لم يجد في بحاره ذلك الجبل الذي كان ذاتي يعتقد وجوده هنالك ! افترى الناس بعد ذلك يصدقون قول ذاتي ؟ كلا . وهذا حال سائر المعتقدات في هذا العالم وحال ما ينشأ عنها من المنظمات الدينية والديوية

فاذا أضفنا الى ذلك الأمر المحزن وهو أنه اذا مرضت القلوب وهنت العقائد ونخر الشك في عظام اليقين فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ونجمت هنا وهناك الاغلاط والمظالم والمصائب ومدت الفتنة أسبابها وأخذت الثورة أهبها . وشمرت جليباها . وما زال من البديهي انه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده . فاذا ضعف اعتقاد الانسان فلم يكن له من عقيدته هو باعث على الاعمال بل أصبح يجرى في جميع امره على مذهب العرف السائد وسنة العادة المتبعة مخضعاً رأيه لرأى الدنيا جاعلا ارادته رديفاً لارادة العالم وفكره جنياً لفكر الملائ . فما هو والله اذذاك الا عبدواً سنير وبالحطأ فيما يسند اليه المخلوق وجدير . وهو احد سواق الفتنة . وحاداة الثورة يضرب عجزها وبأخذ بناصيتها الى اليوم



الموعد . والاجل المحدود . وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا اخلاص ناظراً الى ظاهره الكاذب فقط الا وهو اثم جديد يلذ لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية . ثم تتراكم الآثام حتى لا تطاق وحتى تنفجر عن الثورة انفجار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لايؤمنون بكاثوليكية ذاتي من حيث معانيها . ولا يقصدونها لما افسد الشك والكذب والعمل المنكر الحديث من مبانيها . اتيج لشمها من لوثر ممزق . ولنظامها مبدد ومفرق . وقضى ربك على العيشة الاقطاعية تلك العيشة الموثقة البهيجة التي ابداع صفتها شاكسبير أن يكون ختامها الثورة الفرنسية . وانما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانهيار البركان تم لاستقرار الأمور الا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق

وانه لمن البلية أن تقصر نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة فلا نبصر في آراء البشر ونظاماتهم الا انها مشتبهة ملتبسة وقتية رهينة بالفناء والموت والحقيقة غير ذلك اذ نجد أن الفناء هنا انما هو فناء الثوب لالجوهر والموت موت الجسم لا الروح . وكل اتلاف بسلاح الثورة انما هو خلق جديد على نظام ابداع . ونطاق أوسع . فكانت الوثنية الأودنية شجاعة وبسالة . وجاءت النصرانية خشوعاً وضراعة وما الحشوع الا ضرب من الشجاعة أشرف وأكرم وما من رأى جال في صدر الانسان جولة جد وإخلاص عن عقيدة صدق وإيمان الا وكان في وقته نظرة صادقة من

الانسان في صميم الحق فيها عنصر صدق ما يزال على تجدد الأحوال  
جديدا فهو ذخرا لنا باق على كرم الجديدين . وتعاقب الخائفين . ثم أليس  
من الجور والسخف أن نرى أن جميع من خلق الله من الأمم في جميع  
الأزمان والأمكنة مخطيء ضال الانحن . وأنه ليس في خلق الله غابراً  
وحاضراً من بات على هدى من ربه الانحن وان جميع الأمم والشعوب  
ضلوا وخابوا لكي نصيب ونفلق نحن - الفتة الضئيلة القليلة . وان جميع  
تلك الأمم إنما ساروا منذ بدأ الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية  
لم يك زحفهم نحو الخندق إلا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة  
فيكون لنا ثمت من جثثهم جسر نعبه عليه إلى المدينة المحاصرة فتأخذها  
وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون أنهم سائرون  
على جثث جميع من سلف من القرون الى أمد النصر والظفر، ولكن  
ماذا عسى أن يقال اذا هم وقعوا كذلك في الخندق وصاروا أجسادا ميتة  
وكذلك أرى في فطرة الانسان أنه ما برح يحسب فكره أمام الأفكار  
ورأيه خاتمة الآراء . ويمضى على هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر أن  
جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر إنما هم جنود جيش  
واحد أدرجوا في سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا أغنى  
به عالم الظلمات والباطل . فقيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد  
العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضاً لمجرد اختلاف في اللباس والزبي ؟

الاكل الأزياء حسن مازرت عراه على ذى مرهوه ونجدة . ومرحبا  
بالسلاح كله على إختلاف نوعه وشكله من العمامة العربية واليمايى المرفه  
الى معول «ثور» يضرب به الجان والمردة . وما زنجرة لوثر فى حومة  
الحرب : بالجان داتى من اليراع والقصب . الاعون لنا لا علينا . وكلنا  
تحت ذيك القائد وذاك اللول

«وبعد» فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أى ضرب من الجهاد  
هو وكيف كان فيه بلاؤه ولوثر لاتنسوه كان من أبطالنا الروحانيين —  
نياً لامته وزمنه

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لاتكون الا فى مستقرها  
وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد (عليه السلام) ومما امتاز به  
الأنبياء عامة شدة الانكار للوثنية . وهو أكبر مسائل الرسل . وعبادة  
الاوثنان الميتة كاله هو ما لايسكتون عنه أبدا ولا يطيقونه . بل لايزالون  
يشددون النكير عليه ويسمونهم بالدغ مياسم القذع والقذف . وهو  
عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر . وهذا جدير بالتأمل . وكلمة  
(ايدول) أصلها (ايدولون) ومعناها الشئ المنظور أعنى العلامة أى  
الرمز فليس معناها اذن آله بل رمزا للآله . وجدير بنا أن نشك هل  
كان قط إنسان مهما بلغ انحطاطه وعماه رأى فى ذلك الصنم أكثر من أنه  
رمز؟ أنا لا أظن أن مثل ذلك الانسان كان يحسب أن الشئ الذى صنعه  
يدينه هو الآله بل كل ما يحسب هو انه يمثل الآله وان الآله كائن فيه

بشكل ما . وإذا كان الامر كذلك حق لنا أن نسأل أليست كل عبادة أية كانت هي عبادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة . وسواء تمثل الآلهة للعين الخارجية في صورة منظورة أو للعين الداخلية أعني للذهن أو للخيال فأنما هو فرق سطحي لاجوهري . إذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهي أن هناك شيئاً ينظر — بالعين أو بالذهن — دليلاً على الآلهة أعني وثناً . وليس يخلو أروع الناسكين وأولم المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله ولولاها ما وجد إلى العبادة سبيلاً: وكذلك كل العقائد والمثل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء منظورة ولا تيسر العبادة قط إلا بالرموز — بالآوثان وعلى ذلك نقول أن كل دين وثنية . وإنما بعضها أشد وثنية والبعض أقل

أين إذن شرها ؟ أما أنه لا بد من أن تكون منظوية على شر كبير والاف كانت ملاحية من انكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه . أجل لما نادى الوثنية بغبضة كل ذلك البغض إلى الأنبياء ممقوتة لديهم . ولا أحسب أن أكبر اسخط نبياً على الوثنية وملاً صدره غيظاً وحقاً ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله في ذلك الصدد ويصرح به للغير . فإن أحط وثني من عباد الكواكب أو الأصنام كان كما رأينا خيراً من الحصان الذي لم يعبد شيئاً ! بل لقد كان في عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد . شبيه بما يحمد في الشعر أعني أيناس الجمال الإلهي

والمعنى الكبير في النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الاطلاق .  
فلساذا ياترى ينقم عليه النبي كل هذه النعمة ؟ ان أحقر وثنى عاكف  
على صنمه ليس اذا امتلأ صدره ايمانا بهذا الصنم الاجديرا بالرحمة  
لا الابعاض وان كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاجتباب ان شئت  
ليمتلىء باعتقادها قلبه وليستتر بها وعاء ذهنه الضيق المظلم أو بالاختصار  
ليؤمن بصنمه الايمان كله يكن في ذلك خير له أو بعبارة أخرى ماهو  
حاضر في ذلك الوقت من الخير ويمكن . ثم دعه وشأنه آمننا في  
سربه ماضياً على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بأفتها الكبرى . وهي ان الايمان بها  
يكون قد تطرق اليه الفساد في أزمان النبوة . ويكون الكثير من الناس  
قد أدركوا بعض ما أدركه النبي من ان هذا الوثن إنما هو قطعة من  
الخشب وينكر النبي هذه الوثنية . والوثنية المنكرة هي الخالية من  
الاخلاص والصدق لما أكلت الشكوك قلبها ونجبت الشبهات لها .  
فبينا يتشبث بها الوثني اذ يخيل اليه أنه يتشبث بطيف الخيال . واشباح  
الظلال . وهذا لعمرى من شر البلية وأسوأ المحنة . ولقد قال كبريخ  
« انكم لاتعتقدون وانما تعتقدون انكم تعتقدون » ، وذلك هو الفصل الأخير  
من رواية الأديان والعقائد . وآية دنوالموت واقتراب الهلاك . وهوشيه  
بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات وليس في طاقة  
الإنسان ان يأتي جناية أظلم . وموقفة أشنع . ولائها أفسر - وجرما

انكر — وما هي الا رقدة العقل وشلل النفس . وضياح الاخلاص  
والصدق . فلا عجب اذن ان ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ الى الله منه  
ولا أجد لوثر في أمر الأصنام وتكسيرها الأكأى نبي من الأنبياء .  
وما كان بغض محمد (عليه السلام) لآلهة قريش المصنوعة من الخشب  
والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من  
الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وانه لشأن البطل  
أيما كان وفي كل زمان ومكان ان يرجع الى الحقيقة ويعتمد على الاشياء  
لاعلى ظواهر الاشياء . وبقدر حبه لحقائق الاشياء واجلاله اياها اجلالا  
ناطقا يصدح به صوت الشجر ويسجع أو اجلالا مفعجا يجيش به  
الجنات ويعجز عنه اللسان . يكون مقته وكرهه لظواهر الاشياء  
مهما صقل التموه من أطرافها وهذب التزيق من حواشها  
ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتية  
عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبياً . وهي في نظري نبوة القرن  
السادس عشر وأول ضربة في مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب  
والوثنية وهي تمهيد لجلد صالِح مستقبل سيكون حقاً ويكون مقدساً !  
يظن الذي لا يدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه  
عبادة الأبطال وجعلها أساس الخير الديني والديوى ترك الثقة بزعماء  
الدين وعدم الايمان بهم وطالما نسمع أن البروتستانتية أوفدت عصراً  
جديداً شديد الخلاف لجميع ماسبقه من العصور — «عصر الرأي

الشخصي، كما يسمونه وإذ كانت البروتستانتية ثوراناً ضد البابا أصبح كل فرد بابا لنفسه . وعلم فيما علم أن من أول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو امام ديني، وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون أولم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامه دينية بعد ذلك من المستحيلات؟ أنا لا أنكر أن البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما اليهما . كما لا أنكر أن اليوريتانية الانكليزية التي كانت ثورة ضد الملوك والأمراء إنما هي الفصل الثاني من الرواية التي أول فصولها البروتستانتية وإن الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التي كان من شأنها فيما يرى ويظن أنها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية — الأرضية والسموية — أو جعلت أمر نسخها قضاء لا بد من تنفيذه والبروتستانتية هي الجذر الذي عنه تفرع تاريخ أوروبا الحديث وتشعب لأن الروحانيات ما برحت تنقص في العمليات والروحاني مبدأ العمل وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « باللساواة » « باللائخاء » « بالحرية والاستقلال »، وأصبحنا ولدينا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الانسان للانسان في الدنيويات والدينيات ولو ان الحقيقة كذلك لتناهى يأسى من الدنيا وأريقت صباية رجائي . ولكن أرسخ عقائدي أن الأمر ليس كذلك . ولولا الحكام أخيار الحكام — الدنيويون والدينيون لاصبح أمر الناس فوضى . وشر الامور الفوضى . ولسكنى أرى

البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية  
حرة صادقة ومنشأ نظام . وصلاح وأحكام . وأراها ثورة ضد أشرار  
الملوك وكذبيهم . وأراها الخطوة الاولى إلى اقامة أحرار الملوك بيننا  
وصلاحهم ! وهذا يحتاج إلى قليل من الشرح

ولنذكر أولاً أن أمر «الرأى الشخصى» فى العبادة لم يك بالامر  
الجديد فى العالم ولكنه كان فى تلك المدة جديدا . نعم ليس فى البروتستانتية  
شئ جديد فى جنسه وإنما هى رجعة إلى الحق والجوهر بعد الاقامة على  
الباطل والظاهر الكاذب شأن كل رقى وتعليم صالح . ولا أحسب الا أن  
حرية الرأى الشخصى ما برحت فى الناس من قديم الازل لم يخجل منها جيل  
من الاجيال . وما أظن أن داتى كان قد عمد إلى عينيه فقلعهما ولا إلى  
حركات ذهنه فغلها وقيدها . ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حرا طليقا وان  
أصبح قوم فى أغلالها من بعده مكبلين وفى أصفادها موثقين حرية الرأى  
ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والاغلال ولا أى قوة  
بشرية ترغم إنسانا على الايمان بهذا الامر أو الكفر بذلك . وإنما رأيه  
فى ذلك سراجة الدائم الاشتعال الذى لا يخبو الا مع أفول كوكب حياته . وبه  
يستنير ويهتدى بفضل الله وحده ! وان أشقى الضالين الذى يامر بالاعتقاد  
الاعمى والطاعة المبهينة لا بد من أن يكون قد أقنع نفسه أولاً بأنه لاحق لها فى  
طلب الاقناع . نعم و«رأيه الشخصى» هو الذى أشار عليه بذلك  
كاصوب ما يؤتى فمثل هذا الرجل حر الرأى فى ضلاله ولكنه حر الرأى .



وهو فوق ذلك مخلص . وما دام في قلب المرء اخلاص فالرأى الشخصى  
جاره في ذلك القلب وحليفه . والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع  
ما هو مطوى عليه من النور والهدى . بينما ترى الرجل الكاذب الذى  
يحاول جهده أن « يعتقد أنه يعتقد » يسلك طريقاً آخر . فللاول تقول  
البروتستانتية « خيراً صنعت ا » وتقول للآخر « ويل لك ا » فما هو كما  
ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء . وإنما كما قلت عودة إلى جميع  
ما قيل من أقوال القدماء « كن حراً . كن صادقاً . كن مخلصاً » لقد كان  
محمد ( عليه السلام ) يؤمن بملء قلبه . وكذلك كان أودين . وكذلك  
جميع المسلمين والنصارى وصادق الوثنين . لقد رأى كل فريق منهم  
مذهبه الذى تبعه « برأيه الشخصى »

وانى لا قول ولا حرج أن الاستمرار على أعمال الرأى الشخصى  
لا ينتهى قط بالاستبداد الأنانى والتفرق والتقاطع بل ينتهى بعكس ذلك  
بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق  
ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الايمان وما ثورة المرء ضد  
الباطل الاميل منه الى ناحية الحق . وجنوح الى اللحاق بزمرة أهل الصلاح  
والتقى . فأما أهل المظاهر الكاذبة فحال أن يكون بينهم صلة أو رابطة  
وكيف وفى جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شىء ولا  
آمن بالحقائق لا بالباطيل واذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء  
أفترجوان يكون منه على اخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا انه لا يأنلف

بالناس - انه زجل فوضوى . والوحدة أيدى الله والجامعة لاتكون إلا بين اخوان الصدق وأولى الاخلاص .

أما من حيث قولهم ان كل إنسان يعبد الله « برأيه الشخصى » فان معظم الناس ليس لهم آراء شخصية وإنما الرأى هبة الله يهبها لأعظم الرجال ثم لا بأس على غير العظماء ان يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكأنهم مبتكروه وقانصوا شريدهته . ومخترعوه ونابشوا دفينته وحسب المرء من الابتكار والاختراع . والاكتشاف والابتداع . ان يصح ايقانه . ويصدق إيمانه . فاذا كان ذلك . فاضره ان لم يكن من الرأى بمنزلة كاشف خبيثته . وفاض لطيمته . ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص بل ان له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ماهو فاهم للرأى الذى يعتقد ويستنبطه . فان فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشراكة مع تلك العظيم فى احدائه . وكذلك لكل امرئ ان يكون متى شاء مخلصاً صادقاً أعنى مبتكراً بمعنى ما . بل لقد أوجد الله أمماً وشعوباً كل أفرادها مؤمن صادق تلك أمم الحق وشعوب الايمان وقرون الصدق والصلاح وأعصر البر والفلاح . أعصر مباركة وافرة الثمرات . كثيرة الخيرات . جمّة المبررات . إذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل فكل شجرة عمل يانعة الثمر . وكل لقحة صنع غزيرة الدر . وحاصل الجميع جم وافر . بما كان كل فرد يضرب إلى ناحية واحدة . ويؤم غرضاً بذاته وأمداً بعينه . هذه أعصر الربح

## لا الحسران وأزمن المزيد لا نقصان

ولد لوثر بيلدة إيرلين بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر  
خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ وقد لبست تلك البليدة بمولده حلة نغار تبقى  
مالبس النهار حلة الشمس وتاج مجد يلبس ماكلل البدر هامة الليل . وكانت  
أمه وأبوه وهو صانع فقير في بعض معادن البقعة المسماة «موهيرا» قد  
ذهبا الى سوق إيرلين الشتوى فأخذ السيدة المخاض في حومة السوق  
وغماره . فعازت بدار حقيرة وولدت غلاماً سمي مارتين لوثر . عجيب  
والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة «فولوث» وبعطها الى  
ذاك السوق لتتقى حاجاً من البيع والشراء - عله لتبيع ثمت ماكانت  
نسجت من ثياب الصوف ولتشتري ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة .  
ولعل في ذلك اليوم لم يك في طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأناً  
وأخمل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فإذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقه  
في جانب دينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل . وشب لله  
شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقبلة شعاعه في ذلك اليوم ولد  
بطل أطال سكان الأرض ارتقابه وخوله التاريخ احتفائه وترحابه .  
عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم  
عصراً . وأسمى منزلة وأرفع قدراً وقع منذ الف وثمانمائة عام .  
وهو حادث الصمت اذاه أولى من الكلام وما عساه يقال في مثل ذلك

المقام ! ويزعم الناس بعد لوثر ومولده أن الأرض قد صفرت من المعجزات . وانقضت من الآيات كلا وأسما الله انما العالم عريق في الاعجاز والمعجزة من نبات ذياكم الثرى

وأرى أنه كان ملائماً جداً لوظيفة لوثر في هذا العالم وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربى فقيراً كأفقر عباده . وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متمسولاً بالغناء من دار الى دار . وكان البؤس رفيقه والكرب شقيقه والشقاء أبداً مجاهره وجهاً لوجه والنيا تكاشفه الكره والعداوة لاتخاذ قط بزخارف الباطل والكذب . وبارق الأمل الخلب وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة غلاماً خشن الهيئة ضعيف المنة في جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء وشعور شب في ملتطم أمواج البلاء . ومصطدم أواذن الشقاء ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحة الحقائق . وهذا واجبه في الحياة أن يعرف الحقيقة ثم يرجع اليها العالم الضال بما قد طال في الباطل لجاحه . واشتد بالزور والكذب الهاجه ا غلام نشأ في مهد العواصف وربى في حجر القروالزمهرير . وغذته مرضعات الهم والتكد . وغازلته بنات الباساء والسكد . فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثور »<sup>(١)</sup> من ضمير اسكاندينافيا . وكيف وانه ما انفك يضرب في شياطين الافك والزور . وبألسة المنكر والفجور . كما كان

---

(١) آله الرعد عند الامم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره

يفعل « ثور » بالجان والمردة حتى هزم كتاب الكذب والحال وكشف  
جنود البدع والضلال

ولعل الأمر الذي كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه  
« الكسيس » بالصاعقة . لقد كان لوثر أظهر في زمن طفولته وصباه أشد  
الميل للدرس والمناكرة رغماً من كارتات الفقر ورجا أبواه أن يكون له في  
الرقى قسمة فاركبه طريق الدراسة القضائية لأنها الطريق اذ ذلك الى  
النهضة والصعود . فرضى لوثر بذلك رضى ككره وأساغه مساع الشجى  
وأغضى منه على القدى

فلما كان في التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « الكسيس »  
ليزورا أبويه في بلدة « مانسفيلد » ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فاصابت  
صديقه فاذا هو تحت قدميه ميت فناجاه مناجى العبرة من أعماق نفسه  
« تبألهذه الدنيا وقبحها لهدى الدار . ويا بؤس للحياة ويارحمتا للانسان ! ماهذه  
الحياة أتزول في لفتة الجيد ولمح البصر وتذهب كالقرطاس طوته ألسنة  
التيران فتضيع في مجاهل الابد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك  
والسلاطين والقيصرة ؟ كلهم في التراب تراب ! بينما هم في حلل عزم  
رافلون . على الارائك متكئون . تفغر الأرض فاهافاذا هم في بطنها ثاوون .  
وبالعفر والرقام مكحولون . والمدر والحجارة موسودون . بلى كل من عليها  
فان ويبقى وجه ريك ذو الجلال والاكرام . ثم أن لوثر عزم من ساعته  
على الإنقطاع لله وعبادته طول عمره وأصبح قسيس كنيسة القديس

أوجاستين ببلدة «أرفورت» برغم آيه والكثيرين من معارفه  
ولعل هذا أول شعاع برق في تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط  
ظلمات. وقد حدث عن نفسه أنه كان في تلك المدة قسيساً صالحاً يجد  
ويجتهد ليؤدى وظيفته وليدرك السعادة ولكن عبثاً حاول فما خف  
مصابه ولا قلت شقوته ولكن تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد.  
وما أشقاه لا من كد في عمله ولا نصب ولا من مهانة العمل وذله أتاه  
البلاء وإنما لسقوط نفسه اذذاك في أسحق مهاوى الشك والخوف —  
الشك في أنه على الهدى والخوف من عذاب الله في الآخرة. وقد قام  
بخطره أنه قد دنا أجله وشر من ذلك أنه قد دنا عذابه الأبدي. أليس  
في ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعته وإخلاصه ؟ لعله جعل يقول  
في نفسه «من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى ما عرفت  
إلا الشقاء والهوان. كلا ذلك مقام دونه الشمس. » ولم يكده يفهم كيف  
أن في الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة لله من النار.  
فن ثم هوت نفسه في اعتم ظلمات البؤس وجعل كائماً يرنح به على  
شفا جرف هار.

وكان عثوره على نسخة قديمة من الانجيل في مكتبة أرفورت حسنة  
من أكبر حسنات الزمن. ولم يك قط قبلها أبصر الانجيل فلقنه درساً  
خلاف درس الصيام والتهجد وأعانه على ذلك أخ في الله قسيس فعلم  
لوثر أن المنقذ للانسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل

الآيات . وإنما هو الله ومرحمته . وذلك أقرب الى العقل وأوقع في الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة . وأنشأ من مغفرة الله في ارسى طود وهضبة . ولا بدع أن جعل يقدر الانجيل الذي أسدى اليه تلك المنة فأجله كما يحل مثله كلام الخالق . وعزم على أن لا يجحد عنه اصعباً وقد كان منه ذلك حتى لقي ربه

فكان ذلك خلاصه من أسر الشكوك والريب ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع وانتقاله من الضلال الى الهدى . فازدادت نفسه من يوم الى آخر غبطة وصفاء . وراحة ورخاء . وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للبلاد ما كان مكتوماً قبل في زوايا صدره من المواهب الالهية . والصفات العلية . فأعظمه الرؤساء وبوأه من الدرج ما هو أهله ووكلوا به أمر البعث فكلمها أب من رحلة كلفوه أخرى . ثقة منهم فيه بالحزم والصدق . ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » وكان عاقلاً عادلاً أستاذاً في جامعة « وتنبرج » فاحسن اداء ذلك العمل كما أحسن البلاء في جميع ما ينطبه من الامور وجعل من يوم إلى آخر يعلو في أنظار الناس ويتغلغل في نفوسهم

وكان في السابعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لأول مرة وكان أثارها برسالة كما قلت من ديره . ولا إخال الا أن لوثر يحب كل العجب لما أبصر من حال البابا « يولوس الثاني » وسائر أحوال روما إذ ذاك . وكان ظنه أنه قد آتى المدينة المقدسة . عرش ولي الله

في الأرض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل فإذا هويين فسق وفجور .  
وغفلة وغرور . وويل وثبور . وبين أثم ووزر . وبلاء وشر .  
وباطل ومنكر . وما أحسب إلا أن هذه الحال السيئة قد بعثت خاطره  
في أودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه إلا  
لسانه . ولا أسلمها وجدانه إلى يمانه لقد علم أنه لا يبصر أمامه هدى  
ولا حقا . ولكن ماله ولذالك ؟ واني لرجل ضعيف مثله أن يصلح  
عالمًا ويقلب دنيا ؟ حقا أن لمثل هذا العمل لانسأنا غيره أعظم قدرا .  
وأكبر خطرا . وحسب لوثر أن يوفقه الله إلى هداة . ويسدد إلى  
خطة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه في خفية وغموض . فاما  
العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء والله في خلقه شئون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشانها وعاد إلى بلاده . نعم  
تركها وشانها ولم يتعرض لها إلا بعد أن تعرضت له . ولم ينقض  
عليها ويسطوبها حتى حاجته واستنارته . ومن أكبر فضل الله أنها  
حاجته واستنارته واستدعته بذلك إلى شن الغارة عليها والايقاع بها .  
إذ ماذا كانت الحال تكون وإلى أي شيء كانت تصير الأمور لو لم يثر  
لوثر ثورة الاسد المخدر في وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ويفل  
غربه ويكف منه عن العالم شرا مستطيرا كان يؤذن بالويل العظيم .  
والخطب الجسيم . والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت  
تلك البابوية تضرب في سنن غوايتها . وتمعن في طريقي عمياتها . من



غير ان تعترض لوثر في سبيله وتصادفه في منهاجه فتضطره إلى الجملة عليها؟ إنما الواضح لى أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه بينت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها . وإنما يجعل الأمر في ذلك لله شيمة الرجل المتخضع المتواضع الذى لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الامر من غير أن يكون ثمت موجب أو علة . بل يرى كما قلت أن حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويغنى بها جادة الحق ومنهج السداد . ولكن البابوية لم يكفها ما أتت فى سائر الجهات والامصار من التضليل والتغدير حتى هجمت على لوثر فى قريته الحقيرة فسامته خطة الحسف والضيم فابى . وآية الرجل الشريف أنه إذا سم الحسف قال لا بملء فيه ويبان ذلك أن البابا « ليو » العاشر احتاج المال وكان مبذرا متلافا فابتغاه من وجه حرام وطريق بمقوت إذ جعل يبيع الناس عفوا لله . وعفوا لله لا يحتاج إلى شفاعة بابا ولا بطريق . وما هو بالسلعة تباع فى السوق بالذهب والورق . وإنما هى بضاعة لأئمن لها الا الاخلاص الصريح . والتوبة النصوح . ودمع المنذب يقرع وجنتيه . وسنة يضرس سيابتيه . فان كان لابد من شفيع فالسيد المسيح وحكم التنزيل . وآيات التوراة والانجيل . ولكن البابا رأى الجهل فاشيا فى الناس فارسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الاوراق المدلسة المرذولة وكان يسميها أوراق الغفران ومع كل راهب صندوق فيقول للناس « من كان له فى الجحيم صاحب أو قريب فاحب أن يغفر الله

له وينقله إلى الجنة فلينبذ في هذا الصندوق قرشا . فانه لا يكاد يصل  
قعره حتى يطير الروح المعذب من مشواه في النار إلى انضمر مقامات الجنة ،  
ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه « تنزل » على بضعة فراسخ من بلدة  
« وتبرج » حيث كان لوثر فاصغى إليه كثير من العامة لسناجتهم وبلغ  
من شره ان بعض القوم بند طاعة لوثر في كثير من أوامره اتكالا منهم  
على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود . ففصح ذلك في احشاء  
لوثر ورأى انه قد آن له ان يثور في وجه البابوية الكاذبة ولم يخش  
الراهب « تنزل » بل قال « ان يشأ ربي وربكم فلاأصد عن مروته  
ولأنحتن اثلته »

ثم كتب رسالة ابطال فيها عمل البابا وطعن في خطته وأرسل صورة  
منها الى بطريق مدينة « ماجد برج » شيخ النصرانية بالمانيا . وعلق  
صورة ممضاة باسمه يباب كنيسة « وتبرج » فهب هذا النبأ مهب الريح في  
كل وجهة وطار في انحاء العالم الاوربي مطير البرق .

و ادبر الراهب « تنزل » فنزل بلدة فرانكفورت الواقعة على ضفة  
نهر « اودار » فكتب ردودا على اقوال لوثر ونشرها فتناول تلاميذ  
لوثر نسخة منها فاحرقوها بيلدة « وتبرج » وشمع البابا بذلك فقال متهاكما  
« لأخال ان لوثر هذا من نوايغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود  
والمطاعن وينشرها ويحيثه زعماء البابوية وانصارها وتقوم بينه وبينهم  
سوق المناظرة ويحمي به وبهم وطيس الجدال فيدمع بالحق باطلهم

ويدفع باليقين شبهاتهم وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفذ صبر البابا  
وذهب عنه ما ابقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة فنشر لائحة  
كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة وامر بكتاباته ان تحرق وبه ان  
يرسل مكبلا في الاغلال الى روما لعله ليحرق ايضاً . فيلقى من الجزاء  
مالقى القسيس «هاس» من قبله . ونعم المناظرة النار ما اخصر وما  
اسرع وما أقرب الى الغاية وحسم النزاع ! يا للظلم ويا للفجور !  
يستدعى البابا القسيس «هاس» ويعطيه عهد الله وميثاقه ان لا يمسه  
بسوء ولا يناله باذى . ويحضر «هاس» رجلاً لا مشاغبا شديد  
الخصومة ولا مشاكساً الدجدال . وانما رجلا سهل الشكيمة لين  
العطف سلس العنان فيودعونه سجناً أضيق من يياض الميم ثلاث  
اذرع في مثلها ثم يضر مونه عليه ناراً فيقطعو بصوارم اللهب صوتاً مرفع  
الافى طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون وسيعلم الذين ظلموا أى  
منقلب ينقلبون .

انا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر في قيامه الآن ضد البابا فان  
ذلك البابا المترف الكافر والوثني الاثيق الثوب السائغ الطعمة لما  
أوقد ناره لحريق مكتوبات لوثر ارجح بها حقاً وسعر بها غيظاً وحرماً  
في اشجع فؤاد كان اذذاك في العالم — اشجع فؤاد واضرعه لله واشده  
تواضعاً . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتاجج ولات حين اطفاء .  
وكأني بلوثر يقول في نفسه حينذاك «احرق يا هذا الرجل كتاباتي هذه

وما يريد بها الا الحق والهدى ولم يعمد بها الى غير الله وتسمى نفسك بعد ذلك امام الناس وخليفة المسيح في الارض ؟ اتجعل الجواب على هذه الاوراق احراقها وما فيها الا عظة لك وحكمة وتريد ان تحرق كاتبها ؟ أنت خليفة الله في ارضه ؟ كلا ! انت خليفة الشيطان ومثواك مشواه ودارك مغنى لابليس وجنوده وعش لخفافيش العمه والجهالة . وجحر لهوام السفه والضلالة . وانى لأشهد على لأثمتك تلك التى اصدرتها تقمة على بالكذب والجور وليس لها لى الا النار . ولتفعل بعد ذلك ماتشاء . ثم ان لوثر جمع من شيعته وانصاره بجمعا ورفعوا نارا فاحرقوا فيها لأئحة البابا واكثروا عليها الهتاف والصياح بمرأى من مدينة «وتنبرج» بل بمرأى من العالم اجمع . لك الله أيها البابا ! لبسما صنعت اذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة . فانها صيحة استيقاظ الامم واتباه العالم لقد طالما او غرت صدر المانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم . وحتى طفح ذاك الاثناء ولم يبق في قوس الصبر منزع . ولقد طال بالناس حكم الضلال وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان وقد آن للحق أن يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطمى الأصنام ومرجى الناس الى الحقيقة بعد طول الاقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظاء عامة . أولم يقل محمد «عليه السلام» للناس انما أصنامكم هذه خشب لا تضر

ولا تنفع . وهل كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له « ماهذه الأوراق التي تسميها أوراق العفو الا كذوبة وأضلولة وما أنت والعفو عن الناس إنما ذلك بيد الله ، إلا كمقالة محمد ؟ لله أنت يا لوثر أى كاشف غمة . ومنقذامة . وأى مرجم شياطين . وسيف على رقاب الظالمين أنت ! وبأبي أنت اذ تقول ولا تبالي نيران البابا ولا جيوش السلطان » إنما العفو بيد الله والأمر لله وحده . وإنما البابوية وما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية افك وزور وكيف وما أراها الا أثواباً مرقوشة . وأوراقاً منقوشة . وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة دينية . ورعاية روحانية . إنما هي حقيقة رائعة . وما دين الله وفردوسه . وجسيمه باباطيل كتلك ولا أ كاذيب . فهذا وحده أومن وبه اعتصم وعليه أقوم وفيه أضرب أو تادى . وأرسى اطوادى . وانى اذا فعل ذلك لأقوى منكم جميعاً . وعصمة الله أمنع للمؤمن من جميع ماتشيدونه من القلاع والمعازل وبأس الله من بأسكم أشد وكيد من كيدكم أقوى . وأنا وأتم بنصر الله كما قيل

كادوا وكدت فاذهقت مادبروا . إحدى هناتك ايما ازهاق  
أنا فى وحدتى بهدى الله قوى . وأتم فى جموعكم بالضلال والكذب  
ضعاف . أنا من طاعة الله مدجج فى أكمل سلاح وأحسن جنة وأتم من  
معصية الله فى اعمال رثاث واطمار رعايل منكشفوا العورات حاسروا  
المقاتل . وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها فى

السماء . واتم في باطلكم كالمتكى على الهواء والمعتمد على الماء .  
ثم جاء بعد ذلك حفلة «ورمز» وظهور لوثر هنالك ولعل هذا كان  
أجل مشهد في تاريخ أوروبا . والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدينة الحديثة  
والذى كان من أمر هذه الحفلة ان امبراطور المانيا شارل الخامس لما  
أعيته الحيل في لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات وكان قد عقد  
الحفلة للنظر في شؤون الولايات استدعى لوثر ليعرف ماعنده وليتهى معه  
عند حال . وكان المجلس حافلا بجميع الوجوه والاشراف وأمراء الدولة  
والولاة وزعماء الدين والملك . والى هذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من  
قريته ليسال إلا يزال مصرا على رأيه ؟ فيجيب نعم أولا . خصمان  
متواجهان . وقرنان متبارزان . أحدهما قوة العالم وزهرة الدنيا  
وجيوش الأرض . وثانيهما رجل فرد نبجل الصانع المسكين «هانز لوثر»  
قائما في نصره الحق . وقد نصح اليه الاخوان أن لا يذهب وذكروه  
بنا القسيس «هاس» ليكون فيه عبرة ومزدجر . فأغلق دون كلامهم  
أذنيه ومضى على عزيمته في الذهاب وصمم . وقال «تالله لأذهبن ولو  
أن بمدينة «ورمز» من الشياطين بقدر ما بها من الحصى » . وجعل  
الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرقاتها وهو سائر الغداة الى الحفلة  
أن أقم على مبدئك وتشبت برأيك ومذهبك واياك والانخذال والهزيمة  
وجعلوا يتمثلون له آية من الانجيل في ذلك المعنى . ذلك ماطلبه اليه  
أهل وطنه وهى هو في الحقيقة إلا طلب العالم أجمع — طلب العالم الذى

جهده اغلال الباطل وشفقة ظلمات الضلال واخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى — طلب العالم يصيح لوثر اغتأ أدركنا يا بطل الابطال فان مدار أمرنا عليك . وأرواحنا في يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم . وقام في المجلس خطيباً فتكلم ساعتين كلاماً سداه الحكمة ولحمته الاخلاص والصدق . أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن . وأن كتاباته بفضها من املاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله . فاما ما كان من بنات خاطره فذاك مليء بالعيب والخطأ بما أنه كلام بشر وأما ما كان مأخوذاً من قول الله فاساسه الحق وليس يبرأ منه يد الدهر . ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فانذا حضوا حجتهم زال لهم عنها وصار الى ما يحبون الى أن قال «انا لأخالف ما يأمرنى به العقل والنهى ويوحى الى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس . ذلك ما فى وسعى وطاقتى وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب وعلى الله أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل » الاترون أيها الاخوان أن هذه كانت اخطر ساعة فى التاريخ الحديث . وأن عليها قامت دعائم الدستور الانكليزى ویرلماناته . والحرية الاميركية واستقلالها . والثورة الفرنسية وتناجها فى أنحاء الأرض . نعم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطة أخرى لكان لها عواقب أخوى ! وكأنما العالم الاوربى كان ساعتئذ ماثلاً أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أتري لا ازال فى محنة

وبلاء يهوى بي النحس الى مساقط الجهل والشقاء أم يرزقي الله من ذلك  
الدهاء الشفاء . ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء . فاغتنب بمناعم  
الراحة والصفاء . بعد مخابث العيشة الكدره ؟

ومما يمدح به لوثر أنه تارفي وجه الدين ثورته وأحدث ذلك الانقلاب  
العظيم من غير أن يهيج زوابع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء . بل حقن  
الدماء في الابدان . والسيوف في الاجفان . ولم يحول اليزاع حساما .  
والقرطيس أعلاما . ولا استبدل من صرير القلم في الطروس صليل  
السيف في الرؤوس ولا من التناضل بالأقوال . التناضل بالنبال . ولا  
جعل الكلوم<sup>(١)</sup> موضع الكلام . والجلاد بدل الجدال والخصام . وقلبا  
نجد رجلا احدث أمرا جلا وهاج حركة هائلة الاغاله مما أحدث  
عائلات . والتمهه مما اثار محن جائحات . وهذه من مستلزمات الفتن  
والفتوق . ومستدعيات كل خروج عن الاوضاع المألوفة ومروق .  
وانما وفق لوثر الى ذلك بفضل ما لوتيه من الحزم والبصيرة . والحزم  
رأس بوارع الخصال . وكرائم الخلال . وداعية الصلاح .  
وسائقة الفلاح

ومن اكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح . وبها كان يميز الامر  
الاساسي الجوهري من غيره فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب  
الجديد أنه يعظ الناس في قلنسوته . ده كانت هذه سنة المذهب

---

(١) الكلوم جمع كلم وهو المرح



الكاثوليكي ومخالفة لمبادئ الملة الجديدة « فلم يعبا لوثر بتلك الشكوى بل قال « وأى ضرر في القلنسوة دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثا اذا شاء ؟ » وقد ذكر « ريشتر » لوثر فقال لقد كانت كل كلمة من كلماته كموعة حرية . وما أخطأ في قوله . ولعل أهم صفات لوثر هو أنه كان يستطيع أن يجارب فيقهر . ويقاقل فينتصر . وانه كان قطعة من الشجاعة . وفلذة من المرومة : ولا نعلم قط في التاريخ الحديث والغابر انسانا أشجع قلباً من لوثر . ولما قال في مدينة « ورمز » كلمته المأثورة وهي « لوان في ورمز من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك ل مجرد الافتخار والتباه كما يكون في مثل تلك المواطن . ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعترضون عباد الله في مسالكهم بالشر والأذى . ومن يذهب إلى الغرفة التي كان يكتب فيها لوثر ترجمته للانجيل يرى على أحد حيطانها بقعة سوداء — أثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن . وأصل ذلك ان لوثر كان جالساً في تلك الغرفة يكتب ترجمة الانجيل وكان قد نهكه الكد . واعياه الجهد . وبلغ منه المرض والصوم . وكان من أثر ذلك أن ترآى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه إبليس أتاه ليقعه عن عمله فثار لوثر ثورة جبار وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فاذا هو قد أمس ! وأثر الدواة في الحائط باق الى الآن آية ودليلا على أمور شتى . وان في قدرة أى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ويحل لنا مشكلها . ولكن اعتقاد لوثر أن الشبح القائم أمامه

هو إبليس ثم نهضته في وجه إبليس وقذفه إياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة وأقصى غايات البأس والنجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم فهو أحرى ان لا يهاب ملوك الأرض وجبارتها . وقد كتب مرة العبارة الآتية « الشيطان يعلم أن عملي هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة فلقد طالما رأيت الشياطين وتابذتها والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً . وأين هو من سطوة الشياطين ! فليعلم هذا الدوق أني لو شئت أن أدخل بلدة « ليبزيج » لدخلتها قسراً وعنوة وجست خلالها ولو أن سماءها تاطر أمثاله من الدوقات تسعة أيام ولأ . لك الله يالوثر أى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم

و شد ما يخطيء الذين يحسبون أن شجاعة هذا الرجل كانت ضرباً من البطش والفتك . وصنفاً من العناء والعصيان والخشونة والعجرفة . وما أبعداها عن ذلك . وأنا لا أنكر ان هناك ضرباً من قلة الخوف مصدره قلة العطف أو قلة التفكير . وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحقن الاعمى . كشجاعة النمر وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ أما لوثر فكان غير ذلك بته ولم أرتهمة أكذب من نسبة الفتك والقسوة إليه وكيف وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤادنى مرونة وبر . والنمر أن صادف قرناً أشد منه بطشاً فر هارياً . فإ هذه بشجاعة وإنما فتك وقسوة . ولست أعلم شياً أرق وألطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من أنفاس المودة والعطف تلك التي كانت أرق من

أنفاس العاشق في الحجر . وأنفاس النسيم في السحر . لله ما كان أرق  
هاتيك الانفاس وأعنى بها كلمات الرجل وما كان أصفاهها واخلصها من  
شوائب الرياء والكلفة وأشبهها بالعذب الذلال تتفجر به الصخرة للمساء .  
وهل كانت كآبته واطراقه ويأسه مدة صباه الا بعض آثار التفكير  
والانعاط والعبرة مما يكون عادة في القلوب الرقيقة والنفوس الجديدة  
الشعور الذكية الوجدان ؟ وهي حالة يصاب بها ذورا الرقة من الشعراء  
وقد اصيب بها الشاعر المسكين ولیم كوبر . بل لقد بلغ من رقة لوثر  
وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة . وعندى  
ان أكرم الشجاعة وأسماءها . بل أشدها وأقواها . هي المنبثعة من فؤاد  
كله لين ورأفة .

وكم لنا في كتاب لوثر المسمى «حديث المائدة» ذلك الذي جمعه أصحابه  
بعذوقاته من أقواله وكلماته من الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله  
فن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيده له من جلد في رقة . وصبر في حرقة  
وقوله انه استودع الصدية عند الله ولكنه لا يملك مع ذلك وجدا عليها قد  
أوقد لوعته . وهاج غلته . وكندا والتياعا . وحيناً ونزاعاً . ثم جعل  
وهو مشدوه «مدهوش» حائر ينظر في أعقاب روحها الصاعدة الى الله  
قد غابت في أثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت — ينظر دهشاً  
حائراً وحسبكم ذلك دليلاً على صدق الرجل واخلاصه وعلمه انه رغمًا  
من اختلاف الملل واقتراق النجل فانا معشر الآدميين لانعلم شيئاً ولن نعلم

وكل ما يدرك ازاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو انما ستصبح عند الله وان الله ارف بها وأرحم . وان خير الأمور له ان يسلم الأمر لله . فالاسلام دينه ومذهبه

ومن آيات عظمته انه أطل من نافذته مرة في جوف الليل فقال في نفسه وعجبا لهذه القبة الزرقاء وهذا الفلك الدوار وهذا السحاب الركام يا الله ما أروع وما أجمل . على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لادعامة الاقوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد وأمطر من السماء ماء فاخرج به نباتا وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها . ولما كان عائدا ذات يوم الى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقائق الذهب على قضبان الزبرجد . بركة تفتطرت عنها أحشاء الأرض ونعمة سلتها يد الله من اعقاد الثرى ومن آياته أيضاً انه أبصر ذات مساء عصفورا قد خيم في وكره على شجرة باحدى البساتين . فقال : عجبا لهذا العصفور ماراعه هول ما فوقه من هذى السموات أن يطمئن في عشه آمن السرب . ساكن القلب . مفوضاً أمره للخالق الذى مهد له في جناحه ووطأ له في كنفه . هذا وما زالت شذور المزاج تفصل نظام حكمه . وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلبه . وكذلك من كان قلبه أمين النواحي رقيق الحواشى . غزير مادة الحنان والحب . وقدما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير . وأمانة المروءة والبر . ثم أما ترون في حبه الشديد للوسيقى جملة تفاصيل

هذه الأيمال الكريمة . وجمع تفاريق هذه النزعات العالية . وكم من معنى لطيف . يعيا به البيان . ووجدان شريف . يعجز عن تأديته اللسان . أداه الينا لسان مزماره . وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول ان الشياطين لتفر من نعماته وتفقد عند وجود ألحانه ونبراته . فله أنت ايها البطل من جامع الضدين . ومؤلف النقيضين . بأس تسطوبه على الجن وأبالستها . ورقة جذبت بلبك نحو الانعام ومطرباتها . والالحان ومرقصاتها لها والله قطبان لروحك العظيمة . وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال . ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى في وجه لوثر عنواناً على خلقه . فهو وجه خشن الملامح تعرف في تنوء عظامه ووعورة أركانه معاني البأس والقوة . والنشاط والهمة . وفي العينين حزن في صبر ووجد في سكينته . وكآبة لا تكيف ورقة لا توصف وتلك أصل كل عاطفة رقيقة . ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبيل . وقد قلنا ان الضحك كان مغروساً في طينة الرجل ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا . وكان فيها ينابيع الدمع وبحاره . وخلصه وأناهره . وكان أساس حياته الحزن والجهد والاخلاص والجد . ولقد قال في أخريات عمره بعد مظاهره وانتصاراته له قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة . وان له عند الله أمنية هي أن يريحه من متاعب الوجود ويقبضه اليه . ومن عابه بكلمته هذه واعتدها عليه فقد أخطأ ! وما أحسب الا أن لوثر كان رجلاً كبيراً — كبير القلب

كبير العقل كبير النفس — رجلا من خيرة رجالنا وصفوتهم . ولا أراه إلا كالجبل الأشم أصم الصخور صلد الصفا وفي نقره وثغياته الماء الزلال . العذب السلسال . وعلى جوانبه الرياض تبسم نضارة . وترف بهجة وغضارة . إلى زهروريجان . وفاكهة ألوان . وقصارى القول أنه بطل ونبي . وتنتج الطبيعة وسليل الحقيقة والجدير أن يحمد الله عليه هذه الاجيال . ومن سوف يدرج على هذه الارض من غابر الناس ويدب .

ثم إن مذهب لوثر تفرق شعباً فأكرم شعبه وأطيب فروعه ذلك الذى نبت فى انكلترا أعنى الملة السيوريتانية فاما فى جرمانيا ذاتها فان البروتستانية أخذت تضحل حتى تحولت عن منزلة الاديان إلى مواطن الجدل والنخاصمة وزالت عن القلب إلى اللسان . وعن العقيدة إلى الحججة والبرهان . بل مازال بها الاضحلال حتى صارت فولتيرية واتيته إلى تلك المباحثات الجدلية التى كانت أيام الثورة الفرنسية . أما فى بلادنا (ريطانيا) فقد أخذت البروتستانية صورة أخرى هى السيوريتانية ثم غولى بالييوريتانية حتى صارت الملة المسماة (البريزانيربانية) وهى الكنيسة القومية لاهالى اسكوتلاندة . وهى ملة حق صريحة وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب وثمارها جمة فى انحاء العالم البريطانى . وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الامام (نوكس) ذلك الشجاع النبيل . وقبل ذلك نذكر كلمة عن السيوريتانية ومعناها .

البروتستانتية في انكلترا ومنها نشأت البريزبائيرية - مذهب  
القسيس نوكس

في عام ١٥٢٥ رحل القسيس الانكليزي وليم تيندال إلى بلدة  
لوثر (وتنبرج) منجذباً إليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه  
وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقماً على الكاثوليكية فرحب  
بمذهب لوثر أي ترحيب وكان قبل رحلته إلى جرمانيا بطويل قال لاحد  
القسوس الجدليين (ان يطل الله مدق لا تركز راعي الغنم وهو اعلم  
بكتاب الله منك) . ولما ذهب إلى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى  
الرجال قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحذب وجلهم من الطلبة .  
قد أحاصوا لله وتقاتوا في حبه فلم يكن لحالم تلك مثل الاحالة الصليبيين  
ولا لبلدة لوثر شياً إلا المدينة بيت المقدس . وكانوا إذا دنوا من البلدة  
هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسرورا . وهنا لك ترجم تيندال  
الانجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه إلى انكلترا . ولم يك هذا الكتاب  
قاصراً على ترجمة الانجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر لأنه قطعة  
من الحركة اللوثرية تقابلته الكنيسة الانكليزية باشد المقتم والانتكار .  
وأمرت بعدد كبير من نسخه أن تحرق فاحرقت في مدافن كنيسة سانت  
بول بعين الوزير ولزي . ولكن ذلك لم يمنع أرباب المذهب الجديد  
من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ومن الرسائل المهيجة التي كان  
يكتبها لوثر وأنصاره إلى الاقطار الانكليزية ونشرها بين طبقات القراء

من العمال والصناع والباعة . وكان المتولى لذلك جمعية اسمها (الاخوان  
النصارى) مؤلفة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ولكن  
رسلها تنتشر في سائر البقاع البريطانية . فوجدت هذه النسخ سبيلها  
إلى الجامعتين كامبرج واكسفورد حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت  
عيون القرائح إلى المسائل الدينية وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمنظرات  
الفقيهية والالهية . وكانت كامبرج قد رميت بالزندقة وسرت منها  
العدوى إلى اختها اكسفورد وكان من أمر ذلك الهياج الذي اعقب  
انتشار النسخ المذوّرة ما الجا الوزير ولزى إلى مؤاخذه الهائجين فخرج  
عدة من قسوس اكسفورد في السجن واحرق كتبهم ولكن ولزى  
لم يتجاوز في عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق .  
وأما صرقة شؤون السياسة عن مسائل الدين

وكان لانتشار الإنجيل بين سكان بريطانيا من التغير الاخلاقي ما لم  
يسبق له مثال في تاريخ البشر . إذ أصبحت انكلترا أمة كتاب — وهذا  
الكتاب هو الإنجيل . نعم أصبح الإنجيل كتاب كل انكليزي يتلى في  
الكنائس وفي المساكن وحيثما وقعت كلماته قرعت آذاناً لم تخلقها كثرة  
الاعادة ولا بلها طول التكرار فحركت من النفوس ما حركت .  
وهزت من كل جنان أريحيته . وهاجت من كل قلب غيرته في الله  
وصبوته . وحب الامة للإنجيل راجع إلى علة خلاف السبب الديني .  
وذلك انه كاد يكون اول كتاب ادبي نظر فيه الشعب الانكليزي وتوزه في



رياضه وجناته . وجنى ازهاره وثمراته . ولم يك قبل ترجمة الانجيل لدى الانكليز من اسفار الادب الا ما كان كتبه «ويكليف» وكاد ان ينسى والا ما نظمه الشاعر «تشوسار» وكان لا يعرفه الا الاقلون . نعم لم يوجد قبل ترجمة الانجيل في اللسان الانكليزي تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر الا منظومات تشوسار . فلا غرو ان اصبح الشعب الانكليزي يرهف الآذان لاستماع عبارات الانجيل فيجد ابهج مستمع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص واغانى الحرب وانشيد الدعاء والتراجم والسير ومواعظ الرسل ومزاجر الانبياء . وحكايات الاسفار البرية والاحطار البحرية . وجولات القسوس في بلاد الوثنية . وفي المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة . فقد كان اذذاك نهضتان — عليية احدها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية ودينية احدها كشف خبايا الآيات العبرانية . والثانية أبعد اشواطاً وامد انفاساً . وأعمق جذوراً واطول اغراساً من حيث انها نهضة شملت الخاص والعام في حين انحصار الاولى في دوائر العلية المتأديين وذلك انه لما لم يك في طاقة الترجمة ان تنقل الى الانكليزية بركات اللسان اليوناني تركزت عرائس ذلك اللسان مخبوءة في خدورها فلم يستطع استجلاءها الا الواقفون على اسرار اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت اسمح ما يكون قياداً في عنان الترجمة حتى أصبحت في ثوب الانكليزية مثلها في حلتها العبرانية حسناً وبهاء . وبهجة وبرواء . بل

اصبحت اشرف مالدينا من تحف اليراع الانكليزي واكرم نفائسه .  
واسلوبها ميزان الاساليب في الانشاء ونظامها معيار النظم في الكتابة .  
بل ان اثره في نفوسهم ككتاب ادبي . واذا تذكرنا ماهو ماثوث في  
عرض كلامنا العادي من كلمات كبار مؤلفينا — اعنى تلك الشذور  
التي تسريت الى احاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف دكنز  
وثكري ادر كنا كيف كان اللسان الانكليزي في تلك الاوقات يأخذ  
من ترجمة الانجيل زخارفه وحليبه .

وأعظم من اثر الانجيل في الادب ولغة المحاوره اثره في اخلاق القوم  
لقد كان الانجيل يفعل بالالباب اذذاك ماتفعله الآن الجرائد الدينية  
والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ . وكان من اثره انه  
بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة واحوال الانسان . وبعث في جسم  
كل طبقة من طبقات الأمة روحاً جديدة أخلاقية وأخرى دينية . ونفض  
الدين صبغته على الكتابة فامن رسالة تصدر الاوبها عرق زاخر بالورع  
والتقى وهكذا خلفت الكتابات الدينية في ذلك الوقت ما كان يشغل  
العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية . وقد قال  
جرشاس وذكرا انكلترا « أصبحت السيادة فيها للدين ، وقصارى القول  
ان البلاد أمست وهي كنيسة كبيرة . ومسئلة الموت وما وراء الموت  
تلك المعضلة التي اعتاصت على ذوى الألباب وأولى النهى في عصر شاكسبير  
فا عرفوا لها حلاً عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه

بجلها . ولم تك السيوريتانية في أول أمرها تقشفاً وتعصباً . ولم تعد الى ملاهى أربابها وملاذمهم فتلغيا وتبطلها وانما كان السيوريتانى في أول الأمر كما قيل

فله منى جانب لا أضيعه وللهمنى والخلاعة جانب

فن أدلة ذلك ان احدى السيدات لمصورت زوجها القائدها تشنسون وكان بيوريتانيا وجهت جل عنايتها الى ابراز جماله كما كان أيام صباه ولو كان أمر التقشف والورع أمكن في نفوسهم اذذاك من أمر الزخرف والزينة لكان لها مندوحة عن فعلها ذلك . ولكن السيدة مالت الى ابداء ثغره الواضح . كاللائيء النسق والاقاح . وجبين كآئه المصباح . او فلق الاصباح . ولمة . حالكة مدلهمة . فهى كما قيل

وجاء بها ثور ترف كآتها سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعاً بالصيد والقنص . مغرماً بالمسابقة والرقص . كلفا بالفنون الجميلة . ما تزال تستخفه قصيدة . وتستفره صورة . وتستنيه نعمة . وتطويه دمية . وكان ربما نزل بستانه فسقى وعل . وغرس واستأصل . وأصلح وشذب . وقنع وهذب .

وكان البيوريتانى بعد عزوفاً عن الفحشاء والمنكر . قد صرف صبواته عن الحرام الى الحلال . وعدل بصباباته عن مراتع الوخامة والوبال الى مقامات الشرف والكمال . فكان أبا رحما . وخلاهما . وزوجا

شقيقاً . وأخار فيقاً . ولم يك قط في فتنه النساء ما يحرك شهوته بل كان غضيض الجفن عن كل ما يريب شامس العطف عن المغريات تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس . عفيف النفس عفيف الطرف . طيب معقد الأزار . يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر . ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتاني حن القصد في أموره قليل السرف ييا كرشوئه والبركة في البكور . لاونية عنده ولا فتور . مشمرا من ذيله . منكشأ في عمله . وكان أحسن ما وفق اليه من المحامد فضيلة المساواة وذلك ان أخاهم في الله انساهم ما كان قبل راسخاً في نفوسهم من تفاوت الدرجات . وتفاضل المقامات . حتى كان أحقر فلاح يعتقد أن الله قد شرفه وقدمه . وحتى صار أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الأبرار . وصعاليك الأتقياء الأخيار ولكن افراطهم ذلك في حب الفضيلة والتقى وان عاد بالقوة على أخلاقهم فانه ضيق دائرة رحمتهم وفهمهم . وقد ظهر أثر ذلك في الشاعر الكبير البيوريتاني ملتون — في احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء كما كان يسميهم ، وعزوفه عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة . بل لقد كان على فرط حبه شاكسبير لا يظهر ارتياحا الى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه . وإذا كانت هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه . فكيف كانت الحال مع من هم أقل أدبا وعلما . وأحمد قريحة وأكثف فهما . نعم لقد آل ذلك التشدد في التدين والافراط في التورع

بهؤلاء القوم الى أجدد أساليب الحياة وأمرها واكرها وأبعدها من  
الالفة وحسن العشرة. وأصبح البيوريتاني وليست الرابطة بينه وبين  
الغير هي رابطة الانسانية ولكن نسب التورع والتدين بين طائفة  
المتدينين المتورعين أصفياه الله وأوليائه. وكل من خرج عن دائرة هؤلاء  
الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه. وإنما هم منه ابرياء. وان نفور  
البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف  
الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ماقد يأتون من وحشى الفعال. وهذا  
كرومويل تراه بينما قد أدى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور  
باتصاره الباهر في واقعة «بطحاء مارستون» فعاد من المعترك فائزاً كحائب  
وظافراً كنهزم — تراه مع ذلك يهش وييش لذن يوقع امضاه على الأمر  
الصادر باعدام الملك «شارل الأول» وما ذلك الا لاعتقاده ان ذلك  
الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين وليس هو لغلظ في كبده او  
فظاظة في طبعه. وكان من أثر تقانيهم في الله ان ماتت فيهم فضيلة التسامح  
والتساهل حتى في أصغر الأشياء وهكذا تحولت حقائر الأمور في حرارة  
التدين ووهج النيرة جسائم وعظائم وأصبح أحدهم يؤله من رؤية  
فطيرة العيد أو كعكته ما يؤله من رؤية الخبائث والمفاسق. وباتت  
الحياة وهي عبء من الاعباء وسخرة خالية من اللذة وكلفة قفر من البهجة  
وقام بدل مباحج العهد اليباباتي ومفارحه ومآنسه وممارحه مرارة  
البيوريتانية وجدها. وعبوسها واربدادها.

ولقد كان البيوريتاني مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول  
القيامة . ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوسوس . وتلك  
الهواجس . وكان في شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيل اليهم أن  
حياة الناس العادية نوع من الائم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار  
البيوريتانية أو ليقار كرومويل «لشد ما غويت وضللت أيام الشباب»  
وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية . هي أنه كان يياشر الطيب  
الخلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوزه ركائة حلم الكهل ورزائة  
عقل الشيخ ولا بأس على الشاب فى أن لا يكون كذلك . ثم انظر الى  
جون بانينان صاحب الكتاب الجليل «سيرة الحاج» كيف حدث عن  
نفسه فقال «لما كنت صديا فى التاسعة من عمري كانت تحضرنى  
خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما أشبه ذلك فكانت  
مبعث رعب لى ومثار قلق وكرب تعترينى أثناء لعبى مع الصدية عظة  
من الله ومزجرة ولكنى كنت اهملها وآبى الا اقامة على ذنوبى ومآثمى .  
افتدرى ماهى تلك الذنوب التى أبى الا اقامة عليها؟ هى نوع من لعب  
الأطفال وصنف من الرقص فاما عيبه الحقيقى وهو الاكثار من الحلف  
فقد كان ألق عنه عملا بنصيحة عجوزأت منه ذلك فانكرته وكان لهولوع  
شديد بسماع الاجراس تفرع وكان يحسب ذلك مائما فكان لا يزال  
يذهب الى موضع تلك الاجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهى تفرع  
حتى يخيل اليه ان الله سيرميه باحدها فيفر هاربا . وانصرف حيناً عن

الرقص والالعب ثم عاد اليها وفي ذلك يقول ولقد صرفتنى عظة رجل من  
القسوس عن الالعب ثم ما لبثت ان استهوتنى بلذاتها فاني ذات يوم لا لعب  
قطي وقد لطمتها لطمه وهممت أن أطمها الثانية واذا بصوت من السماء قد  
نفذ الى صميم قلبي وكأنيما يقول : ايها تفضل وتختار ترك الذنوب ونعيم  
الجنة أم الإقامة عليها وعذاب النار؟ : فاصابتنى لذلك دهشة وأطلقت  
القطعة ورفعت طرفي الى السماء . وكأنيما رأيت بعيني ذنبي السيد المسيح  
ينظر الى كالأغضب علي وكأنيما يتهددني بعقوبة صارمة ان أنا لم أقطع عن  
تلك الذنوب والآثام .

كذلك كانت البيوريتانية مزيجاً من النقص والفضل : وخليطاً من  
السخف والنبيل . ولنا أن نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ولكنه لا يسعنا  
مع ذلك الا الاعتراف بأنه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعد  
غرس غرسه الطبيعة وما أن تزال تتفقدته فهو ينمو ثم ينمو . وطالما  
قلت أن الحياة معتك فما فاز فيها وظفر فهو حق وما خاب وانهمز فهو  
باطل فالقوة مقياس الفضل . خذ مثلاً عظمة امريكا الحالية وانظر ماذا  
كان أصلها وانشؤها . الله يعلم أن منشأها لم يك الا قطة ضعيفة بيوريتانية  
من اهالي هولاندة أضربهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة فخرجوا  
من ديارهم وهاجروا منذ قرنين الى امريكا في تلك السفينة الصغيرة  
المسماة زهرة الربيع ! ولو كان لنا خيال اليونان وشاعريتهم لقلنا في ذلك  
الحادث القصيد المحبر ولكن حسبننا أن الطبيعة كتبت في الحادث

المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم .  
ولقد كان باميركا قبل تلك الفتنه البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون  
هنا وهناك ولكنهم لم يكونوا الا الجسم ميت فلما نزلت تلك الفتنه فيهم  
كانت كأنها الروح دبت في الجثة الهامدة فاحيتها . نعم لقد ضاقت بهؤلاء  
القوم بلادهم فعزموا على انتجاع امريكا . وما ادراك ما اذا كانت اميركا اذ ذاك  
غابات خضر و آجام سود مسدودة عذراء لم تفترعها قدم ولا فتحت  
اغلاقها يدان . مستهمة المعالم طامسة الاعلام . وامم همج وحشية  
ولكن هذا كله أخف وطأة من الحكومات الظالمة . والملوك العاشمة  
وقد علوا أنه مها يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك فان في  
الرياضة ما يذلل انفها . ويلين عطفها . ويستغزر درها . ويستدر  
خيرها . وانهم سيجدون من الأرض وطاء . ومن السماء غطاء .  
ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون في حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو  
صروف الدهر . فيقضون اعمارهم بالعبادة والتقى ويزودون من دنياهم  
لآخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم اخنوا  
عددهم وشحنوا امتعتهم واستأجروا مركباً — السفينة الصغيرة المسماة  
زهرة الربيع — واستقبلوا بها عباب اليم .  
ولما نزلوا السفينة اقاموا بها شعائر الوداع والتشجيع على صورة دينية  
ولاغرو فقد كان عملهم هذا دينياً — وان تشأ فقل ضريا من الصلاة  
والعبادة . فصحبهم قسيسهم الى جوف السفينة وشيعهم كذلك اخوانهم



الباقون بعدهم . وابتهلوا جميعا الى رازق النسر في السماء والحوت في بطن الماء . أن ينظر اليهم بعين عنايته . ويسقيهم من صوب نعمته ويظلمهم بجناح رعايته . ويكون لهم في بلاد الغربية . وديار الوحشة . حرزاً منيعاً . وروضاً مريعاً . وكناديفياً . ووثاراً وطينياً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير وقد جعل الله على ايديهم نفاذ أمر من أجل اموره . وان كان قدرهم اذ ذلك لم يك الا صغيراً فاول النار شرر . وأول الغيث قطر . وكل شيء حق فيها ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ماضخماً جسيماً .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالي فيه حتى أقرا  
والبيوريتانية وان سخر منها الناس سلفاً فلا يستطيعون أن يسخروا  
منها الآن وكيف وقد أخذت عددها ولبست سلاحها وحملت الخندق  
واللباقة في أصابعها العشر والبطش والقوة في قوائمها الأربع . وأصبح  
في وسعها نرف البحار . ونسف الجبال . وتسخير البخار . وتسوير  
الجوار المنشآت كالاعلام . فهي الآن من أشد قوى العالم .  
ولست أرى في تاريخ اسكوتلاندة عصرأ جديراً بالذكر الا ذلك  
الذي حدث فيه بيوريتانية «نوكس» وما ظنك ببلاد قفرة لاتعجبها  
المشاحنات من أهلها والمشاغبات والفنن والمذايح — ناس في أدنى  
حضيض الغلظة والسقوط أحسن بقليل من أهالي ايرلنده الحاليين —  
طوائف من جياع الأمراء والسادة أبي عليهم جهلهم وحقاقتهم أن يعرفوا

كيف يتفاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التي سلبوها جماعة فقراءهم وعمالهم .  
ولكنهم كالجهوريات الكولومبية الحالية لا يستطيعون أن يحدثوا  
تغيراً ما حتى يحدثوا معه ثورة عامة . ولا يجدون الى تبديل وزارة  
سيلا الاشئ أفراد تلك الوزارة . أشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة  
متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آباءنا الأول الوثنيين من سكان الشمال .  
أولئك الذين لانجد في مآثرهم الوحشية ومساعدتهم الدموية شيئاً يذكر .  
أجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسماً بلا روح حتى نفخ الله فيها من  
نهضة نو كس روحاً . فاصبح كل فرد بها برا صالحاً تقياً . وان تشأ  
قتل بطلا ورسولاً نبياً .

ومما يقال في مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة .  
ولا بلغها بوسيلة . وإنما أتته من تلقاء نفسها وذلك بعد أن أوفى على  
عقد الأربعين وكان من أمره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن  
فقضى أيام صباه في المدارس ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب  
الجديد — مذهب لوثر وقد قنع من التداخل في شؤون الغير بالاقبال  
على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم وكان يكتب  
بالبقاء الدروس في الأسرار الكريمة . يشرح مبادئ مذهبه إناسئ .  
ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال . غير حاسب أنه يستطيع  
أكثر من ذلك . وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره . فلما كان  
ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصاحين وكان نو كس

بينهم وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جاشهم ويفتل مرر عز أهمهم . ويستنهض عاثرهمهم . قال فيما قال أنه لا يانس أن يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب . وإنه جدير بكل من وهبه الله قلباً حافظاً ولساناً ناطقاً أن يكذب في نشر الحق لسانه ويبح في الارشاد إلى الصواب . وإن جون نو كس هو ذلكم الرجل ثم التفت إلى القوم فقال « أوليس هو كما وصفت . اذن فما يعود عن الارشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجمع على مقاله وقالوا أنه عمل غير صالح . فاضطر نو كس إلى الوقوف للكلام ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتاً حائرأ ثم أجهش بالبكاء وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدواً

ومن ذلك الوقت فصاعداً ثار ثورته وأشعل المذهب البيوريتاني في قلوب الناس اشعالا . حتى عادت الأمة الاسكوتلاندية أمة قسوس وعادت البلاد وكأنها كنسية . وبدأ الناس يحبون . واعتقادي أن كل ما جاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة بل أن من آثارها أيضاً وتناجها أولئك الرجال الذين هم نخر الأمة الاسكوتلاندية: جيمس وات ودافيد (داود) هيوم ووالتر سكوت وروبرت بارنز. واني لأجد نو كس ومذهبه ينفتان قوتها وسرها في قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض . وارى انها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية . نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع انحاء الدولة البريطانية . وذلك

انها شبت جمره في كنيسة ادنبرج «عاصمة اسكوتلاندة» فاذا هي قد  
صارت حريقاً اسرع في كل جانب من جوانب بريطانيا . وبعد ان  
دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله الى البلاد عروس الحرية متعة  
هنية . وهبة سنية . والفضل في ذلك للذين جاهدوا لنا وكافوا . ولم  
ينعموا بثمره كدهم . ونعمنا بها دونهم . وما تلك بالقسمة العدل أن  
يضطلوا نار الجحيم ونستصبح نحن بنورها وناكل جنى النحل وهم  
يكابدون لذع ابرها . وتلك حال هي كما قلت أشبه بحال الجيش الزاحف  
على قلعة محصورة تبادل مقدمته الخندق المحفور قسدها بجيشها لكي يجوز  
الباقون على تلك الاجسام كأنها قنطرة فيفتحون القلعة ويملكونها  
فسبحان قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر . ولاولئك الموت الأحمر  
وكم من رجل كنوكس وكرومويل كافوا وجاهدوا . وقاسوا وكابدوا  
ولاقوا الشدة والبرحاء . والكرب والبلاء . بل اللوم والتفنيذ .  
والهجو والتنديد قبل ان يسوق الله للبلاد الحرية ترفل في الاوراق  
الرسمية . والمواد البرلمانية .  
وانه لمن افش الجور ان تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم  
فيكون وهم كما قيل

جزى بنوه ابا الغيلان عن كبر . وحسن فعل كما يجزى سنار  
وعيب وعار ان لا تزال الاجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده  
ثم تنصبه للحاكمه كأنه بعض الجناة المجرمين ولاجرم له الا اليد البيضاء

والهمة القعساء . والصدق الصميم . والحسب الجسيم . والائه كان  
يحمل تحت ضلوعه اشجع فؤاد في الاقطار البريطانية وانه كان ولا  
مشاحة انبل ابنه جلدته وانجدهم . ولو كان متقاعس الهم متقاعد العزم  
لزم زاوية بيته كما فعل غيره . فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء  
وراح هو بعرض برى الساحة امس الجانب . ولكنه آثر المروءة  
مع لوم الناس على الدينثة مع قلة اللوم . فاصبح وحده ذا الفضل العظيم  
على بلاده . والنعم الجليلة على العالم اجمع . فواجباً ان يحمل ذلك البطل  
على ان يستغفر لنفسه من تيب المروءة واثم المجد وان يسأل اسكوتلاندة  
الغفولانه كان انفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا تبه فهم في مأمن  
من مثل ما يصاب به من اللوم وفي غير حاجة الى مثل ما يقدمه من  
الاعذار ! وهل في العدل ان يحمل ذلك برجل باع اللذة في سوق الحق  
بالام والراحة بالنصب والرفاهة بالشظف والقشف ونزل المعترك بلا  
درع ولا جنة وأهدف للسهام صدره . واحتمل في الله النفي والاسر  
يسام العذاب الوائاً ويعرض للرعود القواصف . والرياح العواصف .  
الى غير ذلك من ضروب المحن وصنوف البلاء . ولكن ليقل الناس  
فيه ما يقولون فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه ما لا يعلمون .  
وان كان يعيننا نحن ان ندفع الظلم عن رجل لانزال نرتع في غرس يديه  
وان نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته

وأرى ان اول شروطنا في البطولة اعنى الاخلاص ينطبق تماماً

على نوكس وليس احد ينكر انه مهما تكن عيوبه وعوراته فلقد كان من اشد الناس اخلاصا . وكيف وانما كان بالحق لاغيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة . ثم يرى كل ما عدا الحق شبحاً باطلا فيدعه . ولما نفى اسية مع اصحابه الى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم اثر حصار طويل جاءهم أحد السجنائين يوما بصورة مريم وسألهم أن يركعوا لها . فقال نوكس « أتزعم هذه أم المسيح ؟ كلا ماهذه الاقطعة خشب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها أن تطفو على مياه هذا النهر .. ثم تناولها فالتقى بها في اليم . ولم يكن مثل هذا المزج بالشئ الرخيص إذ ذاك . ولكن نوكس لايبالي في سبيل الحق ماذا يندل . وكان يسلى صحبه في النكراء . ويعزيهم في المحنة السوداء . ويقول لهم سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء . والحق أبلج . والباطل للجلج . وأخو الباطل على الأيام مقهور . وصاحب الحق على كر العصور متصور . والحق سنة الديان والباطل مسلك الشيطان ولا بد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق فمثل هذا البطل بمن لاجياة له الا في عنصر الحقيقة فهو يتشبث باعطافها كما ينشب الغريق في أطراف الصخرة الركود وما أحسب إلا أن الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفتدة الانبياء فهو نبي القلب وان لم يكن نبي اللسان وما أصدق ما كتب «مورتون» على قبره حيث كتب « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه إنسان » وهو أشبه المحدثين بالانبياء الأولين

من رسل بني إسرائيل له ما لهم من شدة التمسك بطريقته والثبات في الله  
وتضحية كل شيء في تلك السبيل . وشدة الانحاء باللائمة على كل من  
شد عن الصراط السوي والخطئة المثل . فياله من نبي عتيق في ثياب قسيس  
محدث . وما ينبغي لنا إلا أن نعدده كذلك . ولا نأسف أنه كان كذلك .  
وقد أنكر الناس سيرته مع الملكة ماري وغلظة خطابه لها وخشونة  
نصحه . هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد  
الإمر على خلاف ما يزعمون ولم ير لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة  
ما ينسب إليها . بل إنى لاراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به  
الحال إذ ذلك ! ولم يمثل نوكس امام الملكة ليعطيها ملق الحاشية وإنما  
لامر غير ذلك كان مثوله هناك . ومن قرأ محاوراته معها فلم ير فيها  
الاجفة سوقى لاميرة أخطأ وجه الحقيقة وأشوى مقتل الصواب . لانه  
كان من المستحيل إذ ذلك أن يجمع جامع بين التادب في حضرة الاميرة  
وبين مصلحة الامة الاسكوتلاندية وشرفها . ومن كان همه حيثئذ أن  
يحمى البلاد من أيدي الاجانب من أمراء فرنسا ويربأ بها عن أن تكون  
مدبأ لمكايد أمثال «دى جين» ومسرحا لمطامعهم ويعزف بدين الله عن  
مسايطر النبله ومواطنه الاقدام ومواطن الكذب والضلال فغير ملء  
أن يتندرغ بجلاوة الملق وعذوبة الاطراء إلى الحظوة لدى الاميرة والحال  
عندها . وما أصدق قول «مورتون» حيث يقول «لان تبكى النساء  
خير من أن تخضل اللحي بدموع الرجال» . وماذا كان نوكس يفعل

وقد رأى الاوطان . قد خانها الاعوان . ونام عنها الانصار وتواكل  
من أشرفا وتخاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكرهية ويدخر  
للجلى أ كان يقعد عنها فيمن تقاعد ويخنس فيمن تقاعس ويتركها نهياً  
لايبدى الحوادث وغرضاً لسهام الخطوب ؟ كلا ماهذه شيمة الرجال .  
ولا تلك سجية الابطال . وهذا أمر دونه خرط القتاد . وضرب  
الاجياد . وقالت له الاميرة ماري حين جاء ينصحها « من هذا الذى  
قد بلغ من جرأته أنه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها؟ »  
فاجاب « سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها . » جواب أصاب  
والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكرس على عدم تسامحه . ولا أنكر أن التسامح محمود بشرط  
ان لا يتجاوز الصغائر الى الكبائر . والقشور الى الجواهر وانما  
التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب وأن لا يكون  
المرء لثيم القدرة . فاما التسامح مطلقاً بلا حد فهذا من المنكر الذى من  
حق النبلاء أن يترفعوا عنه . وما أرسل الله المرشدين والهداة  
ليتسامحوا ولكن ليجاهدوا ويكافؤوا ويهزموا ويقهروا . نحن  
لا تسامح في جرائم الكذب والسرقه والظلم اذ أصابتنا . وانما نخاطبها  
بقولنا « أنت أكذوبة وأنت سرقة وأنت ظلامه لا يتسامح فيك ولا  
يتجاوز عنك ! وانما نحن في هذا العالم لنحمد الاكاذيب ونقطع  
دابرها بطريقة صالحة ! ولست بشدداً النكير على طريقة استئصال .



الباطل وان شابهها العيب . فحسبها ان بلغتنا الغرض من ازالة الشر  
ومحو الباطل . ومن هذه الوجهة اعنى من وجهة محو الضلال ولو  
بواسطة معينة — بالواسطة التي لم يمكن غيرها — كان نوكس عديم التسامح  
وما كان رجل اضطهد ونفى الى بلاد الغربية أسيراً سجيناً ليكون في  
معظم أوقاته الامر الطباع وعرة الناحية ! ولست بقائل قط أن نوكس  
كان في طبعه عدوية وفي جانبه لين ودماثة ولا أنه كان سىء الخلق شرس  
الشيمة ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان  
في جرأته على الملكة باللوم وفي رجاحة وزنه عند اشراف اسكوتلاندة  
أولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتيه الميزان الراجح — واستطاعته أن  
يقبض على زمام النفوذ في تلك البلاد الوحشية العاتية زماً طويلاً —  
لقد كان في كل ذلك دليل على أن الرجل لم يك حرج الصدر ضيق  
العطن وإنما كان رجلاً حاملاً للعبء نهائياً بالفادح من الأمر مضطلعاً  
بالباهظ من الخطب ولا يكون ذلك الامن أوتى بسطة في الحلم وفضلا  
في الذكاء والعقل . وقد ينعون عليه تهديمه للكنايس كما لو كان ثور ويا  
مخرباً وإنما أمره عكس ذلك لو انعمنا النظر ! وما هدم الزور  
والفساد وغسل القلوب من كل دنس ورجس نعم ولا كان ديدنه  
الثورة بل النظام التام . وإنما كان من سوء حظه أن ألجى الى الثورة في  
سبيل امضاء عزمه . وما كان مثل هذا الرجل ليكون الاعداء للثورة  
والنواضي . ولكن ماذا يصنع اذا لم يجد بداً من ركوب الفتنة بلوغ

غرضه؟ يركبها والرجل المضطرب يركب الصعب وهو عالم بركوبه . هذا  
وانه كان على الحق . والحق هو النظام

ومن العجيب غير المنتظر أن نوكس هذا كان فيه مزح وفكاهة .  
وكان بصيراً بمواضع الضحك في كل شيء . وصفحة تاريخه مخللة من  
سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ويحلى من مرارة وقارها .  
فلما تشاجر اثنان من القسرس يباب كنيسة «جلاسجو» على الاولية  
في الدخول من ذا يتقدم صاحبه واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج  
وتخابطاً بعصويهما كان لنوكس في هذا المنظر مضحك فيه أى مضحك  
ضحك مع التهكم والازدراء والمرارة شيء من الرحمة والثناء والعطف . —  
لاقهقهة وانما ابتسامة تملأ العينين اشراقاً : ورجل رقيق الفؤاد . كثير  
الوداد . محب لبني آدم . أخ للقوى وأخ للضعيف . صاحب للوضع  
صاحب للشريف . وكان يتناول الكاس في حان الخمار بمدينة ادنبرج —  
دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله . وانه لم يك كما يزعم الناس  
بالشرس النكد الجعد الاخلاق الجهم الطلعة المكفر الجبين المتعصب  
الصخاب . كلا انه كان من اثبت الناس امراً وأرسخهم حالاً . حازم  
بصير جلد صبور . طويل الاغضاء عن الامر الذي لا يفسد عليه  
امره فان عرضت مفسدات الشرف والدين قام لها على قدم . فهو كما قيل  
صفوح اذا ما التنب لم يعد حده الي الوتر تساع قفا الوتر أرقم

## وكا قيل

له سورة مكتتة في سكتة كما كتنت في الغمد الجراز المهند  
لقد جامه هذا البطل في الله حق جهاده وركب من عيشته متن  
صعبة عوصاء ينافح الأمراء . ويكافح الزعماء . بعزم لا تغل من حده  
الخطوب النوازل . وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل .  
ترى ساكن الأوصال باسط وجهه يريك الهوينا والامور تطير  
كابد والله من حياته هول حروب ضررس . ووقائع حمس . ولكنه  
خرج منها كالصارم العضب يحول في صفحته رونق الظفر . وفرند  
الفوز والنصر . وان كان بمضريه فلول وتلم . وما زال الأمل حليفه  
حتى دخل معه قبره فلما جاءت سكرة الموت واعتقل لسانه . سألوه « هل  
عندك أمل ؟ » فرفع أصبعه يشير بها نحو السماء ثم فاض . له المجد  
والشرف وسقى عهده الغمام !

كلمة في الختام عن مذهب نو كس — كان مذهبه سيادة الكنيسة  
على الحكومة ورئاسة القسوس على الملوك . أو بعبارة أخرى حاول أن  
يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية . وهذه في نظر الناس جريمته .  
وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقة وان  
يعلموا أن هذا قانونهم الذي ليس فوقه قانون . وشد ماساه اغتصاب  
جياح الأعيان أمتعة الكنيسة . وقد جعل يقول ان هذه ليست ملكا  
مدنيا وإنما ملك ديني . وحقا أن توقف على منفعة الكنيسة — على

التعليم والمدارس والعبادة . فلجابه الوصى «موران» مستهزئا «هذه  
أحلام تقية، ذلك مذهب «نوكس» الذى سعى فى تحقيقه . وانه وإن  
يك أخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى احياء الدين وبعث الأمة  
من طول رقادها مبعثا كان أصل رقيها ونهضتها . ومجدها وعظمتها .  
وكيف ينعى الناس عليه مذهبه — كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل  
الحكومة لله وتلك مالا نزال نحاول ونزجو ! وما جاءت الرسل  
والقسوس إلا لذلك : وقد أراها «هلديراند» وحاوها «كرومويل»  
وبلغها «محمد» أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص وكل ولى تقى . وكل  
رسول نبي ! ولا يسعنا الاشكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده  
تحقيق هذه الأمنية . وأقى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد . والمعارضة  
والرد . والنصب والسهر . والحبس والاسر

---

## المحاضرة الخامسة

### البطل في صورة كاتب

جونسون . روسو . بارنز الآلهة والأنياب والشعراء والقسوس هي صور بطلية تتعلق بالأزمان الماضية . وتظهر في العصور الخالية . وقد أصبح ظهور بعضها في العالم ضرباً من المحال . فأما البطل الكاتب الذي سنتكلم عنه الآن فإنه من نتائج هذه الأعمار الحديثة وسيدوم مادامت تلك الصناعة العجيبة — الكتابة — وهاتيك الحرفة الحديثة — الطباعة — وهذا الصنف من الأبطال بعد إحدى نواذر الدهر أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكديتم له في الوجود مائة عام . ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الأسلوب العجيب — ينفث وحي ضميره في صفحات الكتب ويطيها في أنحاء الأرض بأجنحة الأوراق فينال معاشاً ومنزلة بما يسخوله به أهل هذا العالم جزاء عمله ذلك . وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحى ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك في الأسواق هذا العرض الميين . وبإله من منظر عجب — منظر الكاتب في أسماه البالية وحجرته الخاوية . يسوس من وراء قبره بعد مماته من أمم العالم وأجيال الأرض من ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضروري . يلي عجب وربكم

وأى عجب أو لم أر في ضروب البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش  
من ذلك

ووا أسفاه ان البطل ما برح من قديم الأزل يلبس للناس أزياء شتى  
وأشكالا مستغربة . وما برحت الدنيا تحار في كنهه لغرابته منظره فلا  
تدرى ماذا تصنع به ! ونحن ننكر من القدماء أن يحملهم فرط الإعجاب  
بالبطل على ان يعدوه الهاأ أو نبياً . وأولى بالانكار أن يرسل الله لخلقته  
بطلا مثل جونسون أو روسو أو بارنز فقتحمهم عيون الناس  
ولا يرونهم الا عجزه ومكاسيل لافضل لهم الا بضع كلمات أكثر ما فيها  
انها ملهاة القوم ومدفعة لآناء السآم والملل يند الىه في ثمنها من الدراهم  
مقدار مسكة الرمق . أليس هذا أولى بالانكار والنعمة ؟ ومنذ كان  
الفكر هو سائس المادة وجب علينا أن نجعل البطل الكاتب . أماننا  
وقائدتنا وان لا تقدم عليه مخلوقا مهما عظم . فهو روح العالم في أى صورة  
برز وأى زى لبس . وما يقوله كان حتما على العالم تعلمه واعتقاده والسير  
على موجهه . وهيمته استقبال الدنيا اياه ومعاملتها له هى عنوان رفعتها  
أوضعها — دليل سموها أو انحطاطها — مقياس قيمتها وفضلها .  
ونظرتنا في سيرته نظرة في لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها والتى  
نعيش فيها نحن

والكاتب صنفان جيد وردىء شأن كل شىء فى هذا الوجود . فإذ ادل  
بلفظة بطل على الجودة فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفه كاشرف

ما يكون وأعلى . فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه — وهذا أكثر ما يستطيع امرؤ أن يفعله . وهو قبضة من طينة الحق وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى . وكذلك حياة كل امرئ . ولكن الضعاف الاكثرين لا يعلمون عن انفسهم ذلك ولا يخلصون لتلك الحقيقة . والاقوياء الاقلون اقوياء أبطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب اعينهم والكاتب البطل مرسل الى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع . وهي عين الوظيفة التي كان القدماء يسمون صاحبها الها أو نبياً أو قسيساً . وهي التي ما ارسل بطل الى العالم الا لكي يؤديها

وقد التقى الفيلسوف الالماني « فيشنى » منذ اربعين عاما سلسلة خطب في موضوع « طبيعة الرجل الكاتب » فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التي كان هو أحد اساتذتها : ان جميع ما نبصر من الأشياء ولا سيما نحن وسائر الآدميين انما هي اثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » وتلك هي الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر . واغلب الناس في عمى عن هذا المعنى وانما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر بياهم ان تحت ذلك شيئاً مقدساً . ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه . هذا كلام فيشنى ولا حاجة بنا الى معارضته . وإنما هو أسلوبه في بيان ما انا باذل الجهد عبثاً في بيانه . وتسمية ما لا يستطيع ان اسميه وليس له حتى اللحظة اسم — اعني الحقيقة الالهية التي كلها

روثق وعجب وروعة والكامنة في كيان كل امرئ وكل شيء . — وجود  
الاله الذي خلق كل امرئ وكل شيء . وقد علم محمد هذا الدرس بأسلوبه  
ولقاه اودين بأسلوبه . وهو الدرس الذي مازال كل نبي قلب حتى يلقي  
الناس بهذه الطريقة أو تلك .

ولذلك يسمى « فيشتي » الكاتب نبياً أو قسيساً لا يزال يجلو لأبصار  
العالم المعاني المقدسة . والكاتب كنيسته مستمرة تعلم الناس ان الله  
موجود . وان جميع الظواهر وكل ما نراه في الكون انما هي ثوب  
« المعنى الدنيا المقدس » — ثوب « للسر الكامن تحت الظواهر » . فما  
من كاتب صادق الا وفيه سر الهى سواء اعترف بذلك الناس ام لم  
يعترفوا . فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ . ويرشد الخلق  
ويهديهم على طريقهم المظلم . ومسلكهم المبهم . في معامى الوقت وقمار  
الدهر كأنه عمود من النور . ويشدد فيشتي جداً في التمييز بين الكاتب  
الصادق الذي نسميه هنا الكاتب البطل وبين آلاف الكتاب الكاذبين  
غير الأبطال . فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك « المعنى المقدس »  
على جميع نفسه أو اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول ان يدخل البقية  
في طي ذلك المعنى فهو دعي وافاك ومزور بل هو لاشيء منها اكتسى من  
روثق الابهة وثقافة الجاه والمنزلة . ومثل هذا غير حقيق ان ينعم بين  
الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتي في الكاتب وهو في  
اسلوبه عين ما نرى اليه نحن في اسلوبنا .



ومن هذه الوجهة أرى أن أكبر الكتاب أثناء القرن السالف هو  
الألماني الكبير «جيتا» فقد قدر الله لتلك الرجل ان يشتمل عليه  
«المعنى المقدس» ويوهب البصر النافذ الى اعماق السر المقدس . ولقد  
تبدولنا الدنيا من خلال مؤلفاته عليها جلال الله ورونق القدس تشهد  
انها من صنع الخالق وانها هيكل الله . يحضها نور لين سماوى . ولست  
أرى هذه الإنبوة في عصور ساد فيها الكفر والاحاد وعملا من أجل  
أعمال تلك العصور وان كان من اسكنها واسكنها . ولولا علل عوائق  
لكان مثالنا على الكاتب البطل هو «جيتا» هذا . وما كنت الى شيء  
اشوق منى الى الخوض فى حديث بطولته . وموضوع عظمتة . لاني  
اراه بطلا صادقا . وعظيما جليلا . بطلا وعظيما فيما قال وفعل وربما  
كان أشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل . وهو فى نظرى آية من  
آيات الله — وبطل عظيم قديم أشبه فى كلامه وصمته بنبي غابر فى ثياب  
أديب حديث يلبس أجد أزياء التهذيب والمدنية وما رأينا منذ مائة  
وخمسين عاما منظرأ كهذا

ولكن ضلة الجيل الحاضر فى أمر هذا البطل وجهلهم بحقيقته .  
وسوء قدرهم لقيمتة . يجعل التعرض لتقديسه واجلاله ضربا من العبث  
الباطل . ومهما أقل فيه فسيفقى لمعظمكم لغزا من الألغاز . ولن تدرکوا  
من أمره الا خلاف الواقع . وانما أمره دفينة يسثيرها المستقبل .  
وحسب الساعة الحاضرة أن توقف على ثلاثة من أكبر أبطال القرن

السالف : جونسون وبارنز وروسو. ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال بعكس ما فيه «جيتا» اليوم من الرفه والنعمه. هؤلاء لم يظفروا وظفروا جيتا ولكنهم حاربوا فصرعوا. ولم يكونوا من جالبي الضياء وإنما من طالبيه ولقد كانوا من عيشهم في أبرح برح. وآلم قرح. كأنما يعانون من ايامهم سلاسل وأغلالا. ويحملون من فواح دهرهم هضابا وجبالا : فلا بدع ان تعذر عليهم ان يبرزوا من كوامن أفكارهم كل خفية . أو يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك « المعنى المقدس » ، والذي أعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم فانها الكشبان الأثرية التي يشوى تحتها ثلاثة من أضخم جبابرة القلم . مشهد محزن ولكنه لن يذمتع . فقفوا بنا على تلك القبور مليا .

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع وكيف ان كثيراً من العوامل الاجتماعية تسيء اداء وظائفها . وكيف ان كثيراً من القوى العمرانية الشديدة تكدح في غير مكدح وتكد في غير مكد . وتلك شكوى لاشك في صحتها . ولكن من نظر في جهة الكتاب والكتب وجدها أشد الجميع اختلالا وفسادا بل أصل كل اختلال وفساد — وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع اليه كل اختلاط وتشوش في العالم اولست أرى حالا أنكر من سوء ما يجزى به الكتاب على جليل ما يسدونه الى الملائ . ولو غمسننا العلم في هذا البحث غمسناه في بحر لاقرار له . ولكن لا بد لنا أن نمس شاطئ الموضوع اذ كنا غير غائضين

عباه تماماً للفائدة . وأسوأ ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب أنهم وجدوا عملهم في هذه الحياة ومركزهم ضرباً من القوضى . والسائح انا صادف طريقاً مذللاً ومنهجاً واضحاً مضى في سنه وأمعن في قصده . فاذا أصاب عقبة لا تقتحم وسداً لا يفتح فجعل يطعن فيه يبغى نفاذاً فأحر به أن يظل من عمله هذا في مصاب جلل وأوشك أن تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ما هنالك من الفائدة العظمى في خطاب الرجل للرجل وعظة المرء لآخوانه فأسسوا الكنائس والمساجد لتلك الغرض . فما من بقعة في العالم المتمدين الا بها منبر يستطيع منه الرجل أن يعظ باللسان اخوانه في الله وكانوا يرون ذلك من أهم الامور وانه لاخير في الحياة من دونه . والله ما كان أتقاه عملاً وأجمله مشهداً ! فاما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الامر . وليس الكاتب الذي يضع كتاباً خطياً ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك رهينة بذلك اليوم أو ذاك ولكنها خطبة لكل انسان في كل زمان ومكان ؟ وحقاً انه من يخطئ في عمله فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب أن يتوخى الصواب والسداد

والخطب العظيم والطامة الكبرى أن الناس لا يحفلون بالبتة أصاب كتاب الكتب أم اخطأوا — وجد كتاب الكتب أم فقدوا . نعم قد يكون للكاتب شيء من الأهمية عند طابع الكتب الذي يرجو أن يربح

مبلغا من وراء مؤلفه . فاما عند خلافه فلا . كلا ولا يعبا الناس من اين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب وكيف وصل وكيف يمكن أن تسهل له طرق التقدم والاستمرار . وإنما يراه المجتمع كأنما هو إحدى الشواذ فيتركونه يهيم كالذي لا يدري أين هو

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وصناعة الكتابة لاشك أكثر الفنون إعجازا وأعجب ما أبدع الانسان و «حروف» أودين كانت أول عمل أتاه أول أبطال العالم . وليست الكتب في هذه الأوقات الا من قبيل «حروف» أودين والكتب حرسكم الله مستودع حكمة الغابرين وفيها تتجلى لنا أرواح العصور الماضية . والحقب الخالية . بعد أن فنيت أجساما . وأصبحت أوهاما وأحلاما . ولا تنكر أن الجيش اللهم . والاسطول الضخم الجسام . والمرافئ والثغور . والمدائن والقصور . أشياء رائعة جليظة . ولكن ماذا مآلها وأين مصيرها ؟ . وإذا سالت اليوم عن أغائمنون وبيركليس ويونانهم رأيتها عهودا تبكي وتذكر بعد أن كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تزل عينك منها الا دمناعا فيات . وطلولا دارسات ورسوما دائرات . ومعاهد خربات . كأنها صحف باليات تنشرها أيدي السحب السواكب . وتطويها اكف الرياح الغرائب . اذا انفشتها أقلام الهاطلات مسحتها أنامل السافيات

لا يدى البلى فيها سطور مينة عبارتها أن كل بيت سيهجر

ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان؟ هي اليوم عينها بالأمس. لم يغيرها الزمان. ولم ينكرها الحدثان. ولا أبلتها العصور. ولا اخلفتها الدهور. هذا وقد خلد الله اليونان بين أوراقها وصفحها. وأحيائها في سطورها وحروفها. فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن. وأصبحت في تلك الاسفار ودائع ودفاتن. والكتب رعاكم الله فؤاد العالم يعي كل ما طرأ عليه من حوادث وآثار. وخواطر وأفكار. ووجدانات ومشاعر وفعال وماثر. ومشاهد ومناظر. فنعمة تراث الأوائل للاواخر. وتحفة الغابر للحاضر!

أوما زالت الكتب تأتي بالمعجزات تأتي زعموا أن «حروف أودين» كانت تاتيها؟ يلي حسبها أن فيها للناس دوافع ومحركات. وبواعث ومحرضات. ولن تعدم أحقر قصة وأسخطها أثرها الحميد في قاراتها ذوات الحرق والحرق من بنات الريف تفيدها بعد الزواج في ترتيب بيتها وتنظيمه. ثم انظروا مالذي شاد كنيسة سانت بول. هو كتاب التوراة الذي هو كلمة الرجل موسى الخارجى الطريد راعى الغنم في صحارى الطور نعم لقد أقامت الكتابة في العالم دولة المعجزات. وضمت الماضى والحاضر باوثق العقد وأوكد الصلاة. ولاصقت بين الشرق والغرب وصاقت بين القطب والقطب. وجمعت بين طنجة وبكين في قرن. وألفت بين نوح ونبليون في زمن. وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الاعمال. وجددت شانا بعد شان. وجالا بعد حال.

فانظر وامثالا إلى التعليم وما حدثت فيه الكتب من الاثر الجميل . وحسن  
التغيير والتبديل . لقد كانت الجامعات قبل الكتب هي الطريقة الوحيدة  
لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تذيع  
وتنشر وحين كان الرجل يريد الكتاب فينذر الضياع والعقد . وكان  
ذو العلم اذا اراد أن يعطي من علمه لم يجد بدامن جمع الطلاب حوله فيلقبهم  
العلم فألقبهم فاذا كنت في ذلك الوقت فاحببت أن تعرف من العلم ما يعرفه  
« ابلارد » لم يكن أمامك الا أن تذهب الى « ابلارد » . حتى لقد بلغ  
قصاد ابلارد وحججه نحواً من ثلاثين ألفاً يحشدون حوله ليستمعوا  
فلسفته واذ وجد بهذا المكان هذا العديد المجدد من طلاب العلم رآها  
العلماء الآخرون فرصة يحسن اغتنامها فمن وجد في نفسه الكفاءة  
لتدريس علم رأى ذلك المكان احق الامكنة بأن يذهب اليه فيعرض في  
سوقه سلعة علمه وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين زاد عليه الاقبال من  
الطلاب والمعلمين معا . وبعد ذلك اصبح المكان لا يحتاج الا الى  
التفات السلطان اليه ليجمع تلك المدارس المتعددة في مدرسة واحدة ثم  
يمنحها المباني والميز والمنح ويسميا جامعة . وهذا هو في نظري  
منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الامر قدماً لرأس .  
وذروة لاس . ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها  
علوا مبنياً : اذ لا يصبح المعلم في حاجة الى أن يجمع الطلاب حوله

ليسمعوا منه وما هو الا أن تطع الكتاب حتى يتناولوه من باقاصى  
الأرض غنيمة بلا عناء . ويرتشفه شربة بلا رشاء — هنيئاً مريناً وهو  
متكى على أريكته . مرتفق فوق وسادته . ليقلب فيه البصر .  
وينعم فى معانيه النظر ! ولا شك أن فى الخطبة لمزية خاصة . حتى  
لقد يحسن أحياناً بكتاب الكتب أن يخطبوا طلابهم أيضاً . وحسبكم  
ما نحن فيه الآن ! وأرى أنه مادام للمرء لسان فسيقى للخطابة فضل لا  
ينكر . وقيمة لا تحقر . ومنطقة للكلام . خلاف منطقة الأقلام .  
ولكن الحد الفاصل بين المنطقين لم يعين حتى اللحظة . ولم توجد بعد  
تلك الجامعة التى يفرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانها . ولا  
عرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فإذا كنا  
مفكرين فى ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون الا كأقدم جامعة أعنى ان  
يكون من شأنها تعليم القراءة — القراءة فى مختلف اللغات والعلوم —  
أى تعليم مبادئ كل صنف من أصناف الكتب . ولكن ماخذ  
العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا فى العلم متوقف بعد على  
مانقرأ بانفسنا مهما صنع لنا المعلمون . وأجاد المدرسون . نخرج من  
ذلك على ان خير جامعة فى هذه الأوقات هى مجموعة كتب .

وأما من جهة الكنيسة فالتغيير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير  
تام والكنيسة هى جماعة القسوس والأنبياء ذوى الهداية والإرشاد من  
يهدون بعظاتهم عباد الله الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم

لا كتابة ولا طباعة هو الاداة الوحيدة لبث النور والهدى . فاما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس وياخذ بزمامها نحو الحق فذلك بطريق امته وامامها . وطالما قلت ان كتاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب هم في الحقيقة الكنيسة العاملة الفعالة في الامم الحاضرة . وليست الكتب خطباً لنا فقط بل هي أيضاً ضرب من ضروب العبادة وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسبيح . أو ليس المعنى الشريف يرفه اليك البليغ في روثق اللفظ المصقول يختال من صفاء السبك واشراق الدياتجة في أكرم حلة وابهج خلعة فيمتزج باجزاء النفس ويمجى مع الروح حتى يظل سامعه لنا مفاصله كأنما تترت أو صاله الكاس

يفعل بالنفس ماتفعله العبادة ؟ ولعل الكثيرين لا يعرفون في هذه الاوقات الفاسدة من أساليب العبادة الا هذا الأسلوب . والشاعر الذى يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائباً عنك أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته وشعبه من ينبوع الجمال الالهى الشامل وعلى سطر خطه القلم العلوى في صحيفة الكون فبدأ مبيناً ناصعاً جلياً ساطعاً . وكأنما غنى لنا نشيداً قدسياً فصدحنا معا وإذا كان هذا شان من يصف زهرة الروض فكيف الذى يتغنى لنا بمكارم أولى العزم ومآثرهم . ومناقب ذوى الفضل ومفاخرهم . مثل هذا كأنما يمس اكبادنا بجدوة من مجامر المحراب . ولعلها أشرف طرق العبادة .



وما الادب الا كشف وجلاء لاسرار بدائع الله أو ما يسمونه « السر  
الجلي » وقد عرف الادب « فيشتي » بأنه البيان المستمر لما يمكن من  
أسرار الله في الاشياء الارضية العادية . فان أسرار الله ما برحت كائنة  
في كل شيء وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذلك من يبرزها  
في هذه الصورة أو تلك في مقادير مختلفة من الوضوح ودرجات متفاوتة  
من البيان كل حسب ما وهبه الله من الفضل . هذا هو الذي مازال ذوو  
المواهب اللدنية من الشعراء والكاتب والخطباء والمتكلمين يصنعونه  
عمداً وعضواً . حتى لقد تجد أن شعر بيرون لا يخلو من تلك الاسرار  
برغم ما قدمنا به من زوابع الحنق وصواعق القذف والانتقام ومعاسف  
الغل والحقد والضعينة على نبي البشر . وهي (الاسرار) أيضاً كائنة  
في متواضع شعر بارنز ذلك الفلاح الذي كان يجتلس القوافي من خلال  
حركات الفاس والمحراث — صاحب القصائد التي كأنها أغاريد القنبرة  
صاعدة من أديم التراب . إلى أعلى ذوات السحاب . والحقيقة أن  
كل غناء صادق هو عبادة كما أن كل شغل صادق هو أيضاً عبادة . وما  
الغناء الصادق لو نظرت الا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى  
مطرب ومن أنعم النظر رأى هنا لك قطعاً آجمة من الاناشيد الكنيسية .  
والصلوات الدينية . طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذي يسمونه  
بحر الادب ! فالكتب أيضاً كنيسة .

نتقل الآن إلى تأثير الادب في الحكومة . لقد كان البرلمان قوة

عظمى تبرم أمور الرعية وتنقض . وتعقد شؤون الامة وتحمل .  
وتصرف أئنة البلاد وتدبر . وتقطع أحكامها وتقرر . بعد طول  
الروية والنظر وادمان التامل والفكر . واطالة المناقشة والمحاورة  
وادامة المجادلة والمناظرة ولكن انظروا الآن أما ترون أن عمل البرلمان  
هذا يعمل الآن خارج البرلمان في طول البلاد وعرضها بواسطة  
المطبوعات من جرائد ومجلات . ورسائل ومؤلفات . وان كان  
البرلمان لما يزل باقياً . ولقد قال بيرك أن البرلمان ثلاثة أركان  
ولكن بمجلس مخبرى الجرائد ركناً رابعاً أهم من تلك الأركان الثلاثة  
ولم تك كلمة هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت  
خطارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك . فالادب هو برلماننا أيضاً .  
والديموقراطية أيديكم الله رهن الطباعة التي هي من نتائج الكتابة . وما هو  
الا أن نخترع الكتابة حتى تنبع الديموقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة -  
الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم فيصبح كل ذى لسان بوقا يسمع  
الشعب وقوة وفرعاً من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع  
الشرائع والقوانين . وجميع تصاريف السلطة . ولا ينظر اليه من  
أى طبقة هو وماذا يملك وماذا يلبس . وإنما الامر الجوهري هو  
أصاحب لسان . وأخويان . فيصغى اليه ويقبل عليه . هذا لاغيره  
الامر الأساسى فالامة محكومة بكل ذى لسان من أبنائها . وهناك الديموقراطية  
ولا مشاحة . ضف الي ذلك أنه مامن قوة موجودة في الكون الا

وسير يكها الدهر يوماً ما فعالة معترفاً بسلطانها . فهي لا تزال تعمل في خفاء  
وتكد تحت غطاء . تدافع العوائق والعوائق تدافعها وتصارع الموانع  
والموانع تصارعها . حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات . وتطلقها  
يد النصر من سلاسل العقبات . فتذهب في شعاب الحق كل مذهب .  
وتضرب في مناصب الإصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديمقراطية  
حتى تبرز للعيان . ويصطلي شمسها كل انسان .

أوما يزال في كل شيء دليل على أن خير ما في طاقة امرئ أن يصنع  
وأعجب الأشياء طرا وأثقلها في النفوس وزناً . وأخفها على الاسماع  
حسناً . وأطفها في النفوس مكناً . وأقلها في العقول رجحاناً . هو كتاب  
لله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلع المداد الأسود أى جليل من الأمر  
لم تأت وأى شيء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ! ولا غرو فهل كانت  
تلك الرقع مهما حقر ظاهرها الا أشرف نتائج الذهن البشرى ؟ هي فكر  
الانسان — الفضيلة الحرة التي بها يصنع كل شيء . وجميع ما يفعل الانسان  
ويحدث انما هو ثوب فكرة . وجسم روحه رأى من آرائه فمدينة لندن  
هذه بجميع ما بها من منازل ودور . وحلل وقصور . وعدد وآلات .  
وكنائس وبيعات . وحركة وصخب . وجلبة ولجب . ماكل هذه إلا  
فكرة أو مليون فكرة ألف شملها نظام فصارت واحدة . ماهى الروح  
فكرة جسيمة قد تجسدت في الطوب والحديد والخشب والتراب والدخان  
والقصور والبرلمانات والمركبات والمصانع وسائر ما تنظر من الأشياء

وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها  
وما نسميه قطعاً من الورق عليها لمع من الخبر إنما هو أطيّب مظهر  
للقمر البشرى . فلا عجب أن يكون أنشطها وأكرمها

وقد طالما أقر الناس بفضل الكتاب وخطارة شأنهم في العصور  
الحديثة واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها  
ولكنه أقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة . وعسى أن يكون قد آن  
للعواطف أن تخلي مكانها للامدادات المادية واذا كنا نقر ونعترف بان  
للكتاب على المجتمع النعم الغراء والمنن البيضاء . وانهم يحبون به في  
سبيل التقدم ويسمون به في مراقي المدينة فما بالنا اذ نتركهم في أسوأ  
حال من نكد الحياة وجحد العيش . من أمرهم في حيرة عشواء . وضلالة  
عمياء . ويقيني أن كل شيء فيه فضيلة قوة خفية فسيحسر يوماً ما لثامه  
ويميط قناعه ويسفر لنا ناصع الصورة . واضح الغرة . بين الاشارة جدير  
الصوت . فأما أن يلبس أناس زى الأدب والكتابة ويقبضون أجرها  
ويتصور من الجوع الكاتب الحقيقي صاحب الخير والمنفعة فما ذلك  
بعدل وإنما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون وأسفاه  
إلا بعد الجهد الجهد . والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات  
ومعضلات الله وحده المعين على حلها .

فاذا سألتوني ماهو أحسن نظام تجعل عليه حالة الكتاب في العصور  
الحديثة وما هي خير طريقة لتنظيم شؤونهم واستمرارها تكون على تمام

مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع: استقلت من الاجابة على هذا السؤال  
لقصور مبلغ عقلي عنه . وانها لمعضلة لو تابعت عليها عدة عقول راجحة  
لما استطاعت لها حلا تقريبياً فكيف بعقل واحد؟ نعم ولا أحب  
ان احدا يقدر أن يقول ماهو احسن نظام لأمر الكتاب . فاما اذا سال  
سائل ماهو شر نظام واخبثه قلب هذا الذي هو كائن اليوم — هذا الخلط  
السائد والفوضى المستحكمة . وما ابعد ما بيننا وبين نظام صالح طيب .  
و ثمت شيء لا يفوتني ذكره وهو ان هناك غير امر العطايا المالية  
أمر أهم وأعظم ألا وهو اجلال الكتاب وتقديسهم وهو امر كان  
معدوما في القرن الثامن عشر — قرن الجحود والكفر . فاما هبة  
العطايا وترتيب الرسوم فهي على ضرورتها في بعض الاحيان قلنا  
تقرينا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتاب . واني لاحد الذين  
اسامهم كثرة ما يلغظ به من سلطان المال وفضله على كل شيء . بل اني  
احد القائلين بانه لا ضير على الحر ان يكون فقيرا . وانه يجب ان يكون  
من الفقير محك لاذهان الكتاب ومعيار لقيمهم وأقدارهم . وقد  
اوجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال ابرار قدرت لهم  
الشحذ والتسول ورأت الكنيسة ان ذلك من أسباب نشر روح الدين  
وتأييده . وهل اسست النصرانية نفسها الا على الفقر والحزن  
والاضطهاد والصلب وسائر أصناف الغم والمهانة؟ ولنا ان نقول ان  
من لم يعرف هذه الأشياء فيتعلم منها درسها الذي لا تقدر قيمته فقد فاتته

من فرص التعليم أتمنها . ومن اسباب التقويم والثقيف امتها . ومن فوائد الترية والتهديب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحادة والحفاء ولبس المسوح وشد الجبال في الأوساط بالشيء الجميل او الجليل في اعين الناس حتى جملة وشرفه مزاولة الكرام له . واتيان الجلة الاشراف اياه وليس موضوع الشحادة من اغراض هذا الكتاب ولكن من ذا الذي لا يقول بان كاتباً يكونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جدير أن يعلم أن المال أو النجاح كيفما كان لم يكن الغرض الذي يسعى ليدركه . وكان ملياً ان يعرف ان فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه . وانه من اوجب الواجب اقتلاع هذه الاغراس اللئيمة من تربة النفس . ثم اذكروا ان ييرون مع غناه وشرف نسبه كان اقل فائدة وأصغر مآثرة من بارز مع فقره وضعة نسبه . وما يذرينا أنه اذا وجد في المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لا يزال ركناً من أهم أركانه وكان الكتاب — أبطالنا الروحانيون — لا يزالون طائفة من الشحاذين متاحلهم العوز والتكفف حتى يجنوا ما فيهما من كرائم الثرات وينتفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر أن الطيب الكثير يبلغ بالمال . ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر وانما علينا ان نعرف حد المال فتقف عنده ونعلم أن ما زاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الامدادات المادية والرسوم المالية فاني لنا  
بمعرفة الكاتب الكبير الذى يستحقها؛ انه لا بد قد منح من أن يجوز  
الامتحان اللائق . وأرى ان الحياة الأدبية — تلك التى كلها فوضى يتلاطم  
موجها ويتصادم لجها . هى نوع من الامتحان . وما زال هناك عنصر من  
الحق فى قولهم ان الجهاد فى سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى الى  
ذرى الطبقات العليا هو من الأمور التى لا بد من بقائها لما يترتب  
عليها من استمرار رقى العالم . اذ أنه ما زال يولد فى الطبقات السفلى من  
ينبغى أن يكون فى أرفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم  
ذلك الجهاد؟ هذه مسألة المسائل فاما أن يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهناً  
بمحاسن الصدف . فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خاب الباقون .  
أو نجا واحد من ألف هلك فى الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون .  
ويترك مثل بارنر يجود بروحه ولا يجود عليه إنسان بدرهم ومثل جونسون  
يزجى الوقت بين الثوباء والمطواء فى حجرته ينطبق عليه قول القائل  
تلوم على تبلدها قلوبا تلاقى فى معيشتها جهادا  
اذا ما النار لم تطعم وقودا فاوشك أن تمر بها رامادا  
حتى إذا شرع يكتب راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البنخس  
والوكس كأنه فى مضمار أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيار . ويترك  
مثل روسو على جمر الاعسار والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم  
اللذاع فيؤجج الثورات الفرنسية — هذا واجم الله شر النظام وأسوءه .

فاما النظام الاحسن فهيات منه نحن وانى لنا به الآن ا  
يد أنه لاشك هناك في أن ذلك النظام آت يحمله المستقبل البعيد  
في جوفه جنيناً في رحم الزمان الآجل . وهذا ما أجراً على أن أنبأ به  
لانه لا يكاد الناس يرون فضل الشيء حتى ياخذوا في تسهيله وترجيته .  
وتنظيمه وترقيته . ثم لا يستريحون أو يروه قد أبلغ منتهى ما يستطيعون  
أن يبلغوا به وقد قلت أنه ليس في سلطات الكنيسة والحكومات  
بانواعها سلطة تستحق أن تقارن بدولة الاقلام . وقد قال الوزير «بيت»  
وقد سئل أن يكتب بشيء من المال للشاعر الاكبر بارنز «الادب سيد  
نفسه يدبر زمامها ويسوسها وليس في حاجة إلى الناس» قال المستر  
«سونى» نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها . وهو أيضاً سيدك  
يسوسك وياخذ بخظام انك إذا أنت لم تلتفت اليه وتعرف له قدره»  
وما معظم الضرر بواقع على الكتاب فانهم أفراد وجزء ضئيل جدا  
من الجسم الكلى . وفي جهدهم أن يجاهدوا ويكابدوا . حتى يظفروا  
أو يموتوا فيعذروا . ولكنه يهيم المجتمع أن يضع شبهه ومصايحه  
في الذرى والغوارب وحيث ترى فتهدى . أم يجعلوها تحت أقدامهم  
ويبدوا جوهرها الساطع شررا يستطير في حيث لا مقتبس ولا متور  
ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الجرق . وقد حدث .  
والنور هذا كم الله هورأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع  
وآخرها : وان دنيا يتقدمها النور لجديرة أن تظفر في حربها مع الدهر



وتكون للانسان احسن دنيا . وعندى أن مرض الفوضى الكتابية هو أصل سائر الامراض فداوه تشف المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدأ في آفاق الادب بفرنسا وبروسيا تبشير نظام نقابلها بالاستبشار والهتاف لانها بشير بان ماقد حدث في هذين البلدين خلق أن يحدث في غيرهما .

ان أهم ماسمعت عن الصين أمر فيه علينا لبس وابهام ولكنه يحرك فينا أعظم الشوق على لبسه واشكاله . وهو محاولتهم أن يختاروا ملو لهم من بين كتابهم وادبائهم . وأرى أنه من الخطل والخبط أن يتكلف أحدنا فهم هذا الامر فضلا عن شرحه وبيانه . وما أحسب الا أن مثل هذه الامور لن يكون إلا عديم النجح غير أن في مجرد محاولتها فضلا كبيرا ! ويظهر أن في جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث عن أولى الالباب في كل جيل من النابتة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة فن أظهر براعة في دنيا المداس رفع إلى أعلى منها درجة وهكذا حتى يفضى إلى أشرفها منزلة . ومن ثم ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها : وربما قلد عملا أو ولاية . وتلك هي الطائفة التي منها يختار الولاة والحكام مع الأمل والرجاء فقيم وليس في غيرهم ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء نعم فليجرب هؤلاء وان كانوا المسايزاولوا الحكم والادارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها ولكن لهم على كل حال فهم وعقل — ذاك الذي لا يستطيع الحكم والادارة الابيه . وليس العقل بألة كما جرت العادة بتشبيهه ولكنه يد

يمكنها أن تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية ذوا الالباب فانهم أحق الناس بالتجربة . ولا أحسب أن هناك شيئاً أسر لطلاب الاصلاح ذوى الاخلاص والغيرة من إسناد الرئاسة الى ذوى العقل . لأنهم فى الحقيقة ذوى العدل والبر والمروءة والرحمة قلوبهم أموركم تظفروا بكل شئ . دعوا توليتهم تخسروا كل شئ !

ولعلمكم ترون مثل هذه المسائل غريباً مما لايجرى فى محاورات الناس ولا يدور فى مذاكراتهم . وليس العيب فى المسائل وإنما فى الجليل والعصر . وإنما الواجب أن تطرح هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضح فتخرج الى حيز العقل . ويسلينا بعد أنا أننا القينا البصر وجدنا دليلاً بيناً وبرهاناً ناطقاً على أن دولة القديم قد زالت . وان طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها . وان الأشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت ووقدت مزاياها ومعانيها . وان الألوف المؤلفة من الاوربيين قد أصبحوا لايطبقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . واذا عادت الملايين من خلق الله وهم لا يستطيعون احراز المطعم ويظل ثلث الناس لايطبقون الحصول على أردء أنواع البطاطس مدة ثلاثة ارباع العام فقد آن ولا شك للامور أن تتغير وللاحوال أن تتبدل ! هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل لتحسين حالة الكتاب

وان عدم ذلك النظام وان كان من آفات كتابنا الثلاثة فلم يك بعد

اشد الآفات . بل كانت آفة هي أصل عدم النظام وأصل كل آفة أخرى . وهي إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فاما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتمالها . وقد كان الكاتب البطل يطبق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته . وعلى وحدة السفر ووخشته . وشقبق بعقله النافذ في السدود المعترضة والعقبات القائمة لولا أن ذلك العقل قد فلل من حده تأثير ما كان حوله من الكفر والإلحاد . نعم لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ما ساد في تلك الأزمان من شلل الأرواح وموت النفوس . ولم يعد ذلك الوسط السيء والجو الفاسد أثره الخبيث في قلوب أبطالنا الثلاثة وحسبي أن أقول عن القرن الثامن عشر أنه كُن عصر الإلحاد وقد نعت به بكل خسيصة ووصفته بكل ذنيئة وخبيثة . والكفر وقاكم الله جملة المحن والبلايا وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الإلحاد هو موت الأذهان فقط بل موت الأخلاق كذلك . وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الإخلاص ونموت الأرواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الأبطال . وجوه سام لهم والبطولة روح لا تتعش إلا بنسيم الإيمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محى من كل خاطر وبأل . وأمسى يراه كل إنسان حديث خرافة وضرباً من المحال . وأصبح قد سار به القارظان . وبات في خبر كان . وطارت به العنقاء وتبدد في رياح الكفر تبدد إلهباء . وذاب في موج الجحود نوب الجفاء . أو ذهب السراب المرقوق في أكناف القفرة

المساء . وقام بدل معنى البطولة معانى الشك والاستخفاف والرسوم  
الميتة والاصطلاحات الجامدة . وأصبح الناس فى عالم لارعاه الله من عالم  
خلو من الروعة . والعجب والعظمة — عالم خلا جوه من التقديس  
فباض فيه الشيطان وافرغ !

وما كان أخبث الأفكار اذذاك وأخسها وأسفلها اذا قورنت بافكار  
قدماء الوثنيين المتوحشين لا بافكار الاتقياء داتى وشاكسير وملتون ا  
وكيف وقد كان الوثنيين يشبهون الحياة الانسانية والطبيعية بشجرة  
جنورها فى عالم الموت وفروعها فى الجنان وهى فينانة غيداء . وحفة  
غناء . كثيفة الورق ملتفة الاغصان . غير محصية الفنون والالوان  
مدودة الظلال منفسحة الاقياء . قد ضربت فى جميع الارزاء والانحاء  
وغصت بها كافة الآفاق والاجواء . فنسى كفار المدينة الحديثة — أهل  
القرن الثامن عشر هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكيئة تصل  
صليل الحديد وترن رنين النحاس يالله أى فرق بين الشجرة والمكيئة ا  
قارنوا أصلحك الله بين هاتين . أما أنا فلست بقاتل قط أن العالم مكيئة  
لست بقاتل أنها تدور بلولب وعجل وبما يقوله الاقتصاديون من  
العوامل والمصالح والموانع والموازين والمقاييس . ولكنى صائح بملء  
فى أن هنالك أسرار خلاف رنين آلات المصانع وضجيج صراخ  
البرلمانات . وأن العالم على كل حال ليس بمكيئة ! أفلا ترون بعد  
فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء أولئك الجهلة المتمدين أصحاب

المذهب « المكيى » (١) ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصنة مؤمنة . ولكن هؤلاء الكفرة الاشقياء لا اخلاص لهم ولا صدق ولا مروءة ولا شعور . وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه لا ينظرون الى لب الشيء وحقيقته بل الى أقوال الناس فيه . فقد ارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . واثما غاب عنهم أن الاخلاص قد يكون فى هذه الدنيا . وانه لم يصير بعد من المستحيلات . بل جهلوا معنى الاخلاص بالمرءة وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع « ألا ترونى رجلا مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللئيم الدقيق رجلاً مخلصاً لشد ما اخطأت معنى الاخلاص . وجملة القول أنه كان عصر موت لاهية اللهم الاحياة كحياة المكينات حركة بلا روح وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الفرق فى عباب ذلك الكفر الاركوبة خشبة صلبة من حطام المذهب القديم والدين القويم — ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على طلله ذلك البناء الحثيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد . وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر وغوالب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لامحالة الا أن يكون صارم العزم ماضى الجنان شديد

---

(١) نسبة الى مكينة يقولها كارليل تهكاً بالقوم لانهم كانوا يرمعون أن

الايد . فاذا كان ذلك لم تك حياته بعد الاحياة يحفظها الموت ولم يستحق من الاسماء الالقب « نصف بطل »

كل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم في ذلك المضمار لا غتال شاوه ما ليس يحصى من الساعات ولكن في قليل الكلم غنية عن كثيره . وقد يجتزأ عن طول المقال بقصيره . وأن كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام وسم الحياة الذي اليه وجهت جيوش الهجاء وتلت كنانن القذف منذ به الخليفة و حرب الشك واليقين هي الحرب التي لا تنتهى ! ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشاك أن نحاسبهم حساب المجرم وانما هي سنة الدهر وتصرفات الحال واضمحلال المذاهب القديمة وبلى الاراء العتيقة والاعداد والتجهيز لمذاهب سيجيء بها المستقبل البعيد خير من القديم واسمى . فكيف نأخذ القوم بذلك وانما هو قضاء محتوم . وقدر محموم . وفي الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عذلم وتأنيبهم لو نفقه ولنعرف بعد أن اعدام الصور القديمة والاضاع العتيقة ليس اعداما للحقائق الخالدة . وان الشك أو الاحاد على شره ونكره ليس بخاتمة وانما هو فاتحة .

ولقد انكرت في بعض كلماتي مذهب بنتام — مذهب الماديين وما انكارى له بطعن على مؤسسه واتباعه . واذا كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله واليقين الصراح بأن الكون خال من كل

معنى المحى وليس هو الامادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه — أقول  
اذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض فهو عندى خير من مذهب  
الشك بما انه استقرار وثبات فى ذلك الموضوع الذى يحوم حوله أهل  
شك فى حيرة وتردد . ورأى ان الإقامة على شر الطرفين . اشرف  
من الحيرة بين بين . ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت خير له من  
ان يظل وهو لاسى فيرجى . ولا ميت فيبكى . نعم ورأى ان هذه  
المادية المكينية <sup>(١)</sup> هى اقتراب من المذهب الايمانى الجديد بما انها  
كانت اطراحا للتصنع والفسطة . وكانت كقول الانسان لنفسه  
« لاشك فى أن هذا الكون انما هو مكنية ميتة من الحديد وما الهما الا  
الجاذبية والا الجوع والشهه وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا  
استخراج اكرم نتائجها بحسن ادارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! »  
أفلا ترون بعد ذلك فى جرأة المادية على التمسك بما تعتقد معنى من  
توفر القوة والرجولة والشجاعة . حتى ليمكنك أن تسميها نوعا من  
البطولة وان كانت بعد بطولة قلعت عينها ! هى كما قلت الغاية القصوى  
لذلك الشك الذى أخذ بخناق القرن الثامن عشر — بلغها أصحابها بفضل  
الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة . ويظهر لى أن جميع الكافرين  
والمؤمنين باللسان لا بالقلب سيصيرون يوما ما الى المادية لو ساعدتهم

---

(١) المادية اعنى مذهب الماديين على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصارى

والمكينية نسبة الى مكنية وقد مر تفسيرها

جرأة وصدق نية . والمادية كما قلت بطولية عمياء وانما أشبه النوع  
الانسانى فى المادية بمجالات فى طاحون بيت المقدس يدور مفقوه العنين  
ثم لا يلبث أن ينشب يديه فى أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا .  
ولكنه خراب يشفعه الخلاص

ولكنى مع ذلك أقول وأرجو أن اصادف قلوبا واعية أن كل من لم  
يجد فى ذلك الكون الا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر اضلال .  
ولست أرى سقطة أشنع من أن يتجرد رأى الانسان فى هذه الخليقة  
من كل معنى الهى . فان ذلك كذب وباطل — كذب فى سويداء لبه  
وصميم كبه . ومن كانت هذه عقيدته فأحر به أن يخطيء الصواب فى  
كل شيء وأن لا يقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه  
تلك الغلظة الجوهرية . فهى جديرة أن تعد فى نظرنا شر اضلولة غير  
مستئين اضلولة السحر نفسها . وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على  
عبادة شيطان حى . والمادية تحمل أهلها على عبادة شيطانى حديدى  
ميت . عجبا لها إذا جردت الكون من آلهة افلا أقل من ان تترك فيه  
شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف  
والجلال والروعة والقدس . وتركته جثة بلا روح وهيكلا بلا حياة  
فانى للانسان بعد ذلك بمساعى الابطال . وما أثر ذوى الهمم والمروءات  
من الرجال . وانما الذى يستفيده من ذلك المذهب الكاذب هو  
ان ليس فى الحياة إلا حب الشهوات والملاذ ومخافة الهم والالم . وأن



الحقيقة القسوى في حياة المرء هي الحرص المقوت على المدح والمال  
وسائر الماديات. أو بالاختصار هي الكفر. والكفر عقوبة نفسه  
أما الايمان فهو عندي صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح.  
وهو عملية خفية مبهمه لا توصف. شأن كل عملية خية جوهرية. ولم  
نعط العقل لتعارض به ونفسط. ونجادل ونلغظ. ولكن لئرى به  
حقائق الأشياء فنفهم ونوقن. ثم نجعل اليقين أساساً نبنى عليه الفعال.  
ومبدأ نستهل منه فوائح الأعمال. وليس الشك نفسه بجرمة. وكيفوما  
كان قط للانسان في مسائل المناهب والعقائد أن يقع على أول ما يصادف  
فيحتمله ويعتقده. ولا من العقل أن يركب الرجل رأسه في الرأي  
وينخرط في الأمر من غير تدبير ولا روية. وإنما العاقل من بات  
يقسم رأيه ويشاور نفسه<sup>(١)</sup> ولا يمضى الرأي حتى ينضج ويختمر  
لا كما مضى جاهل عجرفي يركب الأمر قبل شد الحزام  
فاذا فعل ذلك جاء رأيه مشحود الغرار محصد الجبل حصيف العقيدة  
جديراً أن يجلى ليل الخطوب والاتراح. ويخلص بين الماء والراح.  
ويكشف معالم الحق الصراح. والشك والبحث والتنقيب غريزية في  
نفس كل عاقل. وهي جولة العقل في الأمر الذي يحاول أن يعرف  
ليعتقده. وتنبت شجرة اليقين كما تنبت غصن الشجرة من مستسر

---

(١) يقال يشاور نفسه اذا جعل ينظر بأى رأيه يأتمر وذلك اذا اتجه له رأبان

لا يدري على أيهما يعتمد

الجنود . ولكنه لما كان الواجب على المرء في عادي الأمور أن يسر شكوكه حتى يؤول بها طول النظر والتقليب اما قبولاً أو رفضاً . فبالكم باسمي الأمور وأعلاها التي يعجز عن صفة كنهها اللسان . فاما ان يبرز المرء شكوكه ويحسب أن المجادلة والمناظرة هي أقصى مبلغ قوة العقل وأكرم ماثره فهذا مثل أن تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الأبصار منظر جذورها القبيح بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وFinan الأفرع الخضر - فترى منظر الموت والشقاء . موضع الحياة والنماء !

والشك كما قلت ليس في العقل فقط بل هو في النفس والأخلاق أيضاً وهو مرض الروح كافة . وانما يحي المرء باعتقاده شيئاً من الأشياء لا بالمناظرة والمجادلة في جملة أشياء . ولن ترى حالاً أسوأ من أن يظل الانسان وهو لا يؤمن الا بالشيء الذي يزر عليه جيبه ويلتمه باحدى حواسه ويهضمه ! وهذه مسقطه ليس دونها وأيكم مهبط ولا منحدر . وانما نسمى الأعصر التي يهوى بها الانسان لهذا الدرك أمراض العصور وأخسها وأحقها بالحزن والبكاء . وفي مثلها تشل يمين الدهر وتقرح كبد الدنيا ويحمد نبض الحياة ! وفي مثلها تفيض عيون الخير . وتطمس معالم البر . وينقطع العمل الصادق الحر . ويقوم بدله الخدق بالتقليد والمحاكاة وهو عنوان رق الأنفس وأسرار الاذهان . وعمه البصائر والقلوب وهناك تنهب أموال الدنيا وتملأ واجباتها وتستلب خيراتها لا تؤدي

حقوقها ولا تصلح شؤونها . وكيف وقد ذهبت الأبطال  
وجاء كل كاذب دجال . والحقيقة أنه لم يات منذ العهد الأخير من  
دولة الرومان قرن هو أجفل باهل الزور والدجل من ذلك القرن  
الثامن عشر . اذكروا رعاكم الله رجال ذلك القرن وانظروا ماذا كانوا  
يتصنعون من حمد الفضائل . وذم الرذائل . وهل رأيتم عندهم الاقولا بلا  
فعل . ومنطقا بلا عمل . شقشقة هادرة . وهما فائرة . والسنة  
خالبة . وقلوبا كاذبة وأعينات تدي وأفئدة كالصخر أو أقيس . ونفوسا  
وسنى . وجعجة ولا طحنا وكأني بهم قد حسبوا أن الفش والنفاق  
والكذب هي من عناصر الحق التي لا يقوم الا بها . ولقد بلغ من ذلك  
أن الوزير شاتام ذلك المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ويدخل  
مجلس البرلمان ملفوف الاعضاء في الخرق كأنه مكسر العظم مجبره  
ويشيع عن نفسه أنه في أشد برحاء الداء وانه لولا حقوق الشرف والمروءة .  
وحرمة الأوطان لما خرج يتحامل قطع الخطو مبهور الانفاس .  
حتى إذا انطلقت به أشواط البيان في ميادين المناظرة . وطارت به  
أجنحة البلاغة في آفاق المناقشة والمحاورة . نسي ماقد تكلفه من التماز  
فاستل ذراعه من لفاقته استلال الصارم الجراز من غمده وجعل يهزه  
ويطوحه فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفوه ! وكذلك ما انفك شاتام  
هذا منذ قرع أبواب السياسة إلى أن قرع عليه الحمام أبواب الحياة . وهو  
يمزج بين الصدق والكذب والحق والباطل : نصفه للشرف ونصفه

للخسة وشطره لله وشطره للشيطان . ولعل حجته في ذلك أن الدنيا لا تنال  
بارضاء الناس والناس معظمهم بله مخاديع فمن أراد الدنيا فليجعل الغش  
والخدیعة ذریعته . فكيف والحال هذه تؤدي حقوق العالم ؟ وماذا  
ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء . والمحن والأرزاء .  
وكانی بك قد وقعت على أصل ادواء العالم حينما تسمیه عالما كافرا —  
عالما عديم الاخلاص — عالم كذب وباطل — عالما شيطانيا !  
وهذا هو ما أراه منبع كل آفة اجتماعية — منبع الثورات الفرنسية  
وأرى أنه لا بد من تغير هذه الحال ولست أتوقع للعالم خيرا ونفعاً حتى  
يحدث ذلك التغير . وإن أملی الوحيد في حسن المآل . وعزائی عما  
أراه من شقاء العیش وبؤس الحال . هو أنى أرى ذلك التغير قد بدأ  
وانه مستمر . وانى قد أجد من آن إلى آخر الرجل المؤمن الذى يعرف  
أن هذا العالم حق وما هو باكدوبة ولعبة . وانه هو نفسه حى وليس  
بميت ولا مفلوج . وان العالم حى يخفق فيه روح الله ويجول في ارجائه  
رويق الجمال والجلال . وانه كحاله في أوائل الزمن وبكرة الدهر ! وعندى  
أنه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون بل عرفه الجميع على  
مدى الأيام . وكيف وانه جلى واضح لو كشف الغبي على قلبه الغطاء .  
وضرح عن إنسان عينه الاقضاء ! وكانى بذلكم الرجل المؤمن وهو  
ينظر من دولة الكفر في اعقاب نجم آفل . وبقية ظل زائل . ويستقبل  
من دولة الايمان تابشير صبح أغر . ونفحات روض عاطر . ولا

يرى الرسوم القديمة على متانتها الا خيالات تم بالزوال واشباحا تشد للرحيل الرحال . وكانى بذلك المؤمن يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله « ما أنت بحق وانما خيال زور . فاذهبي وعليك العفاء ! » نعم سذهب دولة الاحقاد بحواشيها من ماديات وكفريات ورسوم كاذبات وما ذلك القرن الثامن عشر بعد الافلقة من فلتات الدهر لا تيجى حتى تنصرف . وانى لأتفائل للعالم باقبال السعد والنجاح . والخير والفلاح . ودولة الايمان يقوم عمودها . ويخضر عودها . ويضرب رواقها . وترف أوراقها . وعند ذلك يروح العالم بقدر رايح . وسهم راجح بل مالنا وفوز العالم وربحه ؟ لشد ما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيبته وانما يجب على كل رجل أن يعرف أن له حياة تعنيه شؤونها وتوده اعباؤها مهما يكن من أمر الدنيا وسواء أفلح العالم أو اخفق . وان عمره انما هو لحظة بين ابدين . وما للانسان بعد الموت الى هذه الحياة من كرة . فنجديرنا أن لانعيش عيشة النوكى الأصفار من كل فضل ومكرمة ولكن عيشة النبلاء العامرى النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما فى نجاحها ربح لنا ولا فى خيبتها خسارة . وانما هم العاقل أن يعنى بامر نفسه وفى ذلك مندوحة له عن غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات الى هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى انحاء الارض قصد ترقية الامم والشعوب ولللامم والشعوب اله أرحم بهم من كل مخلوق واملاً بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذه من نتائج تصنع

القرن السالف وكذبه فليتنجها أهل هذا القرن . وليكن لهم في اصلاح شؤون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .  
وفي تلك الأحوال وهاتيك الأزمان كان يعيش كتابنا الثلاثة جرنسون وبارنزوروسو — في أزمان أصفرت الحياقا أثناءها من كل أثر للحق والصدق فاما الحقائق القديمة فكانت قد هدرتها . وخرس لسانها وأما الجديدة فكانت اجتهت في بطن المستقبل لا جرس لها ولا نيس . ولم يك لاح في ظلمة الكفر المطلخمة فجر اليقين وصديع الايمان ولم يك نبع في قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق كلا ولا الثورة الفرنسية نفسها التي هي على علاقتها نوع من الحق وإن كان يعد حقا ملتفعا برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة وبين سيرة جونسون المحفوقة بالمزاعم والفروض التي عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فاحرقها واخلى من عقباتها سبيله . ولكن أباطيل زمن جونسون كانت مما يحرق بالنار . فبقيت في طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملاءمى من الأعمال أعنى من الصعائب والآلام بما يستفرغ جهده . فاما أن يظفر المرء مابين الظفر في عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب . فلم يك مصاب جونسون قاصراً على العوائق وفساد النظام والفقر الذي حبس رزقه عند قرشين في اليوم . بل لقد كان جونسون قد سلب نور روجه . فلا معالم تهديه في

الأرض . و ابرح من ذلك أن أصفرت سماءه من كل نجم ا . فلا غرو أنه لم ينل النصر المين من هؤلاء الثلاثة أحد . وحسبهم أنجاهدوا فأبوا . ولذلك أقول عرجوا بنا على معاهد أولئك الابطال لا كابطال فازوا وظفروا بل كابطال جاهدوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السيل — ثلاثة جابرة قاتلوا في حرب الكفر والايمان فنسفوا من جبال الباطل مابات أترأ جسيا على قبورهم . قففوا بنا على تلك الاجداث فان فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لى الكتابة عن هؤلاء الابطال قصداً أو عرضاً ولا أراهم الا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا الى ذكره . وانما تتكلم عنهم الآن كانياء ذلك العصر العجيب وان فى الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة أى من وجهة أنهم أنبياء مجال لجملة آراء . وانى أراهم الثلاثة رجالا نوى صدق يحاولون فى اخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ويثبتون أقدامهم فى أرسى قواعد الحق فكانت طبائعهم من اكبر البواعث على ميلهم الى سنة الحق اذ كان لهم من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه أن يقيموا على الباطل وقد جعلت سحب الاضاليل والأكاذيب تنهال تحت أقدامهم فلم يكن لهم الا على اديم الأرض معتمد والا فلا مستقر لهم ولا مطمأن وقصارى القول أنهم كانوا ابناء طبيعة فى عصر كلفة وتصنع — كانوا رجالا مخلصين فى حين لا اخلاص ولا صدق . و فندوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة

فاما جونسون فما زلت أراه رجلا من أعظم رجالنا - قوى النفس  
متين الخلق شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم بما عجز عن  
استثارته جمود العصر الذي عاش فيه ولو صادف من ايمان جيله جوا  
أكثر نورا وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ولجاز  
أن يصبح ملكا جليلا أو اماما كبيرا أو شاعرا فخلا وعندى بعد أنه  
ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ولا فائدة في ذلك  
ولا ثمرة وهب عصره عصر خبث فما باله لا يطيبه وجيله ردى، فما له  
لا يحسنه وكان جونسون في شبابه معسرا رث الحال عاثر الأمل منفردا  
ولا تحسبوا أن سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلي عن عيشه سحب  
الهم لو أنها اتفقت له وذلك أنه كان مصابا بالسوداء والألم الجثماني  
والروحاني الناشئ من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر فكان كما  
حدث اليونان في خرافاتهم عن هرقل اله القوة - اذ قالوا إنه كان يلبس  
قيصا من نار فهو منه في عذاب أليم . وبلاء مقيم ثم لاسيل الى نزعه  
وكيف وإنما هو بشرته وجلدته ! وعلى هذه الحال كان لابد أن يعيش  
يأتسا من الخلاص والنجاة

يا ابن بوران لا مفر من الله ولا من قضائه المحتوم

وكانى به يمشى بين القوم قد قصر خطوه المرض وتركته الوحشة  
غريبا في الاقرين يحمل بين جنبيه فؤادا ضخما شرها الى المكارم منهوما  
بالعلى وروحاً غاصاً بخليط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر يلتمهم كل



ما يصادف من فائدة دينية وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتاب والشعراء وحقا لقد كان سيد أهل زمانه وناطقة قومه الذى كان يجزيه على تلك العظمة والنبوغ درهمين فى كل يوم ولكن ماذا يؤثر ذلك فى نفس جبارة لا تهزم وعزم ماض لا يكل وفواد صارم لا يفلى ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه — حكاية الحذاء — وذلك أن جونسون كان قد بلى حذاؤه وبصر به بعض الكرماء فى نعليه الباليين فرحمه ثم عمد الى حذاء جديد فاشتره له ووضع على باب داره فى خفية حتى إذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد اليهما النظر من عينين كليتين أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماهما من النافذة ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم إلى مهابط الشحاذة ويسف إلى محاط السؤال . وقد يحمّل القر والتلج ولذع الجليد للاخصمين . فاما الشحاذة فلا . فانظروا هداكم الله أى قوة كانت فى ذلك الرجل المعوز البائس وأى إياه وعزة وأى توكل على الله واعتماد على النفس انى أرى فى جوف هذا الرجل عالما من القوة والحشونة والبؤس والفاقة ولكنه بؤس أبى عفيف . وفاقة عزوف أنوف . وهذه الحادثة عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديد الديباجة وليس باخى باطل خلق الأديم . ولا ذليلا ولا شحاذا . وأولى بكل نذى مروءة أن يقوم على ما وهبه الله ولو كان الوحل والترب . لاعلى عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب ! .

ومع ما ترى لجونسون من وعورة الابهاء . ومرارة الكبرياء . وشدة  
الانفة أ كان قط رجل أرق حشامنه وأسلس انقيادا نحو الأمر الشريف  
والمعنى المقدس ؟ وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات لتلقاء ما هو أشرف  
منها وأسنى قودا نحو كل شيء انبل منها واسمى . وانما صغار النفوس ودقاقتها  
هى التى لاتفعل ذلك وجونسون فى ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من أن  
آية المخلص انه حسن الطاعة . وانك لاترى الخضوع والخشوع لمعانى  
البطولة الا فى عصر كله ابطال . وقد قلت ان جوهر الفضل والكرم  
ليس فى انه جديد مبتدع . فلقد كان جونسون فاضلا وكرىماً مع اقامته  
على قديم الآراء . ووجد فى ذلك القديم حاجته وبغيته . فعاش به  
عيشة شريف حر وماجد بطل وشأنه فى ذلك غريب لانه مع اقامته على  
تلك الرسوم القديمة الميته لم يكن من اهل الا كاذيب والظواهر . وانما  
اخا حقائق واصول وذلك ان الرسوم القديمة التى اقام عليها كانت تحمل  
فى اجوافها عنصراً من الحق وعجيب والله من هذا الرجل ابصاره اسرار  
الكون المقدسة وحقيقة الحياة الكبرى فى ذلك العصر الورقى (١)  
المحل الجذب المشحون بالكلفة والغش والتصنع ولا نعلم كيف وفق  
ما بين مذهبه ومذهب ذلك العصر بل كيف اطردت له عيشة فيه .  
وحقاً انه لامر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والاجلال .

---

(١) نسبة الى الورق أعنى أن موضوعات الكتابة كانت كلها مادية فهى مثل  
الورق التى تكتب عليه

والله أشهد ان من اعجب الامكنة عندى واقدها تلك الكنيسة —  
كنيسة سانت كلنت — التى كان جونسون يعبد الله بها فى زمن فولثير  
فى زمن الكفر !

وانما عد جونسون نبياً لانه كان ينطق عن ضمير الطبيعة وان كان  
بالاسلوب الاعتيادى المتصنع . اوليس فى كل اسلوب شىء من  
التصنع ؟ وما كل شىء متصنع باكدوبة . بل كل شىء متصنع كان فى  
مبدأ امره حقاً وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة لم تك  
فى اوائل امرها بمبتكرات ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم  
والاعتبارات الا طرق واساليب وعوائد توجد حيث يوجد الانسان  
وانما تتكون الرسوم كما تتكون السبل وتتهج مفضية الى غاية شريفة  
يؤمها الجم العديد من أخيار الناس . واصلها ان رجلا على الهمة شديد  
الاخلاص يجد السبيل الى فعلة من الفعال — قل مثلاً بشكركم لله  
أو تأدية السلام لرجل من الناس . اقول مثل هذا العمل أو ذاك على  
ماترون من صغره هو فى الحقيقة جسيم وانما صغرتة فى أنظاركم  
العادة . وما كان ليجد فى هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعاً ومبتكراً  
هو أول من نطق به وأوجده فهو لذلك بطل وشاعر بما انه قد اعرب  
عن معنى شريف مازال يضطرب بفؤاده وباقدة الآلاف المؤلفة من  
خلق الله . فهذه طريقته فى التعبير عن ذلك المعنى — هذه آثار خطاه  
هذه مبادئ المنهج . ثم يجىء رجل آخر فيترسم آثار الأول وتلك  
( ١٧ — الأبطال )

خطة أسهل يترسم آثار الأول مع اصلاح وتصحيح . وتحسين وتنقيح  
وكما زاد ركاب الطريق اتسعت اقطاره وانفسحت نواحيه حتى يؤول  
منهجاً واضحاً وسيلاً مضروباً يمتطيه كل غاد ورأح . وما دام لذلك  
الطريق غاية مقصودة . ونهاية محمودة . فهو مالوف للناس مرضى  
لديهم . حتى اذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم رعاكم الله تكون  
في أوائل أمرها مملوءة بالمعاني الجليلة . ولكم ان تسموها جلوداً  
وأجساماً تسكنها حقائق حرة صحيحة ولولا ذلك لما وجدت تلك  
الرسوم . وقد قلنا عن الاصنام نفسها انها لا تكون باطلة حتى تعورها  
الشبهة في نظر عابدها ويضعف ايمانه بها . وما أحسب ان كثرة  
ماتعودناه من ذم الرسوم منسينا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها . وانها  
كانت وسوف تكون ألزم ما محتاجه في سكنى الدار الدنيا من الفرش  
والآثاث .

وأذكروا أيضاً كيف كان ذلك البطل يتحدث أيام صغره باخلاصه  
اذ لم يكن يشك في أنه من أكثر الناس اخلاصاً ومن أكفهم للقيام  
بأى جليل من العمل ولقد كان قى شديد الجد والاجتهاد يستنزل الرزق  
من شاهق ويستدر به صخرة صماء ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق  
عليه ودر ولكنه رجل حق لا يقيم الا عليه ولا مضطرب له من دونه  
أما ترون في ذلك لزوماً لمنهاج الحق من غير افتخار ولا اعلان لا كن  
خط على جبينه بالمداد كلمة «حق» حتى يظل الناس ولا شان لهم الا

التحدث به واطراؤه وكذلك ما برح الفضل زينة من لا يتيه به ويعجب  
كان جونسون نبي قومه وكان كلامه لهم انجيلا شان أمثاله من الأبطال  
واضربه وكان أنفس ماقال لهم يدور حول موضوع الحزم وما أعظم ذلك  
الموضوع وأجله في هذه الدنيا التي قلت فيها معلومات الانسان وكثرت  
واجباته وكان فخري ماعله القوم هو « قبيح بكم أيها الناس أن تغمسوا  
أنفسكم في غمار الشك وأعماق الكفر في عالم قصرت فيه للدارك  
وحسرت البصائر وثقلت أعباء الفروض وهوازن الحقوق . انكم ان  
تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤساً وتكونوا كالذي تخبطه الشيطان وأنى  
يكون للبلحد الجحود عقل يعمل به ويعيش » هذا هو انجيل جونسون  
الذي لقته الناس وعلمه وشفعه بانجيله الآخر الذي فواه « لخصوصا قولكم  
من شوائب الرياء ودوسوا على الثلج والجليد في نعالكم البالية لاني أخذية  
الغير ذلكم خير لكم » كما كان يقول محمد <sup>(١)</sup> ، وعندى ان هذا انجيل حكيم  
— أحكم ما تيسر في هذه الاوقات

أما كتابات جونسون فهي وان نفقت سوقها قديماً فقد أصبحت بين  
أهل هذه العصور بضاعة ناسدة . ولا أنكر ان كثيراً من آراء جونسون  
قد أصبح اليوم قليل القيمة ولكن أسلوب تفكيره وعيشته سيبقى على  
القيمة جدير الرونق يد الدهر واني لأرى في كتب جونسون من أبين  
آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يفيل وما هو

---

(١) يشير الى الآية القرآنية ذلكم خير لكم لو كنتم تعلمون

جدير ان يرحب به على علاقته مهما كانت لأنه كلام حر صريح أريد به أغراض سامية وأمور جليلة أما أسلوبه ففيه جفاء وصلابة — خير ما وفق إليه إذ ذاك — أسلوب ضخم البناء يابس المفصل كأنما يسير الهوينا في أرجح رزاة ووقار قد أصبح اليوم غير مالوف ولا مستطرف وربما سمعت له طينياً وجلجلة لا يوازيهما ماضن من المعنى . ولكن هذه كلها مغتفرة في جانب ما أودع كلام الرجل من الحكم والآيات وإنما العبرة بالمعاني دون الألفاظ وبالأرواح لا الأبدان وكم من أسلوب حلو موق خلو من المعنى كالقشرة العجيبة النقش لالب فيها والصدفة المصقولة ولا درة وما كانت أرباب تلك الأساليب الكاذبة الا جناة مجرمين خليق بكل ذى دين ومروءة أن لا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم وجدير بكل قارىء أن يتحاشى كتبهم ويحتنب أقوالهم : ولو أن جونسون لم يترك لنا الا معجمه « قاموسه » لكان حسبنا دليلاً على رجاحة عقله وحدة ذكائه ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومئاته مبانيه وصحة معانيه وحسن مذهبه كان خليقاً أن نعه أحسن المعاجم جميعها . وإنى لأنظر اليه فراه فى جمال تنسيقه ونفامة صنعه كالثغر المشيد مشاكل الأطراف متشابه الجوانب يطرد فيه روح النظام ويجول فى حجرته روتق الاتقان والصناعة — ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل — ذلك الذى جاوز الحد فى اجلاله وتقديسه لجونسون وقد بالغ الناس فى تنفيذه على ذلك وغلوا فى احتقاره واصغاره

ورغما من أن لهم بعض الحق في ذلك فأنهم بعد جأثرون وظالمون  
وعندى أن إجلال بوزويل لجونسون مازال من أجل الآثار . وأعجب  
الأخبار . وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين - اللورد  
الاسكوتلاندى الابله المغرور يدنو حانى الرأس خاشع البصر اجلالا  
وهية نحو الأستاذ الجسم في أطماره الرثة التربة وغرفته الحقيرة الخاوية .  
هذا والله صريح الاجلال لنفس كبيرة وروح شريف وهذه هى عبادة  
الأبطال فى زمن أقرفيه العالم من الأبطال والعبادة بل كيف أقفر منها  
وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين

ولعل الوجود ما خلا طريقة عين من الأبطال وعبادة الأبطال .  
ولا جناح علينا أن ننكر ما قاله القائد الفرنسوى «دى كوندى» من ان  
الالفة تذهب الاجلال حتى أن البطل الكبير لا يكون بطلا فى عين  
خادم مرقده . وان نرى أن البطولة أشرق من أن تطمس الالفة  
شمسها . فاذا وجد الخادم الذى لا يرى عظمة سيده فالنوب عليه فى ذلك  
لا على السيد العظيم . ولعل الخادم حسب أن البطولة هى حلة موشاة  
وتاج واكليل وأبواق تسجع . واذا ترفع . واذا كانت الحقيقة  
كذلك فقد كان أولى بالقائد الفرنسوى أن يجعل كلمته هكذا «لاماك  
يكون سلطانا فاخر المظهر فى عين خادم مرقده» ولو عمد انسان إلى الملك  
المهيب لويز الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا اذن لرأيت شخصاً حقيراً  
لا موضع فيه لاجلال خادمه والخادم الذى يحمل فى جوفه روح خادم

أى روحا وضیعة لیس خلیقا أن یفهم بطولة البطل ! وإنما یفهم البطل  
من خالط نفسه جوهر البطولة

أفلاترون بعد أن اجلال بوزویل لجونسون لم یعد موضعه .  
وانه ما كان لیجد فی بریطانیا نفساً أحق بحق الهامة وثنی الركبة من تلك  
النفس الكبيرة . وهل كان جونسون الا رجلا عظیما أركب من عیشته  
ظهر صعبة شمس فراض جهده من صعوبتها وذل من شماسها . وخلق  
فی مضطرب فوضى الأقلام ومخلط فوضى الا دیان والسیاسات فهد  
لنفسه منهجاً واضحاً وسط تلك العناصر المتصادمة المتنافرة . واستطاع  
على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعثه أن یستخدم تلك القوى  
المتضاربة المتلاطمة بما كان فیه نفعه وفائدته . وذلك بهدی الله  
ویكوب ارشاد للاح له فی سماء عالم الاسرار فوكل به عیناً كلواً وعقد به  
لحظاً علوقاً وجعله قبة سفینته فی بحر الحیاة العجاج صالحاً عن كل مغربة  
ومغوية ومال عن حزب ابلیس . ولم یرفع على قلعة الكذب لواه .

\*\*\*

اما روسوفلم یباغ فی البطولة الدرجة العلیا . ولیس بمصیب من  
اطرائی قسط جونسون ولا نصیب بارنز . وما هو عندی بالرجل القوى .  
وانما رجل مریض النفس سریع الانفعال كثير النوبات العصیة . ولم  
یکن أوتی فضیلة الصمت — وأی فضیلة وأیکم ومزیه قصر عن غایتها  
معظم الفرنسویین بل معظم أهل هذا العصر . والرجل القوى هو فی



مذهبي من كتم مصيبيته . واخفى عن الناس دخان نيران احشائه . وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد . وهما — أول شروط البطولة . وانه لمن الخطأ أن يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الاعصاب ليس جديرا أن يسمى قويا وان يحجز ستة رجال عن امساكه حين تشور به النوبة الشديدة وانما القوى من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطاة قائم الصلب . وخلق بنا في هذه الأوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ أن لانزال نذكر ذلك . والرجل الذى يعييه أن يسكت حتى يحين وقت الكلام والعمل هو رجل عاثر الرأى جائر عن القصد . وأرى فى وجه روسو عنوانا على خلقه . حاجبين مشرفين وعينين عاثرتين تجول فيهما حيرة وقلق ويضطرب فيهما نزاع ولهف . ووجها حافلا بآيات الشقاء الوضع ومعنى السوقية والحطة — عيوب لا يعوض منها فى ذلك الوجه إلا آية الجد الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول أنه وجه رجل متعصب وبطل مشوه . وإنما نذكره هنا لأن فيه على علاته وهى كثيرة أول صفات البطولة والاخلاص . ولست مخطئا ان قلت انه لم يك قط فى الأبطال من هو أشد إخلاصا منه . حتى لقد كان له من شدة الاخلاص مالا يقوم له طبعه الحاد — الضعيف لولا هذا الاخلاص — طبعه الذى بلغ به أخيرا من المناقضات المنكرة مايوشك أن يكون جنونا . بل لقد أصابه بالفعل فى آخر أمره صنف من الجنون . وذلك أن أفكاره ركبت الشياطين الانس وساقته اعنف السوق

الى كل قحمة ومهواة!

وكان منشا عيوب روسو ومصدر شقائه هو ما يعبر عنه بهذه اللفظة المفردة «الاثرة» حب الذات . وهو منشا كل عيب ومصدر كل شقوة . ولم يرض روسو نفسه على قذع النفس — والنفس طلعة ان لم يزعها الانسان نزعت به الى شر غاية . ولم يشحذ عزيمته لقهري جيوش الاهواء والشهوات وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة وأخشى أنه كان رجلا كثير الغرور والزهو . به غلة الى مدح الناس وتذكرون قصته مع السيدة «جنلين» وذلك أنها سارت به الى دار التمثيل بعد أن اشترط عليها أن يخفي نفسه عن أعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لا يراه انسان قائلا «أنا لا أود أن يرانى الناس هناك ولو ان لى الدنيا بما فيها» ولكنه اتفق رغماً من ذلك أن أرخى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيرا . فظهر أشد الغضب وقضى ليله أسفاً مكتئباً ولم يفه الا بمر الكلام ومضيض القول . ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم اياه وإنما لقلة احتفالهم به حينما رأوه . وأسفاه على ذلكم البطل لقد خالط دمه سم الانانية وتقسيم فؤاده الريبة والوحشة والتبريم بالناس والاكتئاب والاطراق والههم . حتى أصبح لا يطيق عشرة انسان وكان رجل من سادة الريف يتردد اليه ويجالسه فرحا به . مسرورا بحديثه مبدىا له أصدق آيات الوداد والولاء فجاء ذات يوم فوجده فى أسوأ حال من النعم والاكتئاب بلا سبب ظاهر . وبينما الرجل فى حيرة من ذلك

المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تاتهبان غضباً « سيدى لايدر  
بخلدك أنك تستطيع أن تموه على سبب زيارتك هذه فاني أعلم به منك .  
لقد جئت الآن لتفاجئني وسط مصائبى وآلامى وتنظر أى عيش نكد  
أ كابد وأى حال شديدة أفاسى . وكيف اتحرق واتوجع . وماذا ادوق  
واتجرع . فليكن ذلك ياسيدى وهاك مرجلى على النار فانظر بها عنوان  
الفاقة واستمع من ازيزها قصه البؤس . انظر سيدى فى تلك القدر هل  
ترى بها الا رطلا من اللحم وكراتة وثلاث بصلات . وأنت بعد ذلك فى  
حل أن تقول ذلك لكل من لقيت ! فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه  
كل مصاب وعدا فى الشنوذ كل مقدار . وأصبحت أعماله تلك نوادير  
حديث الناس وفكاهات سمرهم يلهون بها ويضحكون منها . وماهى بلهوه  
له ولاضحك وكذلك رجفات المصارع المتخبط فى دمائه واقته سكرة  
الموت هى مصيبة له وعذاب وهى فرحة الجمع المشاهد ولذته .

لاتحسبوا أن رضى بينكم طرياً فالطير يرقص مذبوحا من الألم  
ويعد كل ذلك فلا يسعنا الا القول بأن روسو هذا قد عمد نحو  
الحقيقة فى عصور الباطل بتلك الكتب - التى كتبها - العقد الاجتماعى  
واشادته بذكر الطبيعة والحياة المهيجة الطبيعية . وكان يؤدى بذلك  
لقومه رسالة نبي حسب طاقته وطاقته الوقت ! ومن العجب أنه كان  
فى فؤاد روسو هذا وسط هذه العورات والحسائس والحق الذى كاد  
يكون جنونا جذوة من النور الألهى . وما ذلك إلا أن الله قد أثار بعد

تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق شعوراً قوياً في قواد ذلك الرجل يوحى اليه أن هذه الحياة حق — وانها ليست بكفرية ولا نظرية من النظريات وانما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحى اليه الطبيعة وأمرته أن يصدع . فصدع فاذا لم يأت قوله محكماً بليغاً فانه جهد المجتهد . بل أن خطاياهم وشواذه وسرقته الأقمشة وشروده في الآفاق وبؤسه وشقوته كل هذه آيات الخيرة والدهشة والترنح التي تبهر رجلا حمل من الامر ما لا طاقة له به وترك في مجهل طامس الاعلام لا يعرف كيف يهتدى فيه

أما مكانه في الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى ان كتاباته كعقله مريضة . وليست من النوع الذي أسميه صالحاً . وانما يمتاز روسو في كتاباته بتغلب الحيوانية والمادية وتلك هي التي تعينه على تصوير صورته المثقلة بالزخرف الجذاب . ولكنها صور خلاف كرائم الصور الشعرية مما أبدعه عقل شاكسبير أو «جيتا» كلا ! ولا كتصويرات «الترسكوت» . وكل من نظر في بدائع هؤلاء ففهمها عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رعى على منواله — عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب . وظل جديراً أن يفرق بين هذا وذاك ماعاش . فانه فرق كالذئب بين نور الشمس ونور المراسح الصناعي . لقد تيننا في جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم إلى العالم من الخير رغماً من كل ما يحفه من المكاره والآفات . أما في روسو فلنتبين

أى شر وضر وبلاء قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير .  
والحقيقة أنا لو نظرت إلى موقع روسو من التاريخ لرأينا مشهداً جليلاً  
ومنظراً هائلاً . ولشد ما أساء العالم إلى نفسه باسائه إلى ذلك البطل  
وماذا أفادهم أن شردوه وتركوه يأوى من الفاقة إلى أسطح المنازل  
يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ويطيف به من العوز والكربة  
أنحس خليط . شريداً طريداً يلجأ من غار إلى كهف كأنه الريح الموجه  
حيرى موله « حسرى تلوذ باطراف الجلاميد » بلى ماذا أفادهم أنهم ألحوا  
عليه بالضر والأذى وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه  
وحتى جعل يعتقد أن العالم شر والمدينة سوأة وجريمة وإن الدنيا أكبر  
أعدائه وقانونها الظلم وتاموسها الجور وأساسها اللؤم . وكان أولى بالعالم  
أن لا يعادى مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمة فيصبح معه كما قيل  
حداك إلى الحين حتى استثرتى عليك وانى فى عرينى لمخدر  
لقد قدر العالم على إلقاء ذلك البطل إلى الاسطحة وعلى اتخاذه اضحوكة  
يسخرون منه كما يسخر بالبله والمجانين وعلى اجاعته وتركه يتضور من السغب  
كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من اضرار الثورة واشعال  
الأرض نارا تلتظى ؟ لقد وجدت الثورة الفرنسية انجيلها فى كتابات روسو  
وقد احدث آراؤه الشبيهة بالجنون فى آفات المدينة وتفضيله عيشة  
المتوحشين على عيش المتمدينين جنوناً فاض فى أنحاء فرنسا وغرها .  
ولنا بعد أن نسأل ماذا عسى العالم وملوك العالم أن يبلغوا من ذلك الرجل

وماذا يصنعون به ؟ هذا سؤال نعي ويعي العالم وتعي ملوك الأرض  
بجوابه فأما ما يستطيع روسو أن يصنع بالعالم وملوكه فذلك باللاسف  
واضح بين . يضرب اعناقهم ! انتهى كلامنا عن روسو .

كان من أعجب العجائب أن ظهر في القرن الثامن عشر - قرن  
الكفر والضعف بين رجاله الذين كاهم تكلف وتصنع كأنهم تماثيل  
الخشب وعرائس الورق بطل كبير في زى فلاح حقير يحمل الفاس  
ويسحب المحراث ألا وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى . الذى جاء في  
ذلك العصر القفر كالينبوع الشيم الفرات وسط البسابس الملس .  
او كالفتحة الزرقاء في الغيم المتلبد . أو كمنظر السماء وزيتها من خلال  
سقف القصر المزخرف . اذ كان القوم لا يعرفون من سماء الله ونجومها  
الا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر . أو ما يمثلونها به من الأشكال  
النارية<sup>(١)</sup> فينتاهم في وسط تلك الصور والا كاذيب انفرج لهم سقف  
المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا وتملكتهم حيرة ولم يدروا  
ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طال بهم  
الحيرة أجمع رأيهم على أن هذه السماء ونجومها الباهرة ما هي الا من قبيل  
تلك الصور والأشكال التى اعتادوا رؤيتها جملا منهم وضلة وعماية  
وماذا ترجون من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون . وضرب على  
أذانهم فهم لا يسمعون . فوا أسفاه ! لبئسما تلقى به القوم هدية الله

---

(١) التى يسمونها بالعامية « السواريح » ،

اليهم - ذلك البطل الجليل وبئس منزلته بينهم وجواره فيهم . ولا أعلم رجلاً لقي من الغبن والوكس . والتعس والنكس . ما لقي روبرت بارنز . فيالله أى جوهرة كريمة نبنت بأكناف صحراء . وأى درة مكونة ألقىت بكف خرقاء . وأى بلبل صداح تقاذفته أيدى الاطفال . وحر كريم تناشبتة أظفار السفلة الاندال

اضاعونى وأى قى اضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر  
وكان أبوه صانعاً فقيراً وقد حاول جملة أشياء نجاب فيها جميعاً . وما زال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر . وقد حدثنا بارنز فقال « كانت ترد على أبى طلبات الغرما يتقاضون دينونهم فكانت تنخب أفقدت وتستذيب دموعنا - دموع الوالد الكدود المكدود المعنى المعذب وزوجه الجلدة الصبور وصيتهما وفيهم بارنز . كان لهم الله لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وحمتم مشارعها العذبة وهى حل مباح للوراد ومنعهم مراتعها الخصبه وهى طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا رحمكم الله فى قوله « كانت رسائل الغرما تستذيب دموعنا » أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وانى ما زلت أرى فى والد بارنز بطلا صامتاً وشاعراً مفحماً ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير . وبما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول « لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والأعيان فلا والله مالد أذنى كحديث والد بارنز ولا نعمت فيها بمجلس كتلك التى أمتعنى مدة حول

مائدة ذلك الصانع المسكين ، وقد كان في الحقيقة مسكيناً منحصراً  
الحياة مرهق موارد العيش جامد أخلاف الرزق . لم يصادف نجحاً  
في السبعة الفداين التي رزقه الله ولا في أى شيء غيرها فكان  
بينه وبين الدهر حرب لا تنتهى كان المغلوب فيها أبداً وسوق لا تنفض  
كان الخاسر فيها دائماً ولكنه ثبت في تلك الحرب طول عمره وما كان  
منه قط حيصة ولا فرة . فياله من كريم باسل أيد الركن ثابت الاس .  
لا تهيل من جانبيه الحوادث . ولا تتخون من قطريه الكوارب والكوارث  
حمول يغضى على الأقداء . ويرد أنفاس الصعداء . وتضيفه التوازل  
والكرب فيقرها الصمت والسكون وتهم المصائب ان تلتهمه فيلتهمها  
ويجعل لها من صدره الرحب قبرا لا تنبش دفينته . ولا ترد ديعته .  
مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فردا سليك المقانب

\*\*\*

حليم اذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب في صدره الرحب  
ياله من بطل يناضل كتائب الدهر مستورا عن الأعين لا تسير محاسن  
ذكرة جريئة يومية . ولا تطير روائع خبره أسلاك برقية . ولا تقيد  
نوادير مجده مصايد الشعر . ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر . ولكنه  
لم يذهب عمله سدى : ولا شيء في العالم يذهب سدى . نعم لم يضع من  
هذا ولده ! وان يذهب فهذا روبرت بارنز سليه - وسليل عدة أجيال  
كلها أمثاله .



لقد خرج بارنز الى هذه الدنيا محفوظاً بالمكاره والشدائد بين سوء حال وسوء تعليم وكد ونصب . يختلس النظم من ساعات الكدح اختلاصاً ويسترق النظر في كتب الفحول استراقاً ويكتب بلغة ريفية مجهولة الا لاقليم صغير من البلد الذى ولد فيه ولو كتب ما سب باللغة الانكليزية الشائعة لما شككت في أنه كان ينال اجماع الناس على انه من أعظم رجالنا . وان كان فيما حل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح اغلاقها عما أودعت وفض أختامها عما ضمنت . دليل قاطع على أن هنالك جوهرأ مكنونأ . وسراً مصونأ . وبعد فقد أحرز اقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق وما تزال دائرة ذكره فى اتساع . وصوت صيته فى ارتفاع وقد شرع الناس فى جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الريح بلفظة انكليزية يدركون ان من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحا اسكوتلانديأ اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج على ان قلت انى أرى فى بارنز هذا جوهره كريمة بريطانية أبدى الله صفحتها . وجلا رواءها وبهجتها . على حين لاعهد للناس بالجوهر — نعم جوهره هى على لا لائها وقدتها أمتن الأشياء وأصلها كالحجر الكامن فى أحشاما الأرض — كالحجر ولكنه المطوى على آبار الرأفة والرحمة وعلى نيران النكاه وزلازل الحدة والشهوة . وعلى حلو النغم ومطرب الغناء . طبع شريف خشن وسداجة قوة وعظمة . فيها بوارق الحدة وفيها انداء الرأفة — فهى

كاله الرعد « ثور » - اله المزارع والريف !  
ولقد حدثني أخو بارنز وهو المستر جلبرت - رجل فاضل عاقل  
فقال لي ان بارنز كان في صباه شديد الفرح . مستعذب الحديث جذل  
الكلام أحال لعب وضحك ومراح شريف الوجدان وفير العقل . وكان يوم  
هو غلام ينثر الحب ويحصد الزرع أفرح حديثاً وأعذب إشارة وأيعث  
لسرور الجليس بمراحه وجذله وانطلاق فكأهته منه في سائر أطوار  
حياته . وهذا كلام جدير بالتصديق . ومراح بارنز الغريزي وجذله  
الفطري - ذلك الخلق الذي لا أشبهه الا بشعاع الضحى أو بالزهر الضاحك  
في روتق الربيع الجديد - ذلك الخلق ممزوجاً بمرارة جده وحرارة حدته .  
وذوب رحمته ورقته . كان من أخلص صفات بارنز . وكان ذلك البطل  
جم عتاد الامل غزير مادة الرجاء . ولم يكن بالمطرق الحزين . أخى الشكوى  
والاثنين . رغماً من شدة مصابه . وطول عذابه . وإنما كان ينفذ  
الاحزان عن كبده . نفذ الغضنفر لؤلؤ الطل عن لبدته . وكان  
كالجواد العتيق يستقبل قعقة السلاح بقهقهة الصييل . ويرقص على  
صدح الابواق وقرع الطبول . ويهز الاعطاف والواصل . كهنز الكأة  
القنا العسال . ويضرم الشدأ بما اضرام . كتضريم المهند الحسام .  
نيران الموت الزؤام . في الجيش الكثيف اللهام . ولا أرى مراح  
بارنز ونشاطه وفرحه وأمله الا تتأجج ما أوتى من عواطف الخنان والرافة  
أصل كل فضيلة واساس كل مكرمة .

وربما أخذك العجب ان قلت ان بارنز هذا اكبر نوابغ البريطان  
في القرن الثامن عشر ولكنى أوقن انه سيجيء اليوم الذى لا يعجب  
الناس فيه من قولى هذا . وشعره على ما فيه من قوة وفخولة ماهو الا  
حفنة طفيفة من كنوز فضله . وثمرة فجة من بستان عقله . وقد قال  
عنه الاستاذ «ستوارت» كلمة تقال فى كل شاعر ذى قيمة وهى ان شعر  
بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه وإنما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد  
مطبوع بدا له أن يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر . هذا ولقد كان  
حديث بارنز المرتجل العادى ابداع من شعره وابدع من حديث كل  
مخلوق . فكان اعجوبة القوم ونادرة العصر وكان

شرك العقول ونزهة مامثلها للطمأن وعقلة المستوفز

ان طال لم يملل وفي ايجازه يهوى المحدث انه لم يوجز

وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الالخان من اخفض جرس  
التحية وألين عبارة الملائفة الى ارفع صوت الغضب واشد صيحة الوجد .  
وفيه ضحك الجدلان . وزفير الولهان . ورتة الثكلان . وياجاز  
المجتزى . باشارته واطناب ابن المقفع فى يتيميته .

\*\*\*

وقد شهره الاميرات البارعات الأدب بانه كان يخلمن بحديثه  
ويستخفن حتى يكدن يطرن فى الهواه . فهذا والله عجيب . ولكن  
أعجب منه مارواه النقادة النابغة المستر لو كهارت من خدمة الفنادق

كانوا اذا رقدوا في فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم وثبوا من مضاجعهم فالتفوا به وكلهم اقبال عليه واصغاء لحديثه . خدمة الفنادق ! ومالى أعجب من ذلك ؟ اليسوا رجالا ينصتون الى رجل ؟ ولقد قرأت وسمعت كثيراً في صفة حديث بارنز ولكن أجل مابلغنى عن ذلك هو ماحدثنى به العام الماضى شيخ مسن كان من أخص اصداقاء بارنز وهو أن بارنز مافتح فاه قط الا ألقى منه حكمة . قال ذلك الشيخ « وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت فاذا تكلم جلى من غوامض الموضوع وأوضح من مشكلاته . » ولا ادرى لماذا يتعرض المرء للكلام في الموضوع اذا لم يفعل كذلك ! وجملة القول اذا نظرنا الى قوة نفس ذلك البطل وقولته في كل مانطق وكتب وصنع وشدة صراحته . وسمو همته . وكال مرويته . ونفاذ بصيرته . ووفرة رجولته . تعذر علينا ان نجد له في القرن الثامن عشر نظيراً

قد طلبنا فلم نجد لك في السو دد والمجد والمكارم مثلاً  
ولكننا اذا أجلنا النظر في عظماء القرن الثامن عشر وجدنا بينهم رجلاً فيه مشابهة من بارنز — وهذا هو ميرابو . فهما في الجوهر متشابهان وان تباينتا زياً وتخالفا ظاهراً . نعم انهما سواء في قوة البدن وقوة الروح كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة (١) كبير النفس ضخيم القواد . ولكن ميرابو أكثر صخباً وأشد دفعة وقلقاً بالفطرة والنشأة

(١) الكدنة القوة

والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هى الصدق والعقل ونفاذ رأى وحده  
الجنان . وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمثل . وما كتبه الا طعنة الراى  
فى حشا المشكل ولحمة برق اليقين فى دجى الشك

ألمعى موفق بهدى الله لى الخطة العياء العقام  
وإذا باده الحوادث بالرأى أصاب الصواب بالالهام

\*\*\*

المعى يرى باول ظن آخر الأمر من وراء المغيب

\*\*\*

وكذلك كان بارنز . وكلاهما كان جيش الصدر بمراجل الأهواء  
والشهوات طورا تعصف عصف الجنائب وتارة تخطر من النسيم . وفى  
كليهما العارضة والبديهة والمزح والضحك والفكاهة والقلق والنشاط  
والتوقد والعزم والهمة والصدق والصراحة والجد والاخلاص . فهما  
من محتد واحد فى الكرم وان تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن  
جوهر بعينه فى النبل وان تنوعت بعد بهما الاعراض والاحوال . فلو أن  
بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لاجاد مثله فى كليهما  
ولكن شجاعته العتيدة كانت ياللاسف تصرف فى اسر مهربى البضائع  
فى خليج سولواى بتلك البحار الشمالية . وفى السكوت عن كثير من  
المغضبات حيث كان لا يجدى الكلام وإنما الحق الاخرس . ولو  
صادفت تلك الشجاعة موضعها لألجت اللد الخصام فى المناظرة

## واستحقت قول القائل

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم في مثلها خرس  
شك حشاها بخطبة عنن كأنها منه طعنه خلس

ولبدت تلك الشجاعة لعيون الملائطرا في تدير الدول وتنظيم الممالك  
واصلاح شؤون العالم . ولكن القوم أعنى الحكومة . قالت لبارنز قول  
مويخ « لست للتفكير . إنما أنت للعمل . » فكانها قالت له ضمناً  
« لاحاجة بنا الى قوتك المفكرة — أوبر قوى البلاد في هذا القرن .  
وإنما نريد منك أن تسمح الأراضي . ولسنا لغير ذلك نريدك ، حسن  
والله هذا وجميل ! حتى لكان قوة التفكير ليست في كل آن ومكان أهم  
ماحتاجه الدنيا . أو ليس شر الناس هو الرجل الذى لا رأى له ولا تفكير  
عنده الذى لا يفكر ولا يرى . وإنما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى  
ويخطئ ، حقيقة الشيء الذى يزاوله ويظل حائراً مضللاً لاخير فيه ولا  
ثمرة . هذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول مابالك  
تعلمن شكواك وندمك على ذلك ؟ أما تعلم ان ذا القوة قدما ممنوع من  
جمال اظهار قوته ؟ ، نعم وذلك أضر بما نعيه وأبرح . واذا كانت  
الشكوى قليلة الجداء فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعنى الا القول بان  
استغناء العالم الأوربي عن مثل بارنز والثورة الفرنسية . على الأبواب  
لا يدعونى إلا الى الحزن والأسف !

وبعد فأهم صفات بارنز الاخلاص وهو أيضاً أكبر مزايا شعره وعيشته

وما قصيده الذى يتغنى به بمجرد تصورات وتوهيمات وانما احساسات  
تجيش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله فى جميع أركان  
حياته هو الحق . وحياة بارنز هي ما يمكن أن نسميه رواية محزنة سداها  
الحق . ولحمتها الاخلاص . الاخلاص المر الومر ليس القاسى ولكنه  
اخلاص جرىء ناثر يساور الجقائق ليروضها ويقتادها . ومن ثم ترى  
فى جميع الأبطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الأبطال — أودين بارنز ! لقد يعزينا عن شقاء أولئك  
الكتاب الأبطال انهم لم يخلوا من اجلال بعض الناس اياهم . ولكن  
أى حالة عجيبة وصل اليها ذلك الاجلال ! اما أن فى إزدحام خدمة  
الفنادق بياب غرفة الجلوس يرهفون الأذان لاستراق كلمة من كلام بارنز  
لاجلالا منهم انلك البطل وان كانوا بملك لا يشعرون . هذا وقد أوتى  
جونسون فى اللورد بوزويل اخشع محترم ومعظم . وسخر الله لروسو  
أشراف الدولة وأمراء بيت الملك يزورونه فى غرفته الحقيمة ويجلون  
منه رجلا تقاسمته التوائب فشطره للبؤس وشطره للبس والخبيل .  
تناقض وايم الله عجب وحياة لا يلتئم طرفاها . وينكر أسفلا أعلاها .  
فيينا هو يجالس العيون والسراة . ويؤاكل الرؤساء والقضاه . إذا  
هو ينسخ بيده سطور الغناء . لينال من القوت مسكة الذماء<sup>(١)</sup> . ومن  
مأثور قوله فى هذا الصدد « لقد حملت نفسى بالتغدى فى منازل الأمراء

على خطر الهلاك جوعاً في منزلي، وفي ذلك على عاشقيه ومعظميه من العار مافيه . وعلى كل حال سواء نال الكتاب الابطال حقهم من الاجلال أو لم ينالوا فهم أساتذة العالم يؤدّبونه ويحكمونه ويعظونه ومانافذ فيه الا كلهم لا مرد لها ولا ملغى لحكمها . فعلى الكاتب البطل أن يفكر ويرى وعلى الملاء أن يذعن وينخضع . وعلى الكاتب أن يأمر وعلى العالم أن يصدع . وللعالم بعد أن يختار طريقة الاذعان والطاعة فاما قهراً واما اختياراً . واما حسبة واما اضطراراً . اما صحو خريف فينان الظلال . ناعم الآصال . طيب اردان الصبا . مصقول روتق الضحى . واما سحب صواعق تمطر الحين والبور . ونكباء تنسف الدور وتقتلع الاشجار . طريقان متعاكسان مفضاهما واحد . وصورتان متباينتان والجوهر فرد . فاما نور مقيد . واما برق مبيد . وليس الامر الهام هو ماذا نسمى البطل وبماذا نعامله . واتما هو أنصدق كلمته ونصدع بامر أم لا . واذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعتقدها ونعمل بها طوعاً أو قسراً . ان لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم أنوفنا . فاما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له فذلك من شؤوننا وراجع إلينا . وأما كلمته فذلك رسالة الله إلى العالم ولا بد من أن ترغمننا على تصديقها وتستولى على نفوسنا

وآخر أقوالى فى هذا المبحث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز أعني وفدته على ادنبرج . وطالما رأيت أنه قد كان فى رباط



جاشه هنالك وثبات جناحه أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان في انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكره والخمول إلى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير أن يطير بلب أى امرئ ويذهب بعقل أى إنسان . فينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزاه النحاس أجرته الزهيدة — سبعة جنيهات فى العام — فعادت الدنيا فى عينه أضيق من يياض الميم وخرج على وجهه يريد الهجرة إلى أمريكا إذا به قد ولج زمرة الاشراف والامراء فافسحوا له بينهم أكرم مقام وبوأوه صدور المحافل وخاصرته ربات القود يسايرنه مزهوات بمسايرته رانيات اليه بأعين الجآذر عاطفات سواف الآرام<sup>(١)</sup> وتلعت نحوه الاعناق . وازدحت فيه العيون فعليه من حدق نطاق . والضراء ثقيلة على كاهل الرجل — ولكن السراء أثقل وفى كل الف من الناهضين بعبء البؤس واحدينهض بثقل النعمة . ونادر فى الناس من له أن يقول

كل بلوت فلا النماء تبطرنى ولا تخشعت من لأوائه جزعا  
ولا نعلم فى الناس من فوجئ من النعمة بمثل ما فوجئ به بارنز ولا  
نظن ان رجلا غيره كان ييدى ما أبداه من الرزاة والوقار . فلقد لقي  
ذلك الحادث الجليل لا حاراً ولا وجلا . ولا هائباً ولا خجلا . ولم  
يؤت من ذلة ولا استخذاه . ولا من نخوة ولا غلواء . وكان يشعر

---

(١) سواف جمع سالفة وهى صفحة العنق . الآرام جمع رُم وهو الظبي

وسط هذا الجمع الزاهر أنه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع وأن هذه  
المرتبة السامية والجاه العريض ليس الا من قبيل النقش في صفحة الدينار  
لا ينقص من قيمته ولا يزيد . وأن الشهرة ما هي الا ضياء يرسل على  
الرجل فيريك أى رجل هو . ولكنه لا يحمل منه ولا يقبح ولا  
يشوه من صورته ولا ينقح . غير أنه ربما قبح وشوه بما يملأ  
الرجل كبراً وغروراً ويصع خده ويصلف جانبه . وبما ينفخه حتى  
يتصدع فيعود كالأسد الميت خير منه كلب حى . فبارنز في هذا الأمر  
قد برع وفاق . وجاء غرة زهراء في جبهة السبق

ولكن هؤلاء الجماعة — عشاقه المعجبون به — هم كانوا سبب شقوته  
وموته . هم الذين حرموه لذة العيش وحرموا عليه طيب الحياة ! هم  
كانوا يلتفون به في حقله . ويحولون بينه وبين عمله . لا يقعدهم عنه بعد  
الدار ولا شطط المزار

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم رأوها مكان السوق أوهى أقربا  
لقد أعيب عليه مع صدق الجهد والمحاولة أن يحو ذكر نفسه من  
اذهان الجماعة . ولم أراد أن يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح .  
وهكذا تقلب عليه الدهر بالاكدار والحن والخطايا وادبرت عنه الدنيا  
وزايله الأمن والعافية والغبطة وحسن السمعة . وأصبح الامن المهموم  
والاشجان منفرداً . وأن في ذكراه والله لحزننا وبثنا . وفيه كانت زيارات

القوم اياه اذا لم يكونوا يقولون عشرته . ويسدون خصاصته <sup>(١)</sup> بلى انه  
مآمن رحمة كانت زيارتهم وانما للهو والتفككة . وذهبت حياة البطل  
ضحية ذاك !

قال ريشتار ان في جزيرة «صوماطرا» ضرباً من جسيم النباب براق  
الاجنحة يستصبح به سراة القوم فيجعلونه في أطراف العصي كالذبال  
ويسرون في ضوئه . وهكذا ينعم سراة القوم بامثال النجوم الطوالع  
والشهب اللوامع . فسلام الاله ويريجانه على تلك النباب ! ولكن —!

---

(١) الخصاصة الفقر

## المحاضرة السادسة

### البطل في صورة ملك

كرومويل — نابليون : نذكر اليوم آخر أشكال البطولة — ذلك الذى نسميه الامارة . وأمير الناس وقائدهم الذى عن رأيه يصدرون ولامره يذعنون . وبه فى جميع الامور يقتدون . واجدين فى ذلك الخير والفلاح والفائدة لجدير أن ييأ من ديوان الأبطال صدره ويحمل فى دولة العطاء اللواء . وإنما هو فى الحقيقة جملة البطولة على اختلاف اصنافها وهو الخلاصة والزبدة والعصارة . وقد جمع الله فى ذاته سائر ضروب الابطال وليس ذلك على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة يمنعنا من طرقها ضيق المجال . وإنما نذكر كلمة شبيهة بكلمة «بيرك» حيث يقول « اسناد القضاء الى نخبة من القضاة يشتركون فى اصدار الاحكام هو روح الحكومة » فكذلك نقول نحن ان خلاصة اعمال المجتمع الانسانى سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد هو الاهتداء الى أعقل رجال بلنك وافضلهم واحزهم ثم تقليده الحكومة والسلطة واعطاؤه الخضوع والطاعة حتى يستطيع بذلك ان يهدى الناس حسبما يلهمه عقله ويوحى اليه فؤاده وإنما الى ذلك قصدت البرلمات وخطبها

ولوائح الإصلاح والثورات فرنسية وغير فرنسية . اهتد الى أعقل رجال بلدك واكتفهم وارفعه الى المكان الأعلى وبجمله وآبره تحرز لبلادك خير حكومة . وانك ان تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شيء بعد ذلك فضول ولنو . فان اعقل الرجال هو ايضاً . اكرمهم وابرهم وارحمهم . وليس فوق نصحه نصح . وقول الامام امام القول . وكل ما يامرنا به فهو ولاشك احكم واليق وأعلى مانستطيع ان نجده تحت قبة الفلك . وهو ما يجب علينا ان نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هي الصالة المنشودة والغاية القصوى

أقول الغاية القصوى والله يعلم ان الغايات تبلغ بالامل . ولا تنال بالفعل . وللأمانى جياذ ساجحات تسبق وقد الرياح يرسلها الفكر في مضمار الوهم فتطير باجنحة الرجاء الى كل غاية ابعد منالاً من الثريا . فاذا طلبت تلك الغاية بافراس العمل في ميدان الحقائق قامت العقبات . واعترضت النوب والآفات . وسقطت الجياذ اثناء المضمار طلحا انضاء حسرى الجهد والاعياء . دامية السنايك من الحفا . مهزولة الاعطاف من الأين والوجى . وكذلك تبقى الغايات منا طعمة المنى سخرة الواقع كالخيال في المرآة يبيح العين ما يمنع الكف

أو كالسهم وكل ما زينته به وكبعدها وكقربها من لاق وانا وان استحال علينا ان نبلغ الغايات . فحسبنا ان ناخذ في سمتها أو نقع منها على مسافة ترضي وتسر ! ولا يفعل أحد من الناس ما نهى عنه

الشاعر الالماني « شلر » اذ قال « المرء تلقاء الحوادث ضعيف فلا يقس احد منكم مجهوده النزر القليل بمقياس الكمال » ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط مأفون الرأي مصدودا عن الحق . ولكن لا ينس المرء مع ذلك أن تجعل الغاية نصب العين فانه لا يقوم عمود صلاح الدين والنيا على أساسه ويستقر في نصابه حتى ينزل الانسان قريبا من الغاية . فاذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه . ونحن نعلم انه ليس في العالم بناء يمكنه أن يشيد جداراً فيجعله في أقصى درجة العمودية أي أن يجعل الزاوية الحادة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط لا تنقص درجة ولا تزيد درجة كلا ! فهذا مستحيل عليا فكيف باستحالته عملياً ! ولكن اذا لم يبدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنوف افاخر بجداره أن تنهار أركانه . وينهدم جثمانه . نعم اذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق فاجدر به أن تسوء عقباه ويشقى . فانه قد اغفل أمره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن — ناموس الطبيعة لم ينس أن يسرى عليه وعلى بنائه . وما هي الابرهة حتى يسقط هو وبنائه فيرتد كثيبا مشوشاً ومعهدا خراباً! —

وهذا هو أصل كل فتنه وتاريخ كل ثورة وحديث كل انفجار اجتماعي في الازمان القديمة والحديثة أجل انما سببها هو انك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفو على رؤوس الاعمال ! — الرجل الخسيس السافل

الذئب الكاذب . ونسيت ان عنلك قانوناً أو ضرورة طبيعية تستدعي  
تولية القادر الكفء . وظننت أنه لا بأس عليك أن تراكم الطوب بعضه  
فوق بعض كيفما جاء وانفق بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب  
اذا وليته كان جديراً أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ومن ثم يروح أمر  
الناس مختل النظام مبدد الشمل . تاكل جوفه الحية ويهدم أركانه الشقاء  
والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطرت عليهم أمور دينهم  
ودنياهم واسودت في عيونهم ظلمات اللبس والحيرة فهم يمدون الايدي  
استهداء ولا هادى ولا مرشد . ويبسطون الاكف استعطاء ولا مانح  
ولا رافد . حيثئذ ينفذ قانون التوازن حكمه وتسرى نواميس الطبيعة وهي  
التي ماغفلت عن العمل طرفه عين . فتثور الملايين ويجن جنونهم .  
ويسقط البناء والبناء :

ان من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة يلق بها أسفازا ضخاما  
ومؤلفات جساما . تفيض في موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه ان  
كل ملك مهما كان هو خليفة الله في الأرض قد ولاه الملك القدوس زعامة  
خلقه بعقد مقدس خفى فعقد في رقاب العباد بيعته . ووجبت عليهم  
طاعته . واستحكمت في نفوسهم مهابته وخشيته ) تلك هي عقيدة القرون  
الغارة . ورأى آباءنا الاول . عقيدة دفنت معهم في قبورهم . ورأى بان  
بينهم . ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ومجلدات كالتقبور  
تبلى فيها أفكارها . وتنخر في أجوافها عظام محتوياتها . لا يزورها انسان

ولا يعوج بها مخلوق . وباطل لاح في ظلم الجهل ثم محا آيته نور اليقين ودولة زور استقل نجمها ثم خوى . واشمخر طودها ثم هوى . وأكذوبة ادبل منها الحق . واتى مع ذلك لارى من كرم الطبع وشرف الشيمة أن تتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا . ونلحقه أهاجينا وشتاتنا . فحسبه هزيمته . وكفاه خزيه وفضيحتة بل أرى (ولا يعجب القارى ولا يرع) أنه لا يحسن بنا أن نترك هذا الزور والمحال يمضى من غير أن نفتش أجرله ونفحص انحاه وارجاه ونقلبه بطناً لظهر علنا نجد في ثناياه معنى من الحق وان فيه لحقا يجدر بنا وبسائر الناس ذكره . أما قول هذه المؤلفات ان أى انسان تأخذ عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد وتسميه ملكا يرسل الله عليه في الحال شعبة من نوره ويمده بروح من عنده ويعمر قواده بأسراره القدسية ويؤهله في التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته فذلك حمق وخرافة وحسبه منا أن نتركه يبلى ويعفن في أجواف كتبه أو بعبارة أصدق اجواف قبوره . ولكنى أقول — وهو ما عناه وأراده أرباب مذهب « حقوق الملوك المقدسة » وهو انه يوجد في الملوك وفي جميع العلائق والمسؤوليات والسلطات التى تكون بين الولاية والرعية إما حق مقدس او منكر شيطانى . لا بد من أحد هذين ! اذ انه من أخفش الخطا والكذب ما قاله القرن السالف الكافر من ان هذه الدنيا آلة ومكينه . بل ان فى الكون لالهها وكل ما يجرى بهذا العالم من حكومة وال وطاعة



رعية بل كل عمل وحركة لا بد أن يوه إما برضى وإما بغضب من الله .  
وأشرف ما يجرى بين الرجل والرجل هو لاشك الحكومة والطاعة .  
والويل لمن يطلب من طاعة الناس مالا يستحق . ولمن يأبى أن يؤدي  
من الطاعة ما أوجبه الله عليه لزعيم أو أمير ! بذلك يجرى قانون الله  
المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نواميس الحكومات . نعم ان في  
كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقاً مقدساً أو منكر اشيطانياً  
هذا أمر جدير بالنظر والتدبر . وخلق ان تذكره في جميع شؤوننا ولا  
سيما في أمر الزعامة والولاء أهم تلك الشؤون . وعندى انه شر من مذهب  
« حقوق الملوك المقدسة » هو ذلك المذهب القائل ان العالم يدور على  
محور المصلحة الذاتية وتديير الثروة وانه لا معنى هناك مقدساً في تعاشر  
الناس وتخالطهم . واني أكرر عليك قولى « انك ان تاتى بالملك القادر  
الكفء لأجعلن له على حقاً مقدساً . ولعل دواء الأمم في هذه  
العصور هو ان يوقفها الله بعض التوفيق الى ايجاد الملك الكفء وان  
يلهمها طاعته والانتقياد اليه اذا وجد ا واني أرى في الملك القادر -  
هادى الأمة في سبيل الأعمال النبوية - خلة الدين كذلك ومعنى  
القسوسية . فهو أيضاً هادى الأمة في سبيل شؤونها الروحانية التي هي  
مصدر الشؤون النبوية فالملك لذلك رئيس الكنيسة أيضاً . ولندع  
بعد مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يلى في أجواف مؤلفاته أو قبوره  
لاتوقف صداه ولا نستثير هامته

وحقاً ان التماس الرجل الكفه والحيرة في ذلك لمن أشق الأمور  
وأجسمها ! وتلك هي آفة الامم في هذه العصور والازمة الحرجة .  
هذه أوقات ثورات . وانى أرى بناء شئون الدنيا قد اطرحوا المقاييس  
والمعايير وأغفلوا قانون التوازن فانهار البناء بهم فاذا هم والبناء خليط  
انقاض مشوش ! وليست الثورة الفرنسية هي مبدأ هذا التهدم والسقوط  
بل لعلمها الغاية والنهاية ولا نخطئ اذا قلنا ان المبدأ كان منذ ثلاثة قرون  
أى منذ نهضة لوثر . وكان داء العالم اذ ذلك تحول كنيسة الله اكدوبة  
ووقاحتها وصفاقة وجهها اذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب  
العباد بالبرم والدينار . وكان هذا مرضاً في الدين — داء في الروح والجوهر  
ومتى ادوى الجوهر واعتل الروح فأحر بالجسم والظاهر ان يفسد  
ويدوى — ثم تزداد فسادا ومرضاً . لقد كان الايمان قد قى وباد .  
وافض الشك وتفشى الجحود والاحاد . وطرح البناء معياره ومقياسه  
وقال لنفسه « أى قيمة لقانون التوازن وأى فضل في الحساب  
والنظام . ضع الحجر على أخيه كيفما جاء وانفق ولا يعينك ان نجشم  
النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة ياللاسف كما تعلمون ! —  
وانى لأتبع اتصالاً طبيعياً والتأما تاريخياً ما بين مقالة لوثر اذ قال  
للبابا « انت أيها الملقب نفسه « البابا » افكا وزورا ما أنت باب في الدين  
ولا والد لنا في الله . انما أنت اكدوبة يعجز اللسان أن يمجده بين  
الالفاظ المهذبة الرقيقة ما يلبق بنعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة

الفرنسوية إذ علابها ضجيج الثوار في قصر الامارة يصيحون « إلى السلاح ! إلى السلاح ! ». ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئاً حقيراً أو باطلاً ! كلا إنما كانت صوت الامم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها اثناء الكابوس — نعم صوت الامم هبت من حاله بين الرقاد والموت . فبدأت تشعر أن الحياة شيء حق . وان عالم الله ليس بمكيئة تساس بالدهاء والمكر وتدبر بعلموم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فارسلت صيحة جهنمية — وإنما أنت جهنمية لان طغاة الملوك وعتاة الحكام أبوا الا أن تكون كذلك . لقد هبت الامم وقالت لا بد للأباطيل والاضاليل أن تنتهى ويخلفها نوع من الاخلاص كيفما كان . ولا بد لنا من عودة إلى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية وجلبت على رؤوسنا شر الفظائع وأشنع البلاء . هذه هي الثورة الفرنسية — هي كاترون حق ولكنه حق ملتفع في شواظ الجحيم ولظى جهنم ! —

وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من أهالى انكلترا أن الامة الفرنسية كانت في تلك الأوقات (أوقات الثورة) قد جنت . وان الثورة الفرنسية كانت صنفاً من الجنون تحولت فرنسا و فرق عظيمة من سكان المعمورة اثناء مارستانا . ذلك كان رأى العدد العديد من الانكليز وفلاسفتهم ان الثورة كانت حريق جنون شب ثم خمد واصبح الآن في عالم الاحكام والاوهام والقصص والعجائب . والنوادر

والغرائب ! فليت شعري كيف كان وقع الثورة الثانية - ثورة ١٨٣٠ في نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا أن الثورة الاولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك وان حديثها أصبح كحديث الخرافات لا يكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانيا إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تذبذب وتذبذب . وكل ذلك لتويد الثورة الاولى وتحفظ آثارها وتنتائجها . نعم ان أبناء رجال الثورة الفرنسية وأحفادهم يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ويأبون الا تمسكوا به واصرار عليه . هم لا يبرأون منه إلى الله . بل يعملون على حفظ أثره . واستنتاج ثمره . باذلين الدماء والارواح في سبيل ذلك . ولعل في هذا الحادث (حادث الثورة الثانية) أكبر مصاب لاولئك الفلاسفة الذين أسسوا مبدأهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ولا يعود بها الزمن أبدا . نعم أن في ذلك الحادث نكبة لاولئك الفلاسفة حتى لقد ذاب قلب الاستاذ المؤرخ الالماني «نيبور» كذا وتقطعت نفسه حسرة لما بلغه نبأ هذا الحادث . ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلا ببدء الايام الثلاثة (هو اسم ثورة ١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال ولست أشبه هذه الموتة الابموتة الشاعر الفرنسي الكبير (راسين) الذي قتله أن لويز الرابع عشر تجهمه <sup>(١)</sup> مرة ورمقه شزرا . فياليت الاستاذ الالماني علم أن الكرة الارضية صلبة جلدة وانها طالما تحملت صدمات

---

(١) عبس في وجهه سخطا .

الدهر وضربات القضاء . وانه ليس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة حول محورها بعد ثورة « الأيام الثلاثة » ! ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتعلم الناس جميعا أن الثورة الفرنسية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة خرة من ثمار هذا العالم — عالم الله . وانهما كانت حقاً يحسن بكل انسان أن يعده حقاً لا باطلا ولا جنونا ! الى هنا

وحقاً أنه لولا الثورة الفرنسية لأشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ولعميت علينا وجوه الرشد واستبهمت معالم القصد وكنا لا محالة هالكين . وانا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الفرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسية الا كذلك أوجياً صادقاً ورسالة حقاً وان راعت القلوب وأزعجت الخواطر في عصر تصنع وكذب — رسالة تنبئ ان للكون سرا فان لم يكن الهيا فهو اذن شيطاني . ولكنه سر على اية حال . وأن التصنع والغش ليس بحق . وانه لا بد أن يتحول حقاً . والا اشتغل العالم تحت ما يستره من أثواب الغش واللؤم والباطل فاحرقها وليت شعري اذا احترقت فصارت « لاشيء » ، أفضل كانت قبل ذلك الا « لاشيء » ، نعم بالثورة الفرنسية انتهى التصنع والغش والباطل الاجوف الفارغ وانتهى شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسية رسالة الله الى الأرض صدع بها صوت من الرعد او صرخت بها نفخة اسرافيل في السور يوم القيامة ! فمن اسرع الى اعتقاده اصاب خيراً وحمد العقبى . ثم

لاطمأنينة ولا صفاء ولا أمن ولا سلام أو تعرف هذه الرسالة حق اليقين ! وقد كان الرجل وسط هذه الاباطيل والاكاذيب والاضاليل جديرا أن يصبر وينتظر — جديرا أن يمضى فى شأنه ويعنى بعمله . ويعلم أن القلم العلوى قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبات والشور وأن هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم فى الأرض بعد أن صدر فى السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا أن يرى ذلك . فيغتبط ويصبر وينتظر . ثم هو من وجهة اخرى اذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الازم وتراخى الخناق كان جديرا أن ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمله الى شؤون أخرى لاسيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقى ! وعندى أن أنفس الحقائق فى مثل هذه الحوادث « حوادث الثورة » هى حقيقة « عبادة الابطال » فانها أجمل العزاء واحسن السلوة فى هذه الاوقات وأملنا الوحيد فى سياسة الدنيا وتديرها . ولو أن الثورة هدمت جميع التقاليد والنظامات والعقائد والمذاهب والملل والنحل لسلبت لنا هذه الحقيقة . فان ثقتنا بأن الله مرسل لنا الابطال . وما جبلنا عليه من اجلالهم حينما يرسلون الينا — هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ووسط كل انهدام وانفجار ولوانك اسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « اجلال الابطال » لوقعت منهم موقع التكذيب والانكار ولأرخوا دونها حجب الآذان

وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلا عن عدم احترامهم  
الابطال لا يصدقون بوجود الابطال بل لا يودون أن يحيى الزمن  
يبتل قط ! وكانهم ظنوا أن الكون بعد أن تحول مكينة وهن وبلى  
حتى ضعف عن اخراج الابطال وعقم صلبه منهم . واذا صح أن  
الكون قد أصبح كذلك فاني قائل له أولى لك أن تكف بالمرّة عن  
اخراج الرجال . فانا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس  
ولا نرضى بانسجة ليس فيها الخبز والديباج او بالاختصار لا غنى  
لنا عن الابطال . أما مذهب « الحرية والمساواة » فقد كان  
من نتائج تلك الأحوال وكان اذ ذاك شيئا طبيعيا فلذلك لا يجمل بي ان  
أرد عليه . ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما أنه قد استحال  
وجود العظاء والابطال فللعالم الآن أن يستغنى عن هؤلاء الافئذ النوار  
بالمجاهير العديدة المتساوية في ضؤولة القدر وخسة القيمة وخفة  
الاحلام وعجز الآراء . » ماذا أقول في هذا المذهب وبماذا أقابله الا  
بعذر أربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لا بد منها اذ ذلك ولا مفر . ذهب  
أرباب ذلك المبدأ الى أن الناس أحرار متساوون وأنه ليس لرجل ان  
يسود ويقود ويتسلط . وحتجهم على ذلك أن عبادة الابطال واحترام  
المسلطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما الا كذب وباطل  
فحسبنا منهم ما كان . لقد خدعنا من هذا الطريق مرارا حتى فويت الثقة  
به . وطال تصديقنا حتى لانصدق . واذا كثر مجال النقود الزائفة في

الأسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح وأنه قد تصلح الامور  
وتستقيم الحال بلا ذهب . انا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل أعزهم عليها  
وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية وان كانت صابا وعلقا .

وبعد فليس هذا المذهب الا تحولا وانتقالا من الباطل الى الحق  
وليس هو بالحق . فاذا روى <sup>(١)</sup> أنه الحق باكمله فهو اذن باطل محض  
نتيجة الشك الأعمى يحاول أن يكشف عماه ليبر . فان عبادة الأبطال  
موجودة في كل زمان ومكان . وما هي قاصرة على اجلال الملوك والسادة  
والسواس والقادة . بل انها تمتد من عبادة الله الى أحط مواطن الحياة  
العملية وانحاء الرجل لآخيه بالسلام ما لم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل  
عبادة الأبطال واعتراف بان في كل انسان خلقه الله روحا من الخالق .  
وان كل امرئ مظهر لجلال الله . وعندى ان الذين ابدعوا اشارات  
التحية ودلائل الملائقة والاحتفاء التي تجمل الحياة وتزينها هم شعراء !  
وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل . والولاء —  
والاجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال من الممكنات بل  
من المحتات .

وانى اقول انه وان رأينا كثيرا من أبطال العصور الاخيرة قد ظهروا  
في الثورات وكانوا ثوارا فانهم بقطرة الله أبناء نظام لا ثورة . واشتغالهم  
بالثورة بلية عليهم ومصيبة اذ يرى أحدهم في الفتنة وكأنه فوضى .

(١) روى فعل ماض مبني للمجهول والضمير عائد على المذهب



وما هو بفوضى ولا كانت الفوضى قط من شأنه . ولكن جوامن  
الفوضى يحيط به وعقبات منها لا تزال تعاقبه وتعرقل مسعاه . وهو عدو  
الفوضى وخصمها . وإنما النظام عمله ووظيفته بل وظيفة كل انسان .  
وما خلق الله الانسان الا ليصلح الفاسد ويلم الشعث ويعمد الى الشيء  
المختلط فيصبه في أبداع قلب من النظام . ويلقيه في أكمل صورة من  
التنسيق والاحكام . والانسان رسول النظام . أوليس كل ما يصنع  
المرء في هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما فالنجار يعمد الى الشجر الغليظ  
الاشعث فينعم تحته وتمليسسه ويحسن تقديره وتصويره . ويجيد خرطه  
وصقله . ويلقيه في أعجب القوالب والصور ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة  
في المجتمع ؟ وقد خلقنا الله جميعا اعداء الفساد والفوضى وانه لمن  
البلية علينا جميعا وسوء الحظ أن نصرف عن التنسيق والتنظيم . الى  
التقويض والتحطيم . وسوء الحظ في ذلك والبلية مضاعفة على الرجل  
العظيم الذي يكون حبه للنظام على قدر عظمته .

وكذلك نرى ان أشد أعمال الثورة الفرنسية جنونا كانت تسير نحو  
النظام أقول وليس رجل من أولئك الثوار قد طار في دماغه جنون الخلق  
والفتك الا وهو مدفوع في كل حركاته نحو النظام منجذب اليه . وكيف  
وما حياته نفسها الا مسيرة نحو النظام بل لهى النظام ذاته . اذ ان الفوضى  
هى الفساد هى الموت . وما من فوضى ثور الا ويجعل الله لها قطبا

تدور عليه فتتحول بفضلها نظاما . وما دام الانسان انساناً فسيكون للثورة رجل ك نابليون أو كرمويل تختم به وتم . عجباً والله كيف تكون عبادة الأبطال في أزمان الثورة ضرباً من المحال في عقيدة الشعب السائر ثم لا تلبث أن تبدو للعيان فلا يستطيع أحد انكارها . وأرى «الحق المقدس» معناه على وجه العموم «القوة المقدسة» فاذا حسبت الامارة والسلطة في عصور الثورة انمحت وماتت اذا بها قدعادت اليك في شخص نابليون أو كرمويل وانما هي المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت وأتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة . وتاريخ نابليون وكرمويل هو ما سننظر فيه الآن ان شاء الله . وهو آخر أصناف البطولة كما قسمنا . واني ارى في تاريخ هذين البطلين ما يعيد إلينا عهد الملوك في طفولة الأمم اذ يرينا كيف كانت تنشأ الامارة فجر تاريخ العالم وكيف كانت تولى الملوك يومئذ





